

ارسلت هفتواي

ودرجاؤها زرع

ارنست همنغواي

وداعاً ايها السلام

ترجمة: رفعت نسيم
مراجعة: احمد زكي عبد الحليم

دار القلم

بيروت - لبنان

في اواخر الصيف من ذلك العام . كنا نقيم في احدى القرى القائمة على
الشلال المطل على النهر ، والسهل الذي يليه ، نحو الجبال .

وفي قاع النهر من ناحية الضفة ، كان الحصى براقا لامعا . . والمياه
تنساب سريعة متدفقة ، تبدو للعين وهي تتماوج في شعاب الارض الخضراء ،
زرقاء بلون السماء .

كانت فرق الجنود تمر تباعا على مقربة من البيت . منحدره نحو نياية
الطريق ، وكان القبار الذي تثره وهي تضرب الارض باقدامها المتلاحقة ،
يعفر اوراق الشجر . . بل وجدوعها القائمة الالوان .

اما السهل فقد كان واقر المحصول . غنيا باغراسه ومزروعاته . فهناك
العديد من بساتين الفاكهة وحدائق الازهار الموسمية . وعند اطراف السهل
كان الجبل العملاق ينصب اجرد قاحلا ، وعلى سفوحه الصخرية القائمة
كانت تدور معارك ضارية . ويحدث القتال ليل نهار .

في الليل ، كنا نستيقظ على صوت المتفجرات ودوي القنابل . ونأمل
بريق المدافع .

وكم من ليلة قضيناها ونحن نراقب زحف الفرق ، وهي تمر من تحت
نوافذ البيت ، وامامها المدافع الضخمة تسحبها الالات الجرارة .

كانت الحركة دائما اثناء الليل . وصناديق الذخيرة تتدفق على ظهور
البيغال ، وشاحنات رمادية اللون تقل الجنود ، واخرى منها عنبت بالعقاد ،
تسير بطيئة في الطريق المزدحم .

...

في الخريف ، عندما نزل المطر ، تساقطت اوراق الكنساء في الغابة
القائمة شمالا ، وبدت الاغصان عارية والجذوع قائمة الالوان . وكذلك عربت
شجيرات الكرمة المنتشرة في كل مكان هي الاخرى من كل مظاهر الخضرة .
وبدا الريف في سائر جنباته على هذه الصورة العابسة : فالهواء رطب
والطبيعة ساكنة والكون واجم .

الضباب منتشر فوق سفحة النهر ، وفي اعالي الجبال تتزاحم قطع
الغيوم متزاحمة متلاحمة . وعبر الطريق المارة بالقريية ، يتوالى رتل
الشاحنات ، قاذفة برشاش المياه الموحلة في كل جانب . والجنود في زحفهم
المتواصل ، ثيابهم مبللحة ، ورؤوسهم مبللة وفي صدر كل منهم برزت حافظتنا
الخرطوش الجلديتان حتى بدا كل جندي زود بهما ، كأنه امرأة حبلى في
شهرها السادس .

بينما سيارة « جيب » رمادية اللون ، تنهب الارض في الفترة بعد
الفترة ، وقد جلس في داخلها الى جوار السائق احد كبار الضباط ، وفي
الخلف ضباطه المرافقون .

كانت هذه السيارات الصغيرة ، تقذف برشاش المياه الموحلة اكثر من
غيرها ، وكنا نعرف حين تتميز احداهما بسرعة فائقة ، انها تقل الملك الذي
خرج من مقره في « الاودين » ليطالع بنفسه على مجرى الاحداث ، التي كانت
في الواقع تسير من سوء الى اسوأ .

وفي مطلع الشتاء هطل مطر غزير ، وحملت مع المياه المناسبة في زحفها
جراثيم الكوليرا . فأرعبت النفوس واتضت المضاجع ، ولكنهم استطاعوا
القضاء عليها ، بعد ان ازهقت من ارواح الجنود سبعة آلاف فقط ! كانوا
جميعا في فرحة الشباب ونصرة الصبا .



في السنة التالية تبدلت الحال ، لقد احرز جنودنا انتصارات قيمة . واستطاعوا الاستيلاء على الجبل المحاذي للنهر وجوانب التلال المقاربة ، حيث تنمو غابة السنديان . وفي آب من السنة ذاتها عبرنا النهر ، وانتقلنا الى بيت جديد في كوريزيا في حديقته المسورة بامورة ماء متحركة ، وسط اشجار كثيفة الظل .

كان القتال الآن قد انتقل الى سفوح الجبال المجاورة ، على مسافة ميل تقريبا ، وكانت المدينة التي اتخذناها مقرا تبدو جميلة وادعة ، وكذلك البيت الذي سكناه ، كان مريحا للغاية ، تناسب خلفه امواج نهر متعرج ، وتحيطه من الجهة الاخرى عزائش الكرم ذات الالوان الزمردية المفرحة . والظاهر ان جنودنا ، نجحوا في انتزاع المدينة من ايدي العدو دون ان يكلفوا ابناءها خسائر فادحة في ممتلكاتهم ، ولعل اعدائنا النمساويين قد غادروها ، وفي نفوسهم امل العودة اليها ذات يوم ، بعد انتهاء الحرب ، لذلك رفقوا بعمرائها من ان تلتهمه النيران وبابنائها من ان تحطفهم شظايا القنابل .

في داخل المدينة ، كان الناس يتابعون حياتهم المعتادة وقد استأنفت المستشفيات والمقاهي والمطاعم نشاطها المعهود ، حتى بطاريات المدافع ، على جوانب الطرقات كانت هي ايضا على استعداد للعمل . وفي ناحية من المدينة بيتان للدعارة أحدهما لافراد الجند ، والآخر خاص بالضباط .. كان كل منهما دائم الحركة .

ومع طلوع الخريف ، عادت الليالي الباردة ، وكان القتال لا يزال يجري في شعاب الجبال ، وراء المدينة . أما الجسر الحديدي فقد تلوى بشظايا القنابل .. غير ان وجود فتيات جميلات كان يخفف من حدة هذه العوامل القاسية . وقد صار بمقدورنا ان نشاهد الملك حين يمر بسيارته ، بجسده النحيل الطويل ، ولحيته الشائبة .

هذه المظاهر والعوامل بالاضافة الى ما اصاب المنازل ، وتراكم الطين والحجارة في الحدائق والشوارع العامة ، قد جعل من خريف هذا العام فصلا مخالفا لقرينه في العام المنصرم .. يوم كنا في الريف ، حتى الفصول في سنين

الحرب تتغير . . . والحرب بنفسها تتغير ومائلها كذلك .

• • •

في الصيف ، يوم حللنا المدينة ، كانت أشجار غابة السنديان المنتشرة على سفح الجبل - خضراء مورقة ، كانت ندية زاهية ، تفتشي لتهاديها النفس ، ونعفو العين بالنسائم العليقة التي تسري بين أوراقها ، وها هي الآن .. بقايا جفوع ، وحطام أعصاب وجذور متيبسة ، منبوثة محترقة .
والارض التي كانت لاسابيع خلت اما لنباتات برية حية تضحك مع اشراقه الطبيعة ، وتسبح جمال الحياة الخيرة . اتيتها فاذا بها منبوثة محترقة ، غيا لهول ما حل بها ! لقد تجلببت بالسواد سواء منها اديبها الاخضر ، راغصاتها العظمة الطرية .

وتطلعت الى الاقنى ، فاذا سحابة تسير مسرعة باتجاهي نحو قمم الجبال والشمس ناخذ في الاصفرار ، نريد الغروب . . . وبعد ثوان أصبح كل شيء رماديا باهنا ، واتحجبت السماء عن ناظري ، وفجأة انتشر الضباب ومزلني عن كل شيء ، فلم اشعر الا بالثلج يتساقط علي .

انهمر الثلج بالرغم من الريح . واكتست الارض العارية بثوب الشتاء النامع البياض . وبرزت جراميز الاشجار . كان الثلج يغير كل شيء ، حتى هياكل المدافع الضخمة ، وكانت الانلام الطويلة في بساط الثلج الابيض ، أكثر ما يلتفت النظر وهي ذاهبة في اتجاهها خلف خنادق الجنود !

شاهدت تساقط الثلوج مرة اخرى ، في غير هذا المكان ، في قلب المدينة ، كنت اجلس مع ضابط من اصدقائي . اطل من نافذة بيت الدعارة ، وفجأة غمر الثلج كل شيء وادركت ، انا وصديقي الضابط ان كل شيء قد انتهى بالنسبة للسنة الحالية . وان حدة الحرب ستخف قليلا .

وبينما نحن ساهمان في تأمل ما تفرضه حبات الثلج الصغيرة هذه على الانسان سيد المخلوقات ، اذ ابصر صديقي الضابط كاهن فرقنا يخطو فوق الثلج ، ونيدا بتيقظا . فاراد ان يستلقت انتباهه لوجودنا هنا ، في هذا المكان بالذات ، فمد عنقه خارج النافذة ، حتى لمح العنق واتجه بعينيه نحونا وابتمسم . فاشار اليه صديقي ان يدخل ويشاركنا ما نحن به ، ولكنه هز رأسه وتابع مسيره .

وفي المساء ذاته ، بعد تناول وجبة « المعكرونة » المعتادة ، التي كان كل منا يلذيقها بنفس الشهوة ، شرع القائد في دعاياته الساخرة ، مصوبا سهام لسانه الى القس الطيب القلب .

كان القس شابا ، شديد الحياء ، وكان يرتدي بزة عسكرية ، كلباسنا نحن رجال الفرقة الطبية ، بزيناها فوق جيب سترته اليسرى صليب من المخمل الاحمر القاني ،

طلق القائد يتحدث برطانية ايطالية ، الامر الذي جعلني ارتاب في صحة ما ائمهه في حديثه ، في حين كنت حريصا جدا على فهم كل شيء ، وعلى ان لا تفوتني كلمة واحدة .

— ان كاهن اليوم صديق للفتيات . قال القائد متطلعا الي ، والى القس ، الذي ابتسم وعلت الحمرة وجهه ، ثم هز رأسه علامة الرضى . وكان القائد كثيرا ما يداعبه بمثل هذه اللذعات . . وهكذا اردف :

— اليس كذلك ؟ . ثم اشاح بوجهه عنه ، وغمز بعينه واردف من جديد :

— لقد رايتك اليوم بصحبة سرب من الفانتات .

— لا ، صاح الكاهن سريعا بينما بدأ السرور على وجوه الضباط الحاضرين .

— اتقول لا ؟ كاهن وبدون فتنيات ! الكاهن ابدا لا يكون بدون فتنيات . ثم راح يشرح وجهة نظره هذه الي ، محملا في وجهي ، دون ان تغفل عينه عن مراقبة القس .

— كل ليلة لا بد ان يكون كاهن مقابل خمس نساء . وما اتم عبارته هذه حتى انفجر جميع من في القاعة ضاحكين .

— هل مهمتهم ؟ كاهن واحد مقابل خمسة . ثم اوما برأسه وتبته مسرورا . وهنا تدخل الماجور في الحوار ، مؤيدا موقف القائد .

— ان قداسة البابا يميل الى ان يربح النمساويون الحرب . . لانه يحب الامبراطور فرنسوا جوزيف . . وهذا بالضبط سر النقود الكثيرة بين ايديهم . انا رجل صريح . . ولا اعترف بالدين ولا برجاله .

— يظهر انك قرأت « الخنزير الاسود » علق النقيب ثم تابع :

— ان لم تكن قد قرأته مساهديك نسخة منه . لقد كان مضمونه اقوى ما هز ايمانى بالدين وعقيدتي . . فقاطعه القس غاضبا : اتسه كتاب قذر شائن . انك لا تحبه من صميم قلبك .

— بلى ! انه قيم جدا ، يكفي انه يثبتك عن حقيقة الكهنة ولا شك انك ستعجب به وتقر آراءه .

وجه النقيب عبارته الاخيرة السي ، بينها نظرت انا في وجهه القس وابتسمت فرد علي بابسامة مماثلة ، لحتها على ضوء التنديل الخافت ثم

اتبعها بقوله :

لا تقراه ، انه كتاب قذر !

ولكن النقيب اُردف :

— ساجلبه لك على كل حال .

فعلق الملازم بصوت جهوري :

— كل رجال الفكر من الناس ملحدون .

وفي هذه اللحظة ، دخل الغرفة احد المجندين فاستطعت عند انفتاح الباب ان ارى استمرار سقوط الثلج بفرارة . ماغتمت الفرصة ، محاولا ان اشير مجرى الحديث :

— لن تكون هناك هجمات هذه الايام ، فالثلوج تتراكم في كل مكان .

طبيعي ، بامكانك انتهاز الوقت والذهاب في مأذونيتك السنوية ، اذهب

الى روما ، نابولي ، صقلية .

فقاطعه النقيب :

— عليك ايضا ان تزور امالفي ، وساحملك بطاقة توصية لعائلتي هناك،

حيث ستجد عندهم ما يلذ لك ويطربك تماما كأحد ابنائهم .

— عليك ان تزور بالرمو .

— ينبغي ايضا ان تذهب الى كابري .

— اريدك ان ترى ابروزي وتزور عائلتي فيها . قال الكاهن ذلك ، ولكن

اللفتنات اسرع في الرد عليه :

— اراه يتحدث عن ابروزي ، انها اكثر لئوجا من هنا هذه الايام . انك

لست قلقا بشأن مشاهدة القرى والقرويين . اذهب الى مراكز الثقافة ، الى

المدن الكبرى .

— لا ، الافضل بالنسبة اليه ان يتبع الفتانات . . . ساعطيك عناوين

اماكنهن في نابولي ، صبايا رانعات ، وبصحبة امهانهن ايضا .

قال اللفتنات ذلك ونظر الى الكاهن ثم اُردف صائحا : كل ليلة كهنة

خمس مائة فناة واحدة !

وانفجر الجميع ضاحكين ، بينما تابع اللفتنات :

— ابدأ مأذونيتك حالا .

— ليتني استطيع مرافقتك لاطلمك على ما اعرف من اسرار . فقال

النقيب :

— عندما تعود اجلب لنا « توتوغرافا » .

— واسطوانات اوبرا رائعة .

— وكاروسو .

— لا ، لا نريده ، انه يزعم .

— الا تمنى ان لو كان باستطاعتك ان تزعم مثله .

وهنا قطع الكاهن على الحمسين في طلب الهدايا فرحة ابداء رغباتهم
بقوله :

— انصحك بالذهاب لايروزي . . فهناك صيد كثير واناس طيبون ، انك
ستحبهم ، وتلقى منهم عطايا وكرا . . وبالرغم من انها منطقة باردة ، فالسمااء
هناك صافية دائما ، الهواء ليس رطبا ، وبالطبع ستحل ضيفا على عائلتي . .
وتتعرف الى والدي الصياد الشهير .

وكان الكابتن اراد ان يختم الجلسة بلذعة اخرى من لذعاته فلم يكفد النفس
ينهي عبارته حتى بادر قائلا :

— هلم بنا ، الى صبايا الحانة ، قبل ان تغلق الابواب . فودعت الكاهن
ونهضت .

• • •

عندما عدت الى الجبهة بعد انقضاء فترة المأذونية ، كنا لا نزال نقيم في
كوريزيا ، البلدة الواحدة .
وفي طريقي اليها لاحظت ان عددا من المدامع الجديدة ، قد ركز في نقاط
الامة وفي شتى الاتجاهات .
بيع تد ولى جزره الاصغر ، فاختصمت الامة .
ان

أسفل السرير ، ركزت حقيبتى الجلدية الكبيرة ، والى جانبيها حذائي الشتوي .
كان الليوتنان رونالدي مستلقيا على السرير الآخر ، وحالما سمع
خطواتي عند مدخل الغرفة نهض واعتدل فوق سريريه :

— مرحبا ؟ كيف كانت أيامك ؟

— فاشرة تماما .

ومد يده الي ، فصافحته بحرارة ، ولكنه ضمنى الى صدره في عناق
طويل واضعا يده حول عنقي ، متبعا ذلك بقبلة حارة ثم قال :

— يظهر ان جسدك قد اتسخ كثيرا ، ينبغي ان تستحم الان . اين كانت
رحلتك ؟ ماذا فعلت ؟ اخبرني بكل شيء حالا !

— زرت كل مكان .. ميلانو ، فلورنس ، روما ، فيلا سان كوفاني ،
ميسينا ، تورمينيا .

— اراك تتكلم كما لو كان امامك جدول اسماء .

— هل قيمت باية مغامرة مدهشة ؟

— نعم .

— اين كان ذلك ؟

— في ميلانو ، وغرنزي ، وروما ، ونابولي .

— كفى ! ايتها كانت الاروع في نظرك .

— تلك التي في ميلانو .

— هل هي كذلك لانها الاولى ؟ اين قابلتها ؟ في البار ؟ ومن ثم اين ذهبتما

كيف كنت تشعر ؟ بما احساسك ؟ اخبرني بكل شيء ! بكل شيء ! حالا ! هل

استمررتما طول الليل ؟

— نعم ..

— على كل حال ، اصبح هذا لاهمية له .. فعقدنا اليوم فتيات جهيلات ،

فتيات حديثات العهد ، لم تعرف الجبهة مثيلات لهن من قبل .

— حسنا ..

— الا تصدقني ! مغذهب مما هذا المساء ، وسأريك بأمر عينيك .. وفي

البلدة ايضا سرب من البريطانيات الحسنان .. ولا اهتمك ، اني اليوم في حب

جارف مع احداهن الانسة باركلي .. وسأصطحبك لزيارتها ، من المحتمل ان

أتزوج منها .

— حسنا ، ولا بد لي من الاستحمام اولاً ثم تقديم التقرير . من في الخدمة

الآن ، من رجال الفرقة ؟

— منذ غادرتنا وليس عندنا عمل نقوم به . . اللهم الا بعض حالات مرض
اليرقان والتهاب الرئة . على اني سمعتهم يتحدثون عن هجوم جديد في الاسبوع
القادم . هل تعتقد ان من الصواب زواجي بالانسة باركلي ؟ بعد الحرب
طبعاً .

— طبعاً . . قلت ذلك ، وسكبت الدلو المملوء ماء
— هذه الليلة ستخبرني كل شيء ! والان سأعود الى النوم كي استيقظ
نشيطاً نضراً استعداداً للقاء الانسة باركلي .

نزعتم معطفي وتميحي وتحممت بالماء البارد . وبينما انا منهمك بتدليك
جسدي ، رحت اجيل النظر في الغرفة من حولي : في الامتعة المختلفة ، في
رنالدي وهونائم مطمن وعيناه مغمضتان ، وشعره اشعث مبعثر : كان وميم
الطلعة ، له نفس عمري . وقد قدم من امالفي ، ورغب في ان يعمل نفس
عملي مريضاً في الجيش وسرعان ما نشأت بيننا صداثة متينة . وفيما كنت
اتأمل وجهه الهاديء فتح عينيه وسألني :

— هل معك نقود ؟ — نعم !

— اقترضني خمسين ليراً فقط .

نشفت يدي ، واخرجت حافظة نقودي من داخل معملتي المعلق على
الجدار . تناول رنالدي الدراهم ، دون ان ينهض من سريره ، ثم دسها في
جيب سرواله ، وابتسم قائلاً :

— انك صديقي الاعز الطيب . . وكذلك فأنت ملجأني عند ضيقي المادي .

— لياخذك الشيطان الى الجحيم ، ايها الابله !

. . .

في امسية ذلك اليوم ، اثناء الطعام ، جلست الى جوار القس كانت
علامات اليأس بادية على محياه ، وعندما علم بانني لم اذهب الى ابروزي تأثر
كثيراً وظهر عليه الاسى .

كان قد كتب لوالده يئبئه بقدمي ، واستعد القوم لاستقبالي وقد بادلته
نفس الشعور بالمرارة الذي انتابه ، بالاضافة الى انني لم استطع تبيان السبب
الجلي الذي من اجله لم الب دعوته البريئة . فتفرعت بالقول انني كنت راغباً
في الذهاب الى هناك ، غير ان ملابسات الحوادث التي واجهتني ، واختلال
البرنامج الذي وضعت لايام عطلتي وحدث ما لم اكن اتوقعه ، كل ذلك
جعلني عاجزاً عن تلبية دعوته ، واخيراً ظهر عليه انه اقتنع بمزاعمي ، وقد تم
كل شيء على الشكل الذي اردته اثناء دفاعي المخلوق ، كنت اسرف في احتساء
الشراب ، ومع ذلك فقد اوضحت له وانا مخمور وجهة نظري في ان كثيراً من

الاشياء التي تنوي تنفيذها ، لا تتم وقد لا تتم أبدا .

وبينما كنا في هذا الحديث ، كان الحاضرون في جدل آخر . والحقيقة اني كنت راغبا في زيارة ابروزي ، ولكنني لم اذهب السى أي من الاماكن التي اشتد فيها البرد وتجمد الماء ، ولاسيما مناطق الريف حيث الارض يكسوها الثلج ، وحيث الفلاحون السذج يخلعون قبعاتهم عند رؤيتك ويدعونك بلقب اللورد ، وحيث ايضا يوجد الصيد الكثير .

لم اذهب الى أي من تلك الاماكن ، ولكنني بهمت وجهي شطر المقاهي حيث تعقد سحب الدخان ، شطر الليالي الصاخبة ، شطر الغرف الدافئة ، هناك حيث تذوب في وسط الدوامة ، ويدور بك رأسك ، ويزيغ بصرك ، وتشعر كان كل شيء حولك يطن وبدوي ، وتتحسس الجدار ، تريد ان تتكئ بجسدك عليه ، تريد ان يهدأ روعك .

هناك ، شطر ليالي السرير الوثير ، والنبذ المعنق ، وحيث يدرك المرء ان كل ما يتمناه ويحلم به ، طوع بئانه ، وفي مقدوره .

هناك حيث تفاجأ بهشاهد . حيث ترى في الصباح وانت تفتح عينيك ، جسدا غريبا الى جانبك ، قد نسيت ليلته معك . وتحس في ظلام الغرفة بأن الدنيا كلها زائفة ، وبأنها كذلك مثيرة ، وانه ينبغي عليك الظاهر بعدم الاكتراث بكل ما حدث ، وتجاهل متع كل الساعات الفائتة .

وتمضي عليك دقائق مزعجة ، وعلى حين غرة ، تجد نفسك مساقا الى الاهتمام من جديد ، فاللهفة الى التمدد ثانية والاغفاءة ايضا ، ومن ثم الى يقظة اخرى الى تأمل عميق بكل ما حدث ، الى مواجهة كل شيء على حقيقته ، مهما كان صريحا .. مؤلما .. حادا . واحيانا الى خوض مساومة عنيفة حول الثمن .

وفي رغبة وتصوق ، نطلق الى الخارج ، الى هواء الحرية النقي ، وفي نفسك طمأنينة ، وفي جسدك نشوة ، وكلك قناعة بأن كأسك قد فرغت ، وان حظك قد استوفي ، ولكك سرعان ما تعاود الكرة .. ليلة اخرى ، وقراش آخر ، وكأس مترعة .

واستطردت في حديثي ، محاولا ان ابلغ القمة في رسم لوحة الليالي الزاهية ، جاهدا في ان ادعم رأيي بافضلية الليل على النهار وفي سحرة وطمأنينته ، ولم أكن في كل ما مضى من حياتي ، قد فشلت في اثبات ذلك كما فشلت الآن ، بعد هذه المقدمات المسهبة .

ولكنني قلت لجليسي ، لو اتفق لك ان عشت تلك الليالي التي عشتها ، ولو لمرة واحدة لاقتنعت فوراً بوجهة نظري .

وعلى كل حال فإن جليسي الكاهن لم يستشعر القمع والحكمة في كل ما ذهبت إليه ، إنما استطعت أن أتبين من تقاسيم وجهه ، أنه أدرك صدق نيتي في زيارة أبروزي . . وأنه بالرغم من خيبيتي في الذهاب . . ما زلنا صديقين نلتقي في كثير من الآراء ، رغم ما بيننا من هروق . كان هو يعرف الكثير مما لا أعرف . الكثير ، ولو عرفته لكنت على استعداد دائما لنسيانه .
وعندما انتهيت من حديثي ، كان وقت الطعام قد مضى ، ولكن الآخرين ما زالوا في جدالهم الصاخب ، وفتاة نظر الكابتن نحونا وصاح :

— الكاهن ليس مسرورا . . الكاهن لن يكون مسرورا بدون فتيات !
— لا انني مسرور .

— أنك لا تقول الحقيقة . . أنك تريد لو يربح النمساويون الحرب .
قال الكابتن ذلك وصمت ، وهذا حدوه جميع الحاضرين منتظرين صدى الاتهام في نفس الكاهن .

ولكن الكاهن اكتفى بهز رأسه قائلا :

— لا ، إذا كان هناك قتال ، فأنا اعتقد أنه من واجبنا الهجوم .
— واجبنا ! إذا سوف نهاجم .

فأطرق الكاهن رأسه ، وهناك قال اللفتنان :

— دع القس وشأنه . . كل شيء يسير على ما يرام .

موافق القائد على كلامه وأردف :

— ليس بمقدوره عمل شيء ما .

ونفض الجميع . . وغادرتنا غرفة الطعام .



استيقظت هذا الصباح على صوت المدافع يدوي في الحديقة القريبة . كانت الشمس مرملة اشعتها الدافئة عبر النوافذ ، فنهضت من سريري وانكأت على حديد الفتحة المتابلة منطلعا الى الخارج . كانت الارض المغروسة بالحصى مبتلة ، والعشب على جوانبها رطبا ترصعه قطرات الندى ، وفجأة دوى انفجار قبيلة . ثم ثانية ، واندفع عبر الفتحة هواء ساخن كالعاصفة العاتية . هز حديد النافذة ، واختلج في اطراف قميصي . لم استطع رؤية المدافع ، ولكن كان من الواضح انها تقذف نيرانها من فوقنا مباشرة ولم يكن لنا عزاء الا انها ليست من النوع الكبير ، الكبير جدا !

وبينما كنت اسرح نظري في الحديقة ، سمعت سيارة شحن تهرق فوق الطريق ، غارتديت ملابسي وهرولت هابطا السلم ، فتناولت فنجان قهوة من على منضدة في المطبخ وخرجت قاصدا مستودع السيارات .

تحت سقيفة المستودع اصطفت عشر سيارات ، جنبها الى جنب مكدسة بالاحمال حتى اعلاها . بينما وقفت تجاهها سيارة اسعاف رمادية اللون ، مصنوعة على شكل عربات الحافلة المتحركة ، وفي وسط الساحة كان العمال الفنيون منيهمكين في اصلاح سيارة اسعاف ثانية اما الثلاث الاخريات فكانت في مراكز الحرس عند منعطفات الجبال . وخطر لي ان استوضح الامر من احد العمال ، فسألته :

— هل اتفق لهم ان رموا تلك البطارية بقنابلهم ؟

— لا يا حضرة الليوتنان .. انها منيعة ، تحميها تلك التلة الصغيرة التي

امامها .

— وكيف تسير الامور الآن ؟

— ليست رديئة جدا ، هذه السيارة ليست على ما يرام ، ولكن بوسع

الاخريات ان تتحرك ، ثم توقف عن العمل والتفت الي :

— هل كنت في مأذونيتك ؟

— نعم . فمسح يديه بقميصه وامر على اسنانه .

— لقد نعمت بساعات حافلة اذا !

— نعم حافلة ! ولكن أين موضع الخلل في هذه السيارة ؟

— لم تعد صالحة للاستعمال .. آلة بعد آلة تعطل وتقطع عن

الحركة .

— واية آلة هذه المرة ؟

— المحركات !

تركبت الفئتين يتابعون عملهم ، واتجهت الى تحت السقيفة أتفحص السيارات المصطفة . كانت كلها حديثة التنظيف مع ان بعضها يعلوه شيء قليل من غبار الطرق . تطلعت الى عجلاتها بامعان ، باحفا عن اية اصابة خفية فيها فلم اجد لقد كانت جميعها بحالة جيدة ، وكان واضحا ان تفقدي اياها وعدمه سواء ، ولكن غروري صور لي ، ان حالة السيارات ونقل الجرحى من مراكز الاسعاف الامامية الى المراكز الخلفية ، ومن ثم توزيعهم كل الى المستشفى المقرر له . . ان كل ذلك منوط به شخصيا والى حد كبير ، والواقع ان شخصي لم يكن له تأثير ما في اي من هذه الامور .

وعند عودتي من جولة التفتيش تلك ، سألت رئيس الفئتين :

— هل هناك اية آلات اخرى يمكن ان تعوقنا اثناء العمليات ؟

— لا ، حضرة اللبوتنان .

— اين خزان البنزين ؟

— ما زال في مكانه السابق .

— حسنا ، قلت ذلك ورجعت الى المركز ، وهناك احتسيت فنجانا آخر من القهوة ، ومن النافذة رحت اتأمل الصباح الربيعي القاتن . وكان هناك بداية احساس قريب بجفاف النهار القادم وحرارة شمس الساطعة . في ذلك اليوم زرت معظم المراكز الصحية في الجبل ، وقفلت راجعا الى غرفتي في البلدة ، بعد ان اتضح لي ان معظم الامور سارت بشكل افضل خلال الايام القليلة التي قضيتها بعيدا عن الجبهة . كما تناهى الى سمعي ان هجوما عاما سيبدأ في القريب العاجل .

كانت الفرقة التي نعمل في خدمتها ، ستنتقل في هجومها عند منابع النهر ، وطلب الى اللتنتانت تفقد جميع المراكز الطبية خلال العمليات الحربية . وكان مقررا ان ينطلق جنودنا عبر النهر فوق الجسر الضيق ، ومن ثم ينتشرون على جوانب التلال . وقد جعلت محطات السيارات اقرب ما تكون الى الضفة النهر ، وغطيت بحيث يصعب تمييزها . . وكان جليا انها ستستخدم من قبل جنود المشاة ، اما نحن رجال الفرقة الطبية فكان مغروضا علينا الاعتماد على انفسنا فقط .

لما بلغت البيت ، كنت مغبر الوجه ، مغفر الثياب ، فصعدت الى غرفتي لاستحم ، وعلى السرير رايت رينالدي مستلقيا ، وفي يده نسخة من كتاب

« هوج » في القواعد الانجليزية . كان مرتديا ثيابه ، وشعره مصفف بعناية ظاهرة ، وفي قدميه يلتمع حذاءه الاسود .

— فرصة نادرة . صاح عندما لحني . . سترافقني لزيارة الانسة باركلي .

— لا . .

— بلى ستاني وتساعدني في التأثر عليها .

— حسنا ، انتظر ريثما أفرغ من تهيئة نفسي .

— غسل فقط ، وهلم كما أنت .

ورأيت ان اسابير رغبتك فقبلت . سرحت شعري وانطلقت بصحبه

قاصدين مقرها .

كانت الحرارة ما زالت مرتفعة ولكن الشمس قاربت الغروب ، والجو

يبشر بامسية ممتعة .

كان المستشفى البريطاني عبارة عن بناية فخمة ، انشأها الالمان قبيل

الحرب . عند اقترابنا منه ، لحنا الانسة باركلي في الحديث ، وبصحبتها

ممرضة أخرى ، ومن خلال الأشجار ، ظهرتا لنا بملابس التمريض الرسمية ،

فاتجهنا راسا اليهما ، وحياهما رينالدي بحرارة ، بينما مدت يدي بشكل

اعتيادي ظاهر .

— كيف حالك ؟ بادرتني الانسة باركلي .

— أنت لست ايطاليا ؟ اليس كذلك ؟

— لا ، أبدا . .

كان رينالدي يتحدث مع الممرضة الأخرى ، وكانا في هذه الأثناء يضحكان

بينما تابعت الانسة باركلي :

— انه لامر غريب جدا ان يكون المرء في عداد الجيش الايطالي !

— الواقع اني لست جنديا ، انما اعمل في فرقة الاسعاف .

— ومع ذلك فهذا ايضا امر غريب شاذ ! كيف اقدمت على ذلك ؟

— لا اعرف ، قد لا يجد المرء تبريرا لكل شيء يحدث معه .

— آه ، احقا ما تقول ؟ كنت دائما من القائلين بوجود مسببات لكل ما

يحدث ، لقد نشأت على هذا الاعتقاد .

— ذك جبيل للغاية .

— هل سنستمر في الحديث على هذه الوتيرة ؟

— لا ، كما ترغيبين .

— عندك فرصة ؟ اليس كذلك ؟

— ما هذه العصا ؟

كانت الانسة باركلي ذات قامة طويلة جدا ، وكانت ترتدي ما ظنفته للوهلة الاولى بزة العمل الرسمية ، اما شعرها فكان أشقر جذابا ، بينما تهيل بشرتها الى السهرة الخفيفة ، وفي وجهها تشرق عينان صغيرتان . وقد تخيلت انها جبيلة جدا ، وانها في الواقع لغائنة .

كانت تحمل في يدها عصا مغلقة بالجلد ، ولما سألتها عنها قالت :

— انها ذكرى شاب قتل في مجزرة السوم الماضية .

— انني جدا متأسف لذلك .

— لقد كان شابا لطيفا ، كان بنوي الزواج مني ولكنه قتل على سفاف

السوم .

— آه ، لقد كانت معركة رهيبية !

— هل حضرتها ؟

— لا ، لقد حدثوني عنها ، لم يقع مثيل لها ابدا . . وبعد دفنه بعثوا الي

بالعصا ، كانت تلك والدته التي أرسلتها .

— هل طالقت فترة خطوبتك ؟

— ثماني سنوات ، لقد نشأنا معا .

— ولماذا لم تتزوجينه اذا ؟

— لمست أدري ! كنت غبية ، لقد أضعت الفرصة ، كان بإمكانني ان أندبر

الامر على أي حال ، ولكني اعتقدت انه من الخير له ان لا ينسحب .

— هل حدث لك ان أحببت يوما ؟

— عرفت ما تقصدين .

— لا . .

وجلسنا على احد المقاعد واخذت انظر اليها ثم قلت :

— انك تملكين شعرا جذابا .

— هل احببته ؟ — جدا . .

— كنت سأقصه عن آخره يوم مقتله .

— لا ، عن آخره .

— نعم ، كنت اريد ان اعمل شيئا ما من أجله في سبيل ذكراه . . لم اعد

ابالي بكل ما املك ، وقد كان بإمكانه ان ينعم بها . . جميعها . كان بإمكانه

ان يمتلك ما يريد ساعة يشاء . كان يجب ان أتزوج ، ان افعل اي شيء آخر

ولكن آه ، الآن أدركت فوائد الفرصة .

لم أحاول مقاطعة حديثها ، بل تركتها تهيم في ذكرياتها الساخرة .

— لم اكن اعرف ما يجب فعله ، كنت اعتقد ان تخلفه سيسىء اليه ،
وانه لا يستطيع المقاومة ، وهكذا كانت النتيجة . لقد قضى اخيرا وفاتنتسى
الفرصة !

— لم اسمع عبارتك الاخيرة .

— آه نعم ، تلك كانت النتيجة .

ونظرتنا الى رينالدي ، كان ما زال في حديثه مع الممرضة الاخرى .
فسالت جليستى :

— ما اسم الزميلة ؟

— فيركوسن ، هلين فيركوسن ، صديقك طبيب الپس كذلك !

— نعم وانسان طبيب ايضا .

— حقا ، وانه من الفادر ان يلتقى المرء باناس طيبين في هذا الجزء

القريب من الجبهة .. الپس كذلك ؟

— تماما .

— انها جبهة مفرعة ، ولكنها مسلية في آن واحد . هل ستقوم بهجوم

عاجل .

— نعم .

— اذا ستراكم الاعمال غدا . بينما هي نادرة هذه الايام !

— هل مضى عليك زمن طويل في هذه المهنة ؟

— منذ بلغت الخامسة عشرة ، في ذلك الوقت سافر عو الى الجبهة

وراودتني فكرة تافهة ، ان اكون ممرضة في المستشفى التي سيحملونه اليها

يوما ، جريحا كما تخيلته ، والاربطة حول راسه ، صورة خيالية كما ترى .

— ولكنك الآن في الصورة الحقيقية !

— حقا ، ان الناس لا يستطيعون تصور ما هي عليه الحالة في فرنسا ،

ولو ادركوا ذلك ، لما رغب واحد في الحياة هنا . آه لم يكن جريحا ، بل مزقته

القنابل اربا اربا .

ومرة ثانية تركتها تسترسل في ذكرياتها .

— هل تعتقد ان الحرب ستستمر طويلا ؟

— لا ..

— وما الذي يمكن ان يضع حدا لويلاتها ؟

— لا بد ان تنهار الجبهة في مكان ما .

— لا بد ان ان تنهار هنا ! في هذا الجزء ! في فرنسا ! فانهم لن يستطيعوا

المضى في الحرب . واحداث امثال مجازر السوم ، نون المنهار مريع .

- لن تنهار الجبهة هنا !
 — الا تعتقد ذلك ؟
 — لا ، فقد تاهبوا جيدا في الصيف الماضي .
 — ومع ذلك ، يمكن أن ينهزموا ، كل انسان يمكن ان ينهزم .
 — والالمان ايضا ؟
 — لا ، لا اعتقد ذلك .
 ثم سرنا باتجاه رينالدي والانسة فيركوسن ، وسمعتة بالانجليزية :
 — انت تحبين ايطاليا ؟
 — جدا . فهز رأسه قائلا انه لم يفهم جوابها .
 وعندئذ ترجمت له عبارتها ، فهز رأسه ثانية وأردف :
 — هذا ليس حسنا منك ، وانجلترا الا تحبينها ؟
 — ليس كثيرا ، فانا اسكتلندية ، هل فهمت ؟
 فنظر رينالدي الي يريد سماع الترجمة .
 — انها اسكتلندية ، ولذلك تحب بلدها اكثر من انجلترا .
 — ولكن اسكتلندا هي انجلترا !
 وعندما ترجمت ذلك للانسة فيركوسن قالت :
 — ليس صحيحا أبدا ، نحن لا نحب الانجليز .
 — لا تحبون الانجليز ؟ لا تحبين الانسة باركلي ؟
 — الامر يختلف ! ومع ذلك فهي اسكتلندية من جهة أمها ، يجب أن لا
 تفسر الالفاظ بحرفيتها .
 بعد فترة قصيرة ، ودعنا الفئتين وانصرفنا ، وفي طريقنا الى البيت :
 قال رينالدي :
 — الانسة باركلي تؤثرك علي ، ذلك امر واضح علي ان الاسكتلندية
 الصغيرة ناعمة جدا .
 — جدا ! ألم تلاحظ ذلك ، هل احببتها ؟
 — لا . .



في المساء التالي ، ذهبت لزيارة الانسة باركلي ، لم تكن هذه المرة في حديقة المستشفى ، ولذلك اقتربت من باب البناية الجانبى ، حيث تقف سيارات الاسعاف . وهناك قابلت رئيسة الممرضات التي اجابتنى :

— ان الانسة باركلي في العمل الان ، المعارك بدأت ، الا تعرف ؟
— اعرف ذلك .

— هل انت الاميركي المتطوع في الجيش الايطالى ؟
— نعم .

— ما الذي دفعك الى ذلك ؟ لماذا لم تلتحق بجيشنا ؟
— لست ادرى ولكنى مستعد للالتحاق الان !

— لا اعتقد انه بإمكانك ان تفعل . ولكن أخبرني لماذا تطوعت في الجيش
الايطالى ؟

— لقد كنت في ايطاليا ، كما اننى اجد الايطالية .

— ها انتى اتعلمها هذه الايام ، انها لغة عذبة ناعمة .

— يقول البعض انه يمكن الالمام بها خلال اسبوعين فقط !

— لا ، انا لم استطع ذلك ، مضى على شهر وانا ادرسها جيدا . يمكنك

القدوم الساعة السابعة لرؤية الانسة باركلي . اذا كنت ترغب في ذلك فعندها تكون قد مرغت من عملها ، ولكن انتبه ، لا تصطحب معك احدا من الايطاليين .

— حتى ولا من اجل البزات الجميلات .

— عسى مساء .

— الى اللقاء ايها الليوتنان ، قاتلها بالايطالية .

— الى اللقاء .

حييتها وانصرفت . كان من العسير ان تحبى اجنبيا بلغة الايطالى ، دون

ان تضيق بذلك ، كان التحية بالايطالية لا تصلح للتصدير .



كان النهار حارا ، وصعدت نحو منابع النهر ، عند رأس الجسر في بلافا:
النقطة التي كان مقررا انطلاق الهجوم منها . لم يكن ممكنا ان يتم ذلك في

العام الغالت ، لوجود طريق واحدة وضيقة ، توصل الجسر المصنوع من القوارب وقد كانت في معظم الأوقات ، تحت رحمة قتابل العدو ، الأمر الذي جعل استخدامها محفوفا بالمخاطر .

سرت بمحاذاة الطريق المذكورة باتجاه النهر ، تاركا السيارة في المركز الطبي عند سفح التلة ، ثم عبرت جسر القوارب الذي كان محميا بكف الجبل ، ورحت أنتقل بين خنادق الجنود ، المحفورة في اطلال تربة مدمرة . كانوا جميعا قابعين في خنادقهم وقد وزعت هنا وهناك صواريخ النجدة ، معدة للانطلاق عند الحاجة وعند انقطاع اسلاك الهاتف .

كان كل شيء ساكنا حارا ، وتطلعت الى ما وراء الاسلاك الشائكة ، الى خطوط النمساويين . لم ألمح احدا ، ولم يقع بصري على مخلوق ما .

لم يطل مكوثي بين الخنادق ، اذ قتلت راجعا بعد ان شاركني أحد الضباط الذين اعرفهم كاسا من الشراب المنعش ، ادرت بعدها ظهري الى بقاع الموت والانتحار الاختياريين . وعندما قطعت الجسر ، سلكت طريقا واسعة تصعد متعرجة في الجبل . وانضح لي ان موعد الهجوم يتوقف على انتهاء العمل في الطريق المذكورة ، ولذلك كان كل شيء يجري بسرعة واندفاع شديدين ، وفي طرف الطريق الآخر ، وجدت مكانا لسيارات الاسعاف يمكن ان تلجأ اليه في انتظار وصول الجرحى محمولين على اكتاف المرضين اللامدوعين ، من ضفة النهر الاخرى ، عبر جسر القوارب .

كان بودي قيادة السيارة فوق الطريق الجديدة ، ولكنها لم تكن قد انتهت بعد ، ولذلك درجت على الطريق الضيقة قاصدا البلدة .

وقبل مدخل المدينة بمسافة قصيرة ، اشار الي اثنان من البوليس الحربي الابطالي بالتوقف : كانت قد انفجرت قنبلة على بعد امتار قليلة من النقطة التي انا فيها ، وحينما صمت محرك السيارة ، انفجرت قنبلتان ثانيتان سيقيها عاصف من الهواء اللاصق ، تبعه وميض يخطف الانصار . واخرا سحبابة من الدخان الابيض الكثيف .

وبعد دقائق اشار الشرطيان بالتحرك ، فتدت السيارة ، متجنبنا حفر الطريق الظاهرة ، واحسست ان انفي يعقب برائحة البارود المزوجة برائحة الارض وفتات الصوان المتناثرة ، واخرا وصلت الى مقري .

لم أكد انتهني من تناول الغداء ، حتى نهضت قاصدا المستشفى البريطاني :

كان في الحقيقة بناء ضخما ، تكتفه من كل الجهات اشجار بديعة ، حسنة التنسيق .

وعلى مقعد بين تلك الاشجار ، رأيت الأنسة باركلي ، تجلس وبصحبتهما
الآنسة فيركوسن ، وحالما تأكدنا من شخص القادم نحوهما ، بدأ عليهما
السرور كمن ينتظر قدوم شخص عزيز .

لم يمض على وصولي بضع دقائق حتى نهضت الأنسة فيركوسن ، مدعية
ببساطة أنها مضطرة الى تركنا .

وقدمت مقدمة قصيرة قالت :

— ساترككما وحدكما ابنا الصديقان ، فيدوني تستطيعان قطع شوط

لا بأس به .

— لا تذهبي يا هلين ، اجانبتها باركلي .

— لا ، اني افضل ذلك ، عندي بعض الرسائل لا بد من الرد عليها هذا

المساء .

وعندئذ رأيت ان ادخل ، فقلت لها :

— الى اللقاء اذا .

— الى اللقاء يا سيدي هنري .

— لا تكتبي اي شيء يمكن ان يضايق مراقب البريد .

— اطمئني لذلك ، لن اكتب الا عن جمال المكان الذي نعيش فيه ، وعن

شجاعة الايطاليين ايضا .

— ذاك موضوع مستبعدين فيه .

— حقا ، سوف يكون رائعا .

— عمي مساء يا كاترين .

— ولكنني اريد رؤيتك قليلا .

وعندما ابتعدت الأنسة فيركوسن بادرت جليستني :

— أرايت كم هي مهيبة ، وذكية طبعاً .

— انها لطيفة جدا ، انها ممرضة .

— وانت ، الست ممرضة ؟

— لا ، انا من فرقة V. A. D. الفرقة التي تقوم بأشق الاعمال ،

ورغم ذلك لا يثق بها احد .

— ولم لا ؟

— انهم لا يفعلون ذلك يوم لا يكونون بحاجة لجهودنا ، ولكن عند تراكم

الاعمال يتبارون في منحنا ثقتهم .

— ماذا تقصدين بذلك ؟

— الممرضة كالتطبيب وبحسب الحاجة المرء الوقت طويل ليصبح في عداد الفرقة .

- ها ، لقد فهمت .
- الايطاليون لا يقرون وجود النساء على مقربة من الجبهة ولذلك فنحن هنا تحت رقابة شديدة ، ولا نستطيع الخروج .
- لا بأس فأنا أستطيع القدوم !
- لسنا كالسجينات على كل حال !
- دعينا من حرب الجبهة .
- اظن ذلك صعبا للغاية .
- لنهرب مهيا كان الثمن .
- حسنا .
- وتطلع كل منا في عيني الآخر ، وتبادلنا النظرات في الظلام ، وفي الظلام تخيلتها جميلة جدا ، فأخذت يدها بين يدي وتركتني أفعل ذلك ، وعندئذ طوقتها بذراعي ، ولكنها صاحت : — لا ..
- الا انني لم أراجع قائلا : ولم لا ؟
- لا .
- بلى أرجوك .
- ولمت نحوها أريد انتزاع قبلة من وجنتيها ولكن وميضاً لاسعا أوقفني .
- لقد صغعت وجهي بقوة ، فلطمت يدها عيني وانفي ، فسالت دموعي من وقع العدمة .
- آسفة ، شعرت ان لي دالة كبيرة عليك .
- انك على صواب .
- انني متأسفة للغاية ، لم أستطع التحرر من واجبات مهنة التمريض ، لم أقصد ايداعك ، ولكني فعلت اليس كذلك ؟
- كانت تنظر الي في الظلمة ، كنت متوتر الأعصاب هائجا ، ولكني واثق من السيطرة على تصرفاتي ، مقدرًا كل ما وقع ، وما سيقع ، تماما كلاعاب الشطرنج الماهر ، ولذلك أجبتها :
- لقد فعلت ما يبليه الصواب ، لست مفتاظا أبدا !
- انك رجل طيب القلب .
- كما ستعرفين فيما بعد ، عشت حياة مريحة جدا ، ولم يتفق لي أبدا أن تحدثت مع انجليزي ، وأنت بالاضافة الى كل هذا جميلة جدا .
- ليس من داع لهذه التبريرات ، كل ما أريد قوله اني متأسفة جدا ، لقد سخططنا في الحديث بعيدا .
- أجل ، لقد ابتعدنا عن الحرب .

وانفجرت ضاحكة ، كانت المرة الاولى التي اسمع فيها ضحكها ،
وتأملت وجهها ..

— انك جذاب خفيف الروح .

— لا ، لست كذلك .

— بلى ، نادرا ما يوجد أمثالك ، سأكون سعيدة اذا ما سمحت بتقبيلك .
فحملت في عينيها ، واحطتها بذراعي نياها كما فعلت في المرة الاولى ،
ثم قبلتها ، ولكنها كانت قبلة هائلة . وحاولت ان التهم شفيتها ، ولكنها كانت
تد احكبت التحامهما ، فلم اترجع ولكن بثورة اعنف ، وهجأة اهتزت بين
يدي ، اهتز جسدها وخفق قلبها حتى سمعت ضرباته . وانفجرت شفتاها ثم
استرخت ملقبة بعنقها على ذراعي ، واخذت تشهق في بكاء حار مكبوت :

— يا عزيزي آه .. ستكون مخلصا لي هل تكون ؟

فقلت في نفسي : يا للجحيم ! وداعبت شعرها بأصابع يدي الاخرى ،

ثم ربت على كتفيها مواصيا ولكنها استمرت تبكي :

— هل تكون كذلك ؟ قل لي ؟ ان تكون ؟

ورفعت بصرها نحوي :

— لان حياتنا معا ستكون فريدة رائعة .

ومرت دقائق اخرى ، نهضنا بعدها وسرت انا بجانبها قاصدين مدخل

المستشفى ، وعندما اختفت في جوفه عدت وحيدا الى غرفتي .

كان ريتالدي مستلقيا في سريريه ، فلم أكد اضع قدمي على عتبة الغرفة

حتى فاجاني :

— وهكذا قطعت شوطا طويلا معها !

— انها مجرد صداقة بريئة .

— انت كالكلب في الايام الحارة .

— لم افهم مقصدك .

فاوضح لي رايه ، ولكني اجبته فوراً :

— اما انت فكالكلب الذي ..

— يكفي ! بعد قليل سيشتتم احدنا الآخر ، وتبهقه قائلا :

— عم مساء ، قلت له :

— عم مساء ايها الكلب الصغير .

القيت بوسادتي الصغيرة على مصباحه ، وانطرحت على السرير نائما ..

ولكنه التقط القنديل واعاده مكانه وتابع القراءة .

بقيت يومين بعيدا عن البلدة في جولة على المراكز الطبية ، وعند عودتي في اليوم الثاني كانت الشمس قد غابت منذ وقت بعيد ، فلم أستطع رؤية الأتسة باركلي حتى المساء التالي .

لم تكن في الحديقة ، فاضطرت لانتظارها في قاعة المستشفى حتى تفرغ من عمليا ، وفي القاعة كانت هناك « تماثيل نصفية » لجسم الانسان مصنوعة من الرخام ، موزعة بشكل يجذب الانتباه وأكثر ما لفت نظري فيها هو تشابهها حتى لتكاد تكون في مجموعها صورة واحدة لتمثال واحد .

ان من النحت في رأيي ما زال عملا تقليديا ، عملا جامدا لا ابداع فيه ، على خلاف فن التعمدين المتطور ، فبإمكان المرء ان يجد في تماثيل البرونز شيئا جديدا معبرا ، بينما تلك الرخامية اقرب ما تكون الى شواهد مقبرة مترفة ، مع ان هناك في الدنيا مقبرة واحدة رائعة ، تلك الكائنة في مدينة بيزا .

ظللت جالسا على الكرسي منتظرا ، وقبعتي في يدي .

كان من المفروض علينا ونحن في كوريزيا ، ارتداء الخوذ الفولاذية . وكان هذا شيئا ثقيلا ، في بلد لم يجره الا قليل من مواطنيه المدنيين . وكنا كذلك مجبرين دائما ، على حمل مسدسات من النوع الانكليزي الصغير ، ولقد حاولت مرارا النجاح في استعمال مسدسي . ولكنني كنت دائما احمض الخيبة وفي نفسي كل احساس الهزء من فكرة صبروني يوما ما ، محاربا ناجحا .

وبينما كنت اتأمل تماثيل الرخام امامي ، كان احد الضباط الانكليز ، بحدجتي بنظرات شذراء من مقعد تجاهي ، ولم أستطع فهم هذه النظرات المستنكرة لضيفتي في ماوى الجرحى .

واخيرا اطل وجه كاترين باركلي ، وهي تهبط السلم الى القاعة ، فوقفت استعدادا لتحياتها . كانت تبدو جذابة فاتنة ، وهي تسير مهولة نحوي . بينما تامتها الطويلة لم تكن لتظهر على حقيقتها :

— عم مساء يا حضرة القائد .

— كيف حالك ؟

— هل نجلس هنا ام تفضل الخروج الى الحديقة ؟

— دعينا نخرج ، فهواء الحديقة منعش جدا .

وسرت خلفها وهي تقطع ممر الحصى نحو الحديقة . كان الضابط

يراقبنا باهتمام ظاهر ، وعندما ضمتنا اول شجرة تحت اغصانها يادرتني
كاترين :

- أين كنت طيلة اليومين الماضيين ؟
- في جولة بين المراكز الامامية .
- ألم يكن بمقدورك اعلامي بذلك ولو بذكره صغيرة ؟
- حسبت اني سأعود سريعا .
- على كل حال كان ينبغي ان تعلمني بذلك يا عزيزي .
- ولكني بدلا من الرد عليها ، اخذت يديها وقبّلتها بشغف ولهفة .
- اليس هناك مكان يمكننا الانزواء فيه ؟
- لا ، مستبقى ضمن الحديقة فقط ، لقد طالبت غيبتك كثيرا .
- ولكني الآن حاضر هنا .
- فنظرت الي ثم قالت :
- ولكنك تحبني . اليس كذلك ؟
- (وكذبت عليها) نعم ، اني احبك (ولم اكن قد نفوحت بهذه العبارة
امامها قبلا) .

- وتدعوني كاترين ؟ كاترين هكذا ؟
- نعم ، كاترين .
وسرنا في احد الممرات ثم وقفنا تحت شجرة متشعبة الاغصان ، فشدت
على يدي هامسة :

- قل قد عدت لكاترين في ظلام الليل .
- قد عدت لكاترين في ظلام الليل .
- آه يا عزيزي ، لقد عدت الي ، ألم تعد ؟
- نعم .
- اني احبك كثيرا ، لقد كانت مؤلمة مريرة ، لن تنيب بعد اليوم .
- لا سوف اعود اليك دائما .
- آه اني احبك كثيرا . . ارجوك للمرة الثانية ، ضع يدك في نفس
المكان .

وأخذتها بين يدي ، كانت في متناولها قريبة ، قريبة جدا . وحولت
وجهها الى وجهي ، كي اتأمل خلجات ثناياها ، ونحن في غمرة النشوة ، وأغمضت
عينيهما ، تقبلت كلنا العينين المقبضتين وخيل الي انها مسكرى ، في غيبوبة
طويلة . كان ذلك كل ما أحلم به واتمناه ، ولم اعد ابالي بما يمكن أن تقودني
اليه عواطفى المجنونة ، فهذا على كل حال افضل الف مرة ، من الذهاب الى
بيت الدعارة ، الخاص بالضباط امثالي ، حيث تغمرك بانواع اللذة يقبلهن

الزائفة .

كنت اعرف اني اكذب على الانسة باركلي واخدعها ، واني لم اكن احبها ابدا . وحتى لم يكن هناك أي أمل في الوقوع بحبها . . كل ما تميت به وما يمكن ان أقوم به ، ليس الا تمثيلية زائفة .

— ليتنا نستطيع الاختلاء في مكان ما .

قلت ذلك وانا واثق ان الرجل في معركة الجنس لا يستطيع الانتظار طويلا . ولكنها اجابتنى :

— ليس هناك المكان الذي تريده ، يمكننا الجلوس لفترة اخرى .

جلسنا على المقعد الحجري ، وما زلت تقابضا على يدها ، ولكنها لم تدعني الف جسدها بذراعي .

— أنت تعب كثيرا .

— لا .

فاتجهت بنظرها الى الارض المعشوشبة ثم قالت :

— لعبة تذرة ، تلك التي تملؤها !

— أي لعبة تقصدين ؟

— انتظاهر بالغباء ؟

— ابدا لست اتصد ذلك .

— أنت شاب جذاب ، انك تقوم بدورك تماما كما يجب . . ولكنها لعبة

تذرة .

— هل تتعاطين قراءة افكار الناس دائما .

— لا ، ليس دائما ، ولكني افعل ذلك معك ! لست بحاجة لادعاء محبتي .

واظنك نلت حظك هذه الليلة . . هل بقي شيء تريد التحدث عنه ؟

— ولكني احبك يا كاترين .

— ارجوك دعنا ان نكون صادقين ، عندما لا نكون مضطرين الى الكذب

يكفييني الليلة هذا الفصل الجميل من تمثيلتك . . اظنك لا ترتاب في اني لست

مجنونة ؟ واني لن اذهب بعيدا . انها هي افتراضها بعض الساعات .

فضغطت على يدها :

— كاترين حبيبتى .

— كاترين ، اني اسمع لها رنيننا مشحكا .

— لم تفه بها كعادتك ، ومع ذلك غانت شاب جذاب . . أنت شاب

طيب ايضا .

— ذلك ما قاله الكاهن عني .

— بلى انك حبيب جدا ، وسوف تحضر وثراني .
— طبعاً .
— ولست بحاجة للقول انك تحبني ، فلقد انتهى دور هذه العبارة .
ثم وقفت ومدت لي يدها ، ودون ان اتمكن من التلطف بشيء عاجلتنني
بالتحية .

أردت ان اقبلها ولكنها رفضت قائلة :
— انني متعبة جدا .
— اذن قبليني انت .
— انني مرهقة جدا جدا يا عزيزي .
— قبليني .
— اتريدها قبلة طويلة ؟
— نعم ، وقبلنا بعضنا بعضاً ، ولكنها انتفضت فجأة وصاحت :
— لا ، عم مساء ، ارجوك يا عزيزي .
ومشينا نحو الباب ، وشاهدتها تدخل وتهبط السلم ، كنت ارجب في
مشاهدتها حتى آخر خطواتها ، حتى تغيب آخر طية من ثوبها ، ولكني لم
استطع ، فاتخذت طريقي شطر البيت .

...

كانت ليلة حارة ، وكانت سفوح الجبال تتلألاً بأضواء النيران فرحبت
اتأمل وميض القنابل المتساقطة فوق قرية ساننت جبريل .
وامام قصر روسا وقفت قليلاً . كانت مصاريع النوافذ مغلقة ، ولكن
ضجيج السامرين يصل الى الطريق . وتعالى صوت غناء ، ولكن استأنفت
سري نحو البيت ، وعندما وصلت الى الغرفة وبدأت في نزع ثيابي دخل
رينالدي ، وما ان شاهدني حتى ابتدرني قائلاً :
— ها . . يظهر ان الامور ليست على ما يرام !
— من اين قادم انت ؟
— من قصر روسا ، كانت سهرة ممتعة جدا ايها الطفل ، لقد غنينا
جميعنا ، ولكن من اين انت قادم ؟
— من زيارة المستشفى البريطاني .
— شكراً لله ، لم أتورط في علاقتي مع الانجليزية .



كنت عائدا في المساء التالي من أول مركز طبي في الجبل ، وعند المخيم ، حيث يحشر الجرحى والمرضى استعدادا لتوزيعهم على المستشفيات ، أوقفت السيارة . كنت طول الطريق أقودها بنفسى ، فلما بلغنا المخيم بعثت السائق بأوراق الجرحى ليسلمها الى المسؤولين . كان النهار حارا جدا ، والسماء زرقاء صافية والطريق قد أبيض أديمها بتراكم الغبار .

بقيت جالسا في مقعد السيارة الأمامى ، واضعا راسى بين يدى ، دون ان تكون هناك أية فكرة ، ولو عابرة تشغل ذهنى ، ومر في اثناء ذلك فصيل من الجنود ، فأخذت أتأمل خطواتهم وهم يتقدمون ؛ كان العرق ينصب من جباههم ، والاعياء ياديا على وجوههم ، بعضهم يرتدى القبعة الفولاذية ، بينما البعض الآخر علقها خلف ظهره . اما القبعات ذاتها فكانت في معظمها كبيرة واسعة ، يسيب في داخلها راس الجندي الى ما دون اذنيه . . ووراء الفصيل سار بعض الجنود الذين ضلوا وجهة سيرهم ، كانوا كذلك مغبري الوجوه ، ملوثي الثياب ، يقطر العرق من جباههم ، ويتجلى الاعياء في وجوههم ، بعد ان قطعوا شوطا بعيدا عن النقطة التى كنا نقف فيها . . مر جندي آخر يحاول اللحاق بهم ، وهو يعرج في مشيته المجهدة ، وعندما صار بمحاذاة السيارة ، توقف عن الحركة ، وانطرح أرضا ، فنزلت من العربة ، واتجهت صوبه :

— ما شأنك ؟

نظر الى ، ثم نهض قائلا :

— سأتابع السير .

— ولكن ماذا حل بك ؟

— انها هذه الحرب الـ . .

— وسأقك ، ماذا بها ؟

— ليست ساقى ، انما هو فئق .

— لماذا لم تنتقل بالسيارة اذا ؟ لماذا لم تذهب الى المستشفى ؟

— لم يسمحوا لى بذلك ، قال الليوثنان انى نزعتم الحزام عمدا .

- دعني اتحسس موضعه .
- انه عميق جدا .
- في اي جانب ؟
- هنا .
- ها ، لقد احسست به ، قلت ذلك وسلمت .
- اخشى ان يستفحل امره ، فهو الآن ضعفه في الصباح .
- انتظر قليلا ، حالما استلم اوراق هؤلاء الجرحى ، سأحملك معي
واسلمك الى ضابط الاسعاف في فرقتكم .
- سيقول اني فعلتها متعمدا .
- لن يستطيعوا اجراء شيء ضدك ، انه ليس جرحا وانت مصاب به
قبلا اليس كذلك ؟
- ولكنني فقدت الحزام ، والليوتنان يعتقد اني القيت به .
- على كل حال سيرسلونك الى المستشفى .
- الا يمكن البقاء معك ايها الليوتنان ؟
- لا ، لست احمل اوراقا باسمك .
- لم اكد اتم عبارتي ، حتى وصل السائق يحمل اوراق الجرحى ، فصاح
من بعيد :
- اربعة لمستشفى رقم ١٠٥ ، اثنان لمستشفى ١٢٢ .
- كان المستشفىان وراء النهر ، فقلت للسائق :
- اصعد وخذ مكانك ، وسر بنا عاجلا ، ثم مدت يدي الى الجندي
المطروح وساعدته على الصعود والجلوس الى جانبي ، وما ان استقر في
جليسته حتى ابتدرني مستوضحا :
- هل تتكلم الانجليزية ؟
- طبعا .
- ما رايك بهذه الحرب الفاتكة ؟
- آه هذا ما اقله دائما !
- هل كنت في الولايات المتحدة ؟
- طبعا في بتسبرغ ، لقد عرفت انك اميركي .
- اليس « ايطاليتي » على ما يرام اذا ؟
- عرفت انك اميركي دما ولحما .
- وعندئذ التفت السائق نحوه ، ودبدم في الايطالية : « اميركي آخر » .
- بينما تابع الجندي بلهجة اخرى :

— ايها الليوتنانت ارجوك ، هل ستأخذني بالفصيل ؟ — نعم ،
— لان الطبيب المسؤول يعرف اني مصاب بالفسق .. والآن بعد أن
نزعتم الحزام الملصق مستكون العاقبة وخيمة . — فهبت .
— الا يمكن الذهاب الى أي مكان آخر ؟
— لو كنا قريبين من الجبهة لاخذتك الى اول مركز طبي ، ولكن هنا في
المؤخرة ، لا استطع ذلك دون اوراق رسمية .
— اذا رجعت الى الفصيل سيعالجون الامر بعملية جراحية ، وعندئذ
سأبقى في الجبهة دائما .
كان يتكلم هلعا ، كان كل مشاعره الانسانية تشارك في تضرعها الي ،
كل جارحة منه كانت تجار طالبة الخلاص وتلعن الحرب . رحبت افكر في
المسألة من جميع وجوهها .. ماذا يمكن ان افعل من اجله ! ماذا لو اصلحنيته
الى .. ولكنه قطع علي تفكيري :
— هل ترضى انت بالبقاء في الجبهة ؟
— لا ..

— يا يسوع ! ليست هذه الحرب قذرة !
— اصغ الي ، القى بنفسك من السيارة ، بحيث يصاب راسك باصابة
ظاهرة ، ثم انظرنى هنا ريثما اعود .
وبالفعل ، اوقفت السيارة وساعدته على الهبوط ارضا ، وبعد ان
استقر في وضعه قال :
— سانتظر هنا ايها الليوتنانت ، اليس كذلك ؟

تابعنا الطريق ، وتجاوزنا الفصيل الزاحف مسافة ميل تقريبا ، ثم عبرنا
النهر فوق جسر القوارب ، الى السهل الممتد على الضفة الاخرى ، وهناك
درجنا مسرعين ، واوصلنا الجرحى الى المستشفيات المعنيين .
وعند العودة ، جلست الى المقود . وقدمت السيارة الفارغة مسرعا ،
لانقذ جريح بشبرغ . فمهررت بعربة اسعاف تجرها الخيل واقفة بجانب
الطريق ، وامامها رجلان يحاولان رفع الجريح المذكور ووضعه داخلها . كانوا
قد رجعوا من اجله ، وعندما رأني هز راسه مستغيثا . كانت خوذته الفولاذية
مقاة بعدا ، وجبينه المعترق تنزف دما يندي خصلات شعره المتدللة فوق
عينيه ، وعلى انفه وجدت آثار الرضة طلية واضحة بينها امتزج التراب بلباسه
الدمى وشعره الاشعث .

راح يتطلع الي ، مطرقا راسه بين القبنة والاخرى ، محدقا في عيني ،
لكن بخشية وابتهاال ، ولما لم تبدر مني ايةبادرة تنم عما انوي ان افعله من

أجله ، رفع صوته بتؤدة .
— أيها الليوثنان ، انظر كم يبلغ جرهي هذا . . انهم لم يفعلوا شيئا من
أجلي أيها الليوثنان ، فقط رجعوا لياخذوني .

وعندما بلقت البيت عائدا من الجبهة ، كانت الساعة الخامسة مساء ،
تجلست أعد التقرير أمام النافذة قبل أن أنزع ثيابي .

كان قد مضى وقت طويل منذ أرسلت آخر رسالة الى عائلتي في أمريكا ،
وكنت أعلم ضرورة كتابة بضعة سطور . ولكني تركت الأيام تضي لانني لم
أجد ما يستحق الكتابة ، فاكتفيت بإرسال بطاقتين من بطاقات الجيش
البريدية ، شارحا ما يتعلق بصحتي .

انهم في أمريكا كانوا يطربون كثيرا ولا شك ، عند استلام تلك البطاقات
المزخرفة ، انها لا تحمل اليهم سوى جمال الأرض التي أرسلت منها ، وهي
بالنسبة لهم امر غريب غامض تماما ، كهذا الجزء من الجبهة ، فكل ما فيه
غريب غامض ، ومع ذلك فالحرب هنا أقل فظاعة اذا ما قيست بحروب الالمان
في المناطق الأخرى . ان الجيش الالمانى الذي يتبادل واياه ارواحنا ، كان قد
أنشئ ليكون جيشا مريعا مريعا ، جيشا يقدم الانتصارات تامة باهرة لرجل
كنايليون . وهم تمنيت لو كان على راسنا رجل كنايليون . ولكننا بدلا من ذلك
كان يقودنا الجنرال كادرونا ، الرجل السمين المترف ، وفكتور عمانوئيل الملك
الاتيقي ذو العنق الطويلة والحية المدللة .

وفي الجبهة المغالبة كانوا قد وضعوا في القيادة العامة دوق أوستار ،
السيد الذي أكثر ما يليق به ان يكون ملكا ، ذا تاج كبير .

كنت ما ازال جالسا أمام النافذة أتينا لكتابة تقريرى ، ولكن توارد الأفكار
أبعثني عن غاييتي . وخطر لي وأنا أتأمل الأيام الطويلة الماضية التي تضيبتنا
في الجبهة ، ان لو التحقت بالجيش البريطاني ، لكان ذلك أفضل بكثير ليس
لان فيه ضمانا من الموت ، فاحتمال انقضاء اجلي امر طبيعي ، ان لم يكن داخل
سبارة الاسعاف ، ففي أي مكان آخر في الجبهة . والحق اني لم أكن راغبا في
وداع الحياة ، في هذه الحرب على الاقل . وليس لي فيها ناقة ولا جبل ورغم
عدم شعوري بخطرها الا كما يشعر المرء بخطور الحرب ، فقد دعوت الله
مرارا ان يضع حدا لفظائنها . على كل حال هناك أمل في انتهائها عشية
الصيف القادم . لربما انهار الالمان ، كعادتهم في كثير من الحروب ، فعندها
يتفتح كل ما في صدري . يتفتح ليرى النور ، ليطل على الحياة .

ان مجموعة كبيرة من الالمان قد اختزننها في نفسي ، الى ما بعد
الحرب . . كنت أريد الذهاب الى ألمانيا ، ولكن في السلم طبعاً .

أريد أن أزور الغابة السوداء في النمسا .
وان أتهدى في شوارع غيينا .

وان أتسلق جبال الهارتيس . . أين هي جبال الهارتيس الآن ؟
إنها تتبادل الغنابل مع جبال الكريبات ! لا ! لا أريد الذهاب الى هناك
أبدا ، رغم أنها سفوح رائعة . . وكذلك كنت اعتزم زيارة اسبانيا . . آه لو
لم تكن هذه الحرب ، لكننا جنينا كثيرا من المنع .

كانت الشمس تميل نحو الغروب والطقس يبتدر شيئا فشيئا ، واعتزمت
أن اتناول عشاءتي وأذهب فوراً الى الأنسة باركلي . أيتها هنا الآن . بل ليتنا
معا في ميلان . لكنني اصطحبتها الى حانة كوفنا ، ثم سرت برفقتها في شارع
مانزوني الكبير ، في الامسيات الدافئة ، وبعدها ثانياً الى الحانة ، ومن ثم الى
باركلي . . وربما قبلت ذلك . . ولربما ادعت اني فناها ، قتيل السوم . . آه لو
تقبل الأنسة باركلي . وعندها ندخل الفندق معا من الباب الامامي ، ويرحب
بنا الحاجب رافعا تبسته . واقف انا امام مكتب الاستعلامات ، اطلب غرفة
واحدة ، وتنتظر هي قرب المصعد ، وبعدها ننف كلانا في داخله ويرتفع بنا ،
ويجتاز طابقا ، طابقين ، ثلاثة ، اربعة واخيرا طابقنا ، ويفتح الصبي الباب ،
ويقف منتظرا ، وتخطو كاترين واخطو خلفها ، ونسير في الرواق ، واضع
المفتاح في باب الغرفة ، ويرتجف قلبي ، ويفتح الباب ، وندخل وامسك
بسماعة التلفون ، واطلب ارسال ثارورة وسكي ، ثم نسمع وقع اقدام الخادم ،
ويقرع الباب ، فآمره بوضعها خارجا لاننا غاريان لم نستطع ارتداء شيء من
شدة الحرارة ، وتفتح التوافذ . ونشاهد السنونو يرغرف فوق السطوح ،
وتشرب الوبسكي والباب مقبل والجو حار ، وليس الا عطاء واحد على
السرير ، والليلة بطولها ونحن نعائق بعضنا بعضا ، في ليلة دافئة ، في غرفة
واحدة ، في ميلان ، هكذا ينبغي أن يكون ، سأتناول عشاءتي مسرعا واذهب
الى عند كاترين باركلي .

في القاعة بعد العشاء ، ثار جدل عنيف حول التهمة الموجهة الى رئيس
اساتفة ارلندا ، وتفرغ الحديث وتشعب الى ان انتهى بمهارة حماسية حول
من يستطيع احتساء أكبر كمية من الخمر ، وحاول اللغتنانت أن يجعلني طرفا
في المباراة ، ولكنني تفرعت بموعد سابق .

— أنه مرتبط حقا ، واثق من ذلك ، أنا اعرف كل شيء .
وعندما استاذنت وخرجت ، تبمنى ، فوقفنا قليلا قرب المدخل .
— من الأنضل أن لا تزورها وانت مخمور .

- لست مخمورا .
- على كل حال ، لا بأس بمضغ قليل من حبوب القهوة .
- دعك من هذه الترهات .
- عندي بعضها .
- وبعد قليل ، عاد وقد ملأ قبضته منها .
- امضفها وسر برعاية الله .
- لا ! برعاية يسوع !
- سأرافتك في بعض الطريق .
- كن مطمئنا ، فأنا على ما يرام . ولكنه تظاهر بالقباء ورافقتي ، وعند
المفترق المؤدي الى المستشفى البريطاني ودعني مبتسما فقلت له : لماذا لا
ترافقتني حتى النهاية !
- لا ! افضل المغامرات من نوع اخف .
- اشكرك من اجل القهوة الطازجة ، وهرولت نحو المستشفى ، وعندما
بلغت منتصف الطريق ، التفت خلفي فرأيت رينالدي ما زال واقفا يراقبني ،
بينما في اول الطريق أمامي . . كان هيكل انسان يتجه نحوي ، انه يقصدني . .
من تراء يكون ؟ لا ، ليست كاترين باركلي . . انها الانسة نيركوسن ، فابتدتها
محبييا — مرحبا .
- كلفنتي كاترين ان اخبرك بانها لا تستطيع مقابلتك هذا المساء .
- ماذا ؟ آسف جدا . . أرجو أن لا يكون قد أصابها سوء ؟
- ليست على ما يرام .
- أكون شاكرا اذا تفضلت بإبلاغها كم أنا متالم لذلك .
- حسنا كما تريد .
- شكرا . لكن ، هل تعتقدن أنه من الممكن رؤيتها غدا ؟
- ربما ، شكرا كثيرا .
- وخرجت من البوابة . . في الحال تملكني شعور غريب ، شعور بالوحدة
والفراغ . . لم يكن بي حافز قوي لرؤيتها . . ولم أكن أشعر بالقلق الزائد
للقدوم ، ولكني الآن عندما لم أرها . . أشعر كأن شيئا عزيزا افتقدته ،
خسرتة ، وسيبقي وقت طويل . . حتى أراها ثانية .



قضى الامر ، وامرت بالانطلاق مع اربع سيارات اسعاف كبيرة السى اعالي النهر : فالهجوم سيبدأ الليلة . ورغم ان احدا لم يكن يلم بالتفاصيل ، الا ان معظم الحاضرين في قاعة الطعام ذلك المساء ، كانوا يتحدثون وكانهم خبرون في الحرب وفي استراتيجية القتال ، وجغرافية المنطقة .

ركبت في السيارة الاولى . وعندنا حاذينا المستشفى البريطاني ، امرت السائق بالوقوف ، فتوقفت السيارات الثلاث خلفه ، ولكني اشرت على سواقيا بمتابعة السير ، وبالانتظار ، اذ لم تلحق بهم ، عند مفترق كورميس ، ثم عبرت حديقة المستشفى بسرعة ، واتجهت فور وصولي الى مكتب المديرة :

— اين الانسة باركلي ؟

— في عملها .

— هل استطيع رؤيتها مدة دقيقتين فقط ؟

فارسلت حاجبا يدعوها ، وبعد لحظات رجع برفقتها . وعندما أصبحت على مدى السمع مني يادرتها بصوت مسموع :

— اوقفت السيارة وجئت لارى فيها اذا كنت احسن حالا من الامس ؟

— شعرت بتحسن هذا الصباح ، واظن ان شدة الحرارة كانت سبب وعكة الامس .

— حسنا ، اني مضطر للانصراف !

— انا كذلك ، استأذنت لدقيقتين فقط .

وتراجعت بضع خطوات ، ولكني وجدت نفسي اقول لها مكررا .

— اذن تشعرين بتحسن هذا اليوم !

— نعم يا عزيزي . . هل انت آت هذا المساء ؟

— لا ، اننى ذاهب للاشتراك في العرض ، في يلافا .

— عرض ؟

— لا اعتقد انه غير ذلك .

— وستعود الليلة ؟

— غدا . .

فحركت يدها حول عنقها ، كأنها تريد فك شىء معقود ، ثم وضعته في

يدي .

- انها صورة القديس أنطونييو .. تعال غدا مساء .
- انت لست كاثوليكية ..! اليس كذلك ؟
- لا .. ولكنهم يقولون ان صورته نافعة جدا .
- اذن سأحرص عليه من أجلك .. وداعا .
- لا .. ليس وداعا !
- كما تريدن .
- كن حذرا .. احرص على نفسك ..! لا تستطيع تقبيلي هنا ..
- لا تستطيع .

— كما تريدن .. والآن .. وداعا .
لم أكد اقترب من مدخل القاعة حتى التفت خلفي ، لمرايتها ما زالت تنظر الي من أسفل السلم ، وعندما لمحت وجهي لوحث بيدها ، فقبلت يدي ولوحثها باسمها ، أما هي فتابعت حركتها حتى أصبحت خارج القاعة .
صعدت الى السيارة وطلبت من السائق الاندلاع مسورا ، كي نلحق بالقافلة المتقدمة .

كان القديس أنطونييو محفوظا في غلاف معدني صغير ، ففتحت الغلاف وانتزعت القديس بيدي ، أريد ان أتأمله .. ولكن السائق انتبه الى حركتي فسالني : القديس أنطونييو ؟!

— نعم ..
— اني أحمل مثله ايضا . ورفع يده اليمنى عن مقود السيارة ، وعك أحد أزرار قميصه الداخلي ، وسحب صورة القديس أنطونيوس من الجيب الصغير — انظر !

أعدت صورة القديس الى غلافه الصغير بعد ان حللت منه سلسلته الذهبية ووضعتها في جيبى ..
— لن تعلقه ؟!

— لا ..
— الأفضل ان تدليه من عنقك .. حتى تمال بركته .
— حسنا .

وبالفعل ربطته بسلسلته البراقة ، وعلقته حول عنقي ، فتدلى القديس فوق بطني الرسبية ، فحللت زر قميصي وخيانه داخلا وبينما السيارة تهتز كتبت أحس به يرتطم على صدري ، وأخرا نسيت كل شيء بصدده ولم أتذكره إلا عندما أصابني القنبلة ، إذ فتشت عنه فلم أجده له أثرا .. لعل أحدهم نال

قصب السبق في انزاعه مني . . وما كنت ارجو الا ان اهنته - اهنيء القديس
طبعاً - بخلاصه من البقاء معي طيلة ايام مرضي . . لقد نجح اخيراً في التخلص
من مفعول بركتسي .

لما وصلنا الجسر ، بدت لنا هياكل السيارات المتقدمة ، تنهب الارض
نهبا ، وتبلا الفضاء امامنا بما تثيره من غبار ولكننا لحقنا بها وتجاوزناها الى
منعطف ، تصعد الطريق بعده بين التلال . وكلما اوغلنا في الصعود ، بدت لنا
سفوح الجبال الشمالية البعيدة ، وقد كلت الثلوج قممها . وبعد ان بلغنا
نهاية الطريق ، كان علينا ان ننحدر ثانية ، فوق سفوح التلة المقابلة لنصل الى
ذلك الجزء من ضفة النهر ، حيث معسكر وحدتنا المهيئة للهجوم .

كانت الطريق المذكورة ، وهي تنحدر بشكل مخيف ، اقرب الى ان تكون
عمودية ، تزدهم فوقها حركة النقل الى حد كبير : شاحنات الجنود ، وعربات
الذخيرة ، وجرارات المدفعية الضخمة ، وسيارات قافلة ، واخرى تعطلت بها
محركاتها . . ومع ذلك فقد استطعنا بلوغ الضفة والشمس لما تقرب بعد .
الا ان طلائع الظلام كانت تطل منذرة بالسكينة الشاملة .



على محاذاة النهر في هذا الجزء ، حيث المجرى يتخفص كثيرا عما هو في بقية الاجزاء ، كان الجنود منتشرين في خنادق حديقة الحفر ، وكانت الشمس مولية وراء الجبال الشاهقة ، وعلى وهج الشفق الازرقاني ، استقطعت تمييز مناوئيد الاستكشاف الالمانية ، كأنها تقاطع سود وسط بقعة السماء المحمرة .

اوقفنا السيارات في المكان المعد لها ونزلنا نتفحص مراكزنا ، لقد جعلوا من حفر الافران وبعض الخنادق العميقة مراكز للاسعافات الولى . وهناك التقيت بثلاثة اطباء من اركان الفرقة ، افهمني رئيسهم انه فور بدء العمليات وحال امتلاء سياراتنا بالجرحى ، علينا ان نحملهم عبر الطريق ذاتها الى مراكز طبية اخرى ، حيث ينقلون بعدها الى المستشفيات في المؤخرة ، وبعد ان رجا لنا الطبيب الرئيس توفيقا في مهمتنا ، قال ان القضية تحتاج الى كثير من التيقظ والوعى ، خصوصا ان الطريق تقع ضمن مرمى مدافع الالمان .

كان الرئيس رجلا صغير الحجم ، ذا شاربين كثيفين مفتولين ، وعينين يشع منهما المكر وحدة الذكاء ، اتفق له ان اشترك في الحرب الليبية ، وجرح أثناءها مرتين ، وقد وعدني اذا ما سارت الامور على وجهها الافضل ، ان يرشحني لتقلد وسام رفيع ، فشكرته على عاطفته النبيلة تجاهي قائلا ان كل ما اتناه هو النجاح الكامل فيما نحن قادمون عليه ، ثم سألته عن الماوى المخصص للجوء سائقي عربات الاسعاف ، فأرسلني من دلني عليه ، وقد وجدته ماوى صالحا ، بالنسبة لطبيعة المنطقة التي نحن فيها ، كما ان السواقين سروا في البقاء داخله . فتركهم يتابعون ثمرتهم وعدت الى مقر الرئيس استوضحه عما يجب فعله ، ولكنه دعاني الى تناول كأس من الشراب برفقة الطبيبين الاخرين . وبينما نحتمي خمر الخطوط الامامية ، علمت ان المدافع ستفتح فوهتها فور اشتداد الظلام . واطلعتني الرئيس على تفاصيل مهمتي ، وعندها استاذنته بالعودة الى رجالي الاربعة لاطلع كلا منهم على ما يترتب عليه .

وعندما دخلت الملجأ ، انجعت عيون السواقين جميعهم الي ، يريدون معرفة ما احمل لهم من انباء فارتابت بتفاصيل المهمة العسيرة الخطره

اليونانية الفاخرة ، ومن ثم اخبرتهم بتفاصيل المهمة المسيرة الخطرة الموكولة اليها .

— ولكن لماذا لم نطلع على المركز الذي سنحمل الجرحى اليه ؟
— انه تماما خلف المنعطف الاخير ، عند اسفل القلة .
— يا لفظاعة ! الطريق ستكون مزدحمة للغاية .
— ونيران الجحيم ستشتمل الان مورا ؟
— ربما .. من الممكن ..
— ولكن ماذا عن الطعام ايها الليونتان ؟! الا يحق لنا تناول شيء بعد هذه المسيرة الشاقة ؟!

— سأذهب لارى حالا .
— هل نذهب معك ؟!
— الافضل ان تبقىوا هنا .
تصدت خندق الرئيس اسأله عن قضية الطعام ، فأخبرني ان مطبخ الميدان المتحرك سيصل قريبا ، وانه بإمكان السواقين تناول وجبتهم عندئذ . وان هم لم يستطيعوا صبورا ، فهو على استعداد لان يؤمن لهم ما بإمكانه من الطعام .

وعندما نقلت للرجال كلام الرئيس قال مانيرا :
— لا بأس ، على ان يصل المطبخ قبل اندلاع النار .
اما الثلاثة الاخرون فلم يبنسوا ببنت شفة والظاهر ان الجواب لم يرق لهم ، فرأيت من الصواب ان اجاريهم فجلست بينهم واتكأت بظهوري على الحائط خلفي .

— من اعدوا للهجوم . سال كاموزي .
— فرقة بيرسكليري .
— كلهم من بيرسكليري .
— اعتقد ذلك .
— ولكن يظهر ان عدد الجنود غير كاف للقيام بهجوم حقيقي !
— قد يكون ذلك لتغطية مكان انطلاق الهجوم الحقيقي .
— هل يعرف الجنود انهم سيكونون البادئين بالقتال .
— طبعا لا ، والا لرفضوا تنفيذ الاوامر بالهجوم . قال ذلك مانيرا ،
بينما اجابه باسيني :

— لا سينفذون الاوامر .. هؤلاء ، البر سكليري جهلة اغبياء ،
وعندها رأيت ان اتدخل ، فقلت بصوت الواثق :

- انهم شجعان ومنظمون جيدا .
- وهم ايضا ، على ما ينبغي من ضخامة الجثة .. وصغر ال ..
- وطول القامة .
- فانفجر الجميع ضاحكين .
- ليتك شاهدتهم ايها الليوتنان ، عندما رفضوا الهجوم وبدأوا يطلقون النار على كل عاشر رجل .
- ها ، احقا ما تقول ؟
- تلك حادثة معروفة .. صفوا الرجال وانتكسوا كل عاشر رجل ، واطلقوا عليه النار ..
- لو ان كل واحد يرفض البدء بالقتال لانتهت الحرب .
- ولكن الامر ليس كذلك مع الكرائيري ، فمعظمهم ابناء أسر غنية .
- بعض ضباطهم نزلوا الى المعركة دون جنودهم .
- ولكن بعض الفرق حاربت في الايام الاولى .
- لقد رايت بام عيني ضابطين منهم ، يقتلها الليوتنان عندما رفضا الانصياع للأوامر .
- احدهما كان من بلدتي ، قال باسيني .. كان شابا ايضا ذا قامة طويلة ، يقضي معظم اوقاته بصحبة الفتيات في روما .. دائما مع الفتيات .. والان ، لقد وضعوا حرسا دائما امام بيته ، وجردوا والده من الحقوق المدنية ، حتى من حق الانتخاب .. وعائلته الان لا قانون يحميها ، اي انسان يستطيع الاعتداء عليها .. واغتصاب ممتلكاتها .
- لو لم يفعلوا ذلك مع عائلته ، لما ذهب جندي الى الحرب .
- بلى ! ان جنود فرقة الـ V . D . يذهبون !
- يجب ان لا تدعنا نتحدث هكذا ايها الليوتنان . قال باسيني ذلك : مبسما .
- انا اعرف كيف نتحدثون ، ولكن طالما انكم تقودون السيارات وتسلكون ..
- مقاطعتي سانيرا مردفا :
- .. ولا تدعون الضباط الاخرين يسمعون حديثكم .
- وعندها رايت من الواجب التحدث بصراحة فقلت موجها الحديث لهم جميعا :
- انتي او من بضرورة انتهاء الحرب ، ولكني اعتقد انها لن تنتهي بمجرد توقف احد الجانبين عن البدء بالقتال .. بل على العكس انها ستزداد سوءا

إذا ما توقفنا نحن عن المبادرة .
 — لا يمكن ان تصبح اسوا مما هي عليه الان . . وليس هناك اسوا من
 الحرب على كل حال . .
 اجابني باسيني ، ولكن بلهجة مهذبة . فقلت له :
 — الهزيمة اسوا .
 — لا اظن ذلك . . ماذا تعنى الهزيمة ؟
 — . . ان نعود الى بيوتنا .
 — ولكن العدويتهبعك الى هذه البيوت يسلبك ويعتدي على عرضك .
 — لا ، لا يستطيع فعل ذلك مع كل انسان ، ليدافع كل منا عن بيته ،
 وليمنع اخوانه من الخروج مطلقا . .
 — حسنا ، ولكن الحكومة تعدمك او تجبرك على التجنيد ثانية ، لاغني
 قيادة سيارات الاسعاف فحسب . بل في صفوف المشاة ايضا .
 — لن يستطيعوا اعدام كل الناس .
 وايدة مانيرا قائلا :
 — الامة المتمرده ، لا يصلح منها مجند واحد ، منذ المعركة الاولى وبغير
 الجبيع .

— يظهر انك لم تذق طعم الهزيمة ، ولذلك تظنها امرا بسيطا .
 — ايها الليوتنان ، قال باسيني ، ونحن نقدر لك كثيرا السماح لنا
 بالخوض في هذا الحديث ، ولكن ارجوك الاصغاء قليلا : ليس هناك اسوا من
 الحرب ، ونحن داخل سيارات الاسعاف ، لا نستطيع ، ولو جزئيا ، لمس
 مساوتها ، ولكن الذي يحدث ، ان الناس عندما يواجهون غظائعا ، يكونون
 قد فقدوا القدرة على ايقانها ، كان نوعا من الخبل يغشى عقولهم ، ويشل
 تفكيرهم ، وبعضهم لا يتاح له المجال للوثوق من بلاياها . بينما البعض الاخر ،
 يقومون عليها بدافع الخوف من ضباطهم ، وبأمثال هؤلاء تستمر الحرب .
 — اعرف انها فظيعة سيئة ، ولكن يجب ان تستمر حتى النهاية .
 — لن تنتهي . . لا يوجد نهاية للحرب !

— بلى ! يوجد .

فهم باسيني راسه ثم اردف :

— الحرب لا تكسب بالنصر . . ماذا لو استولينا على مدينة سان
 جبريل . . وكذلك على كارسو ثم مونثالكون وبعدها تريستا فوقو . . الام
 سنصل بعدئذ ؟ . هل ترى كل تلك الجبال البعيدة المتتالية ؟ هل تظن انه
 بإمكاننا الاستيلاء عليها جميعا ! . ابدا . . لن يتم ذلك . . الا في حالة استسلام

الامان .. لا بد ان يستسلم احد الفريقين .. لماذا لا نستسلم نحن ؟!
واذا ارادوا الانحدار والمحاق بنا في إيطاليا ، سيريدون خائبيين ...
سيعودون الى بلادهم ، الى مدنهم وقراهم .. الى منازلهم ، الى اهليهم
واولادهم .. ولكن بدلا من هذا .. الحرب يجب ان تستمر !
— انك محدث بارع .

— نحن نقرا .. تفكر .. نحن لسنا فلاحين اميين .. ومع ذلك
شالفلاحون انفسهم عندهم من المعرفة ما يجعلهم يمقتون الحرب ويبغضونها
.. كل انسان يبغض الحرب .
فتابع ماتيرا :

— هناك فئة من الناس التي تسيطر على البلاد ، الفئة الحماقة التي لا
تفكر ابدا ولا تستطيع ادراك النتائج .. انها سبب هذه الحرب .
— لا ! انها لا تجني الازياح من الحرب . اجابه باسيني ..
— معظمهم لا يجنون شيئا ، فقط لانهم اغبياء يشعلون الحروب دون
سبب .. الا لحماقتهم .. على كل حال ، كفى لقد تحدثنا طويلا امام حضرة
الليونتان .

— ولكنه راغب في ذلك ، لعله اطمان لسماع هذه الحقائق .
— يا حضرة الليونتان ! اما حان لنا ان ناكل ؟! . صاح كافوري
— سأذهب لارى ماذا تم بهذا الشأن .
وعندما خرجت تبغني كورديني قائلا :
— هل هناك اي شيء أستطيع مساعدتك به ؟
كان اهداهم واقلمهم ثرثرة فاجبته :
— تعال معي لترى ما أستطيع عمله .

وفي الخارج ، كان الظلام دامسا ، واشعة الاضواء الكاشفة تتماوج فوق
قمم الجبل ، وعلى سفوحها . عبرنا الساحة وبلغنا مركز الاسعاف الرئيسي ،
وقد حجب مدخله بكومة من اغصان الشجر الخضراء ، بينما ينير داخله ضوء
خافت . كان الطبيب الرئيس يمسك بسماعة التلفون مصغيا ، وعندما لحني
نهض قائلا :

— لقد انطلقوا الان ، سنضع الامور في نصابها هذه المرة .
فجاء ، وبعد ثوان من السكون الشامل شق حداة الليل هدير القنابل ،
واهتز كل شيء حولنا .

— سافوي ؟! صاح القائد ولكنني لم امهله طويلا فبادرته :
— ماذا عن الحساء ؟ والظاهر انه لم يسمعي فكررت السؤال فاجاب :

— لم يصل المطبخ بعد .
 وسمع زئير قذيفة تقترب ، ثم دوى انفجارها قريبا جدا ، وتبعه دوى
 اخر ، ومع ذلك اردفت :
 — ماذا عندكم للاكل ؟
 — قليل من المعكرونة .
 — اعطني كل ما تستطيع .
 فأثار الى احد الخدم ، الذي عاد بعد لحظات يحمل طبقا من المعكرونة
 الباردة ، ناولته لكورديني .
 — هل عندكم قليل من الجبن ؟
 فأثار القائد ثانية ولكن يفضب ظاهر الى الخادم ، فذهب واحضر بيده
 قطعة صغيرة من الجبن الابيض .
 — شكرا جزيلا ايها الرئيس .
 — من الافضل ان تترثا .
 ثم تطلع نحو المدخل وصاح :
 — ادخله ! ماذا تنتظران ؟ . هل تريداننا ان نخرج ونحمله الى هنا ؟ .
 وفي الحال تقدم رجلان على كتفيهما جريح يسيل دما ، ووضعاه على
 الطاولة الخشبية في الوسط .
 — انزعا ثيابه . امر الرئيس . ثم غادرا المكان الى مركزهما حالا .
 وعندئذ قلت لكورديني :
 — هلم بنا .
 — من الافضل ان تترثا قليلا .
 — ولكنهم يلحون في طلب الطعام ايها الرئيس .
 — افعل ما تريد .
 أمسكت بيد كديورني وركضنا معا ، وعند منتصف الساحة دوت من
 فوق راسنا قذيفة ما لبثت ان انفجرت بعيدا . . . وتبعوها اخرى انفجرت
 بالقرب منا ، عند طرف الساحة المقابل ، فهددنا كلانا على الارض ، ووسط
 الوميض والدوي سمعنا ازيز الشطايا وقرقعة القرميد المتساقط ، ثم نهض
 كورديني واتجه وثيا نحو الملجأ ، فقبضته راكضا وقطعة الجبن في يدي . قد
 بدل غبار القرميد المتطاير لونها . وعندما دخلنا الملجأ ، كان السواقون
 الثلاثة يدخلون ينتظارنا . .
 — مرحبا بالمنطوعين الجريئين !
 — هل حل شيء بالسيارات ؟؟

— أرجو ان لا تكون قد ذعرت ايها الليوتنان !
 — كم انت خبيث يا باسيني .
 اخرجت سكني وازلت طبقة الفبار الاحمر من الجبنة ، بينما ناولني
 كورديني طبق المعكرونة الباردة .
 — هلموا .
 — لا ! انتظروا ، سنبدأ سوية .
 — بلا ملاحق !
 — ماذا !
 — لياخذك الشيطان .
 قسبت الجبن قطعاً صغيرة ووزعتها فوق طبق المعكرونة وصحت بهم :
 — اجلسوا حولي . .
 ثم غطست بيدي في الطبق ، ناشلاً مقداراً من خيوط المعكرونة بين
 اصابعي ، ولكن معظمها انفلت من قبضتي فصاح مانيرا :
 — ارفعها عاليا ، عاليا ايها الليوتنان .
 رفعتها على مدى امتداد ذراعي ثم اذيتها من فمي ملتصقا اطرافها . ومن
 ثم امعنت في ادخال بقاياها في فمي وقبل ان ابدأ بمضغها الحققتها بقطعة من
 الجبن وبعدها بجرعة خمر .
 وعندها شاهد الرجال الطريقة ، انهمكوا في الاكل ، ذقونهم فوق الطبق ،
 ورؤوسهم تستلقى الى الوراء بين الفينة والاخرى ليحكوا اللهاج خيوط
 المعكرونة ، وبينما نحن كذلك بدأ القصف يهز الارض حولنا هزاً عنيفاً .
 — انها من عيار ٤٢٠ صاح كوفري .
 — لا يوجد مدافع من هذا للعيار في الجبال . اجبته .
 — الالمان يملكون مدافع سكودا الكبيرة ، رايت حفر قنابلها بعيني .
 — انها من عيار ٣٠٥ .
 وعاودتا انهما كنا في الطبق ، ولكن موجة هواء لانه هبت علينا تلاهما
 زعيق كهدير القطار ثم انفجار هز الارض مرة اخرى . وصاح باسيني :
 — ليس هذا بالملجا الامين !
 — تذيقة هاون ضخمة ! — نعم .
 والتهمت قطع الجبن الباقية ، وهميت بحمل قارورة الخبزة ، ولكن
 موجة أشد من الهواء اللامح جعلني اغمض عيني . . ولم اكد اسقط القارورة
 من يدي حتى علا الهدير : تشاه ، تشاه ، تشاه ، تشاه . . وابرق وميض
 خاطف ، تبعه في الحال انفجار مخيف . . بدا لي في اوله ابيض ولكنه ما لبث
 ان تحول الى الحمرة القانية واستمر كذلك في دوامة هائلة ، وانا في وسطه

لا أقوى على الحراك .. حاولت ان انتفسى فلم اقلح وشعرت اننى فقدت
امكان التخصس باجزاء جسدى ، وان بعض جوارحي خرجت عن نطاق
حواسي .. يظهر لى انزع سكرات الموت .. لا ! من الخطأ ان افكر بانسى
أموت .. ها ! اننى ابصر ما حولي ؟ الأرض مهزقة . وهذا لوح خشبي ، امام
راسي .. وبينما الدوامة تمضي . سمعت انسين بكاء . ان احدهم ينادي :
حاولت ان اتحرك فلم استطع .. من ذلك الذي يبكي ؟

.. المدافع ، الخنادق ، ازيز الرصاص ، دوي القنابل .. واضواء
الصواريخ تشق ظلمة السماء .. والوميض اللامع يخطف الابصار . كل ذلك
شعرت به في لحظة واحدة .. ثم سمعت بالقرب منى صوتا ينادي :

« اماه ، آه يا امي » فجمعت قواي ، وشدت على نفسي وحاولت ان
التفت لارى مصدر الصوت .. واخيرا عرفته .. انه ياسيني ، وعندما لمست
بيدي ارتفع عويله ، كانت ساقاه مهشمتين قد انقذتنا بعيدا .. واستطعت
بين النور والظلمة ، وان اتأكد انهما مبتورتان من تحت الركبة ، وقد انكشيت
احداها وتكومت فوق بعضها . بينما الأخرى ما زالت عالقة الى جسده
بخيوط دائية من الجلد وبرقعة طويلة من سرواله . كان يعض ذراعه ويصيح :
اه امي ، اه امي ، امي اه ، امي اميتيني . اه يا ماريما الطيبة اقتليني اوقتي
هذا الالم .. يا الله اوقفه اه اه اه اه .. اوقفوه ..

ثم يغيب .. وما يلبث ان يعاود مولولا :

آه يا امي امي امي .. ويصمت عاضا ذراعيه .

— ايها الحمالون ! صرخت ضاغطا على يدي ، محاولا ان اقترب منه
لاضع فوق ساقه رباطا يوقف النزيف .. ولكني لم استطع حراكا .. على
اننى افلحت في الزحف الى الخلف متكئا على احد مرفقي الى ان اصبحت محاذيا
له .. فالفقته هادئا لا يحرك ساكنا . شددت بطرف قميصي محاولا نزع قطعة
منه ، ولما لم استطع ، مزقت نهاية القماش باسناني ودفعست راسي عاليا ،
وانا ممسك بها كيما تشق طوليا ، ولكنى فجأة تذكرت جوربي .. ان احداها
مطللة .. ولكنها تكفى .. فباسيني بملك الان ساقا واحدة .

وبينما انا ادفع صدري ناهضا ، ادركت ان لا حاجة لي بها .. لقد انتهى
كل شيء .. كان ياسيني قد لفظ انفاسه .. لقد مات ياسيني ، مات وبقي
ثلاثة من رفاقه .

وعاودت الكرة محاولا ان اعتدل في جلستي وبينما انا افعل ذلك ،
احسست ان ثقلا هائلا يتحرك داخل راسي ، ويطرقتني في جفون عيني ،
وشعرت بساقي تسخنان وتبردان وخذائني يطفح بسائل لزج دافئ : اذا

لقد أصبت ، مددت يدي الى أسفل نحو ساقبي ، فلم أجد الركبة ، فانكشمت ونزلت بها الى أسفل فاحسست بالركبة عند قصبه رجلي ، أرجعت يدي وقد ملئت بالسائل الدافئ ، فحققتها بقميصي ، ورحت أدفع برأسي عاليا من جديد أريد أن أشاهد ساقبي ، وساورني خوف شديد .

— يا الهي ، انقذني من هنا ، أين الثلاثة الآخرون ، اني واثق انه لا بد ان يكون هناك ثلاثة آخرون ! . لقد كانوا اربعة ، رجالي ! مات باسيني . فأين الثلاثة الباقون ، وأخيرا احسست بيد تحملني من فوق ابطني . . بينما أخرى أمسكت بأعلى ساقبي .

— يوجد ثلاثة فقط ، الرابع قد مات .

— نعم ، اطمئن يا عزيزنا الليوتنان . . انا مانيرا .

.. لقد ذهبنا لنبحث عن حمالة ، فلم نجد . . كيف كانت يا عزيزنا

الليوتنان !؟

— أين كورديني وكافوري !؟

— كورديني في مركز الاسعاف يضمه جراحه ، وكافوري ممسك

بساقك . . تمسك جيدا بعنقي . . هل أصابك بليغة ؟

— في الساق . . كيف كورديني ؟

— لا بأس بحاله . انها قذيفة هاون ضخمة .

— مات باسيني .

— نعم ، مات .

واعترت الارض وسقطت قبلة في القرب ، وهويت أرضا .

— آسف ايها الليوتنان ، تمسك جيدا بعنقي .

— واذا اسقطتماني ثانية ؟

— لقد فاجأتنا .

— ألم تصابا بجراح !؟

— كلانا جراحه بسيطة جدا .

— هل يستطيع كورديني قيادة السيارة ؟

— لا اعتقد ذلك . .

ومرة أخرى ، اعترت الارض وهويت أنا أرضا ، فصاحت بهم :

— يا ولدي الكلبة . .

— آسف ، لن نفلتك ثانية ، قال مانيرا متأثرا .

والحق انهما لم يدعاني أهوي بعد ذلك ، فلقد بلغا مركز التضبيب ،

ومدداني خارجا وهناك استطعت ان المح مئات المصابين ، ممددين حولي بينما

الحمالون يهرولون داخلين بالاجساد المترنحة ، وخارجين للاتيان بغيرها ، وكلما فعلوا ذلك ، ارتفع ستار المدخل ، وبدت هيكل الاطباء ، وقد شعروا عن سواعدهم الملوثة بالدم تماما كسواعد الجزائريين ، اما الموتى ، فكانوا يكذبون اكواما في ناحية بعيدة . والظلم ان الحملات الموجودة ، لم تف بالمطلوب ، فكان الحمالون ينزلون الجرحى حالما يصلون ، ويرجعون من توهم لياتوا بحث اخرى .

ورغم عدد المصابين الكبير ، فلم يكن يسمع الا بعض الانين يرتفع من هنا وهناك .

بعد قليل اشتدت برودة الليل ، وهبت ريح اسقطت اوراق الاشجار المحيطة . . ثم جاء مانيرا ومعه ممرض شرع يضع اربطة حول ساقي قائلا ان كمية لا بأس بها من القاذورات قد امتزجت بلحمي المدمى . . وانهم لذلك سينقلوني الى الداخل حالما تسنح الفرصة ، ثم حياني عائدا الى عمله . وقبل ان يغادرني مانيرا اخبرني ان كورديني لا يستطيع قيادة السيارة ، لان كتفه مهشم ورأسه يؤلمه ، وانه لم يكن قد شعر بحقيقة حاله ، الا الان . حيث تيبس كتفه ، فأسند ظهره الى جدار القرميد ، في الناحية المقابلة ، بانتظار نقله ، وانصرف مانيرا ، قائلا انه وكافوري سيواصلان العمل على سيارتيهما في نقل الجرحى ، فأوصيته خيرا ورجوت لهما نجاحا وتوفيقا .

في هذه الاثناء كانت قد وصلت الى المكان ثلاث سيارات اسعاف بريطانية ، في كل منها ممرضان انجليزيان ، اتجه احدهم نحوني يقوده كورديني الذي كان ممتقع اللون شاحبا وعندما بلغني انجني فوقني ثم جلس القرفصاء وسألني :

- هل اصابتك بليعة ؟ — في السائقين . .
- أرجو ان لا تكون خطرة ؟ اتأخذ سيجارة ؟
- شكرا . .
- اخبروني انك مقدت سائقين !
- احدهما قتل ، والثاني هو ذاك الجريح الذي بعثك الي .
- كم أنت سيء الحظ ! هل ترغب في ان تأخذ سيارتيك ؟؟
- هذا ما اريد ان اكلفك به . .
- سنحرص عليهما ، ونعيدهما الى المعسكر رقم ٢٠٦ ، اليس كذلك؟
- نعم .
- انه مكان جذاب ، كنت قد رايتك قربه ، واخبروني انك امريكي .

— حينئذ .

— وأنا انجليزي !

— حقا ؟

— نعم انجليزي ، هل ظننت اني ايطالي !

•• يوجد بعض الايطاليين في احدى فرقنا •

ثم نهض ، وبعد أن أشار بيده نحو كورديني قال :

— سأنتك أصر علي كثيرا لازاك •

وتقدم منه مرتبا على كتفه ، فأحمر وجه كورديني خجلا ، أما الانكليزي

فاستأذنه متصرفا ، ولكنه عاد بعد قليل ، ليقول انه رتب الامور كما أردت ،

وانه سيصحب السيارتين معه ، ثم أطرق قليلا ورفع رأسه :

— ولكن يجب ان أفعل شيئا لانتقادك من هنا سأقابل المسؤولين •••

الافضل ان نأخذك معنا •

واتجه صوب المركز ، ينقل خطواته حذرا بين اجساد الجرحى ، بينما

اقترب كورديني من موضعي قائلا :

— ذهب ليحثهم على الاعتناء بك ايها الليوتنان الطيب !

— كيف أنت يا قرنكو ؟

— على ما يرام • قالها وجلس الى جانبي •

بعد لحظات لمحت ستار المدخل يرتفع ويخرج منه حاملان ووراءهما الانكليزي

الطويل ، وهم يسيمرون باتجاهي ، وعندما اقتريا ، خاطبهما بالاطالية •

— هنا •• هذا الجريح ، ولكني صحت به :

— أستطيع الانتظار •• هناك كثيرون جرحاهم تستدعي السرعة ••

أنتي أشعر بتحسّن وراحة الان •

— هلما •• هلما •• لاتكن بطلا مجبا للدماء • والتفت الى الحمالين :

احذرا •• انتبها جيدا •• ساقاه تؤلمانه كثيرا •• انه الليوتنان الاميركي

سفير الرئيس ولسون • نقلني الحمالان الى غرفة التضميد ، كانت جيبس

المناضد مشغولة ، وفوقها تجرى العمليات ، وعندما لمحني الطبيب الرئيس

لوح بكلاية قصيرة في يده •

— اصابة خفيفة ، بسيطة انشاء الله ؟

بينما اجاب الانكليزي بالاطالية :

— ها قد جلبته لكم ، الابن الوحيد للرئيس ولسون ، سأنتظر حتى

تنتهوا منه ، ثم أنقله بأول عربة •

ثم انحنى فوقى مدعما : ساذهب للبحث عن الليوتنان وأتمم معاملات
اوراقك .. كل شيء يسير على ما يرام ، ودفع بقامته الى الامام خارجا .
- سأسرع بهذا الجريح ، قال احد الاطباء بينما رفعتني اثنان فوق احدى
المناضد ، التي كانت صلبة مائلة ، تفوح الروائح القوية من حولها ، روائح
الادوية والدم الطازج . وفيما راح المرض يتزع سروالي ، أخذ الطبيب يملي
على الليوتنان عباراته القصيرة :

- جراح سلعجية ، متشابكة ، في الساقين .. وفي الركبة اليمنى ..
والقدم اليسرى .. جرح عميق في الركبة اليسرى .. انسلاخ في جلدة الرأس
وضغطها بيده .. - هل تؤلك ؟

فأردف الطبيب :

- احتمال وجود كسر في الجمجمة .. أصيب أثناء الخدمة .. والتفت
نحوي .. هذا ما يجنبك المثل أمام المجلس العسكري بجرح نفسك تمعدا ..
هل تأخذ جرعة وسكي ؟

- كيف وقع لك هذا ؟ ماذا كنت تعمل ؟ تحاول الانتحار ؟ .. ثم أشاح
بوجهه عني ورفع صوته : سأنظف هنا .. دمه يتجمد بشكل يلفت النظر .
رفع الليوتنان نظره من الورقة وسأل ،

- ما سبب الإصابة ، فنظر الطبيب بدوره الي : - كيف أصبت ؟
- قنبلة هاون ضخمة .

فأردف ويدها تعملان في جراحي بشكل مؤلم جدا .
- أوائق أنت من ذلك ؟

فأجبت بالاجاب وأنا أحاول الاحتفاظ بهدوني شاعرا أن قلبي يكاد
ينفطر ألما ، والمقص يقطع من لحمي . ولكنه عاد يثرثر وكأنه اكتشف شيئا
جديدا ..

- شطايا القنبلة .. سأبحث عنها الان .

.. لا .. ليست مستعجلة ، يكفي اني صورتها ، وضغط بيده فوق
ركبتي اليمنى : هل تؤلك ؟ حسنا هذا لا شيء . اذا ما قبس بما ستشعر به فيما
بعد . اعطه كأسا من الكونياك ، الالم لم يبدأ بعد ، على كل حال ليس ما يخشى
منه اذا لم يستفحل الامر ، ولكن كيف رأسك ؟

- يؤلمني كثيرا ..

- لا تعطه الشراب اذا ، اذا كانت هنالك شظية فلن تكسب شيئا ، كيف
تشعر الان ؟

- يا الهي ! صحت وقد تصيب العرق من كل جسدي .

- لا بد أن يكون هناك شغوية ، لن أضع رباطا حول الرأس *
 - وباشتر في لف الاربطة بسرعة ولكن بمهارة ظاهرة ، وأخيرا صاح :
 - حسنا .. أرجو لك حظا طيبا * تحيا فرنسا *
 - فأجابه طبيب من المتضدة المقابلة : ليس فرنسيا ، انه أمريكي *
 - طنتكم تقولون انه فرنسي ، بالاضافة الى انه كلمني بالفرنسية *
 - لا انه أمريكي أنا أعرفه قبلا وكنت أعتقد انه فرنسي *
- عندما أصبحت خارج المركز محمولا على ناقلة خشبية والغطاء يمنع عني الرؤيا ، سمعت صوت الليوتنان يخاطبني بخنان : أيها الليوتنان ، اسمك ، الاسم الاول ، اسم العائلة ، رتبك ، مكان الولادة ، المدرسة التي تخرجت منها ، الصف الذي أنهيته ، هل من مؤلفات ؟ نتاج آخر ، اني متالم جدا لحالة رأسك أيها الليوتنان ، أمل أن تتحسن عاجلا ، سارسنك مع سيارة الاسعاف البريطانية فورا *
 - لا ، أنني مرتاح تماما ، شكرا ، شكرا *

ولكن الالم الثقيل الذي كان الطبيب قد أشار اليه قد بدأ ، ثم جاء السائق الانكليزي ، وأدخلني الحمالان في سيارته * كانت هناك حمالات أخرى ممدودة على العلاقات فوقى ، وقيل أن ثقل عمس المرض الانكليزي الطويل في أذني ان لاضرورة للتخوف الشديد وان الاصابة مستحسن سريعا ، ثم سمعته يصعد الى مقعده ، وشعرت بالسيارة تتحرك فمددت ساقي تاركا الالم يفعل ما يشاء *

وبينما العربية تصعد الطريق ، شعرت ان شيئا ما ينسكب علي كان في البدء بطيئا ، ثم ما لبث أن انصب كأنه صنوبر ماء فتح بملئه * فناديت على السائق الذي أوقف السيارة متطلعا عن الثقب الخلفي *
 - ماذا تريد ؟
 - الجريح على الحمالة فوقى ينزف دماء غزيرا *
 - لسنا بعيندين عن النهاية ، وتابع السير ، بينما استمر انصباب الدم علي * اذت أن أعرف مصدره بالضبط كي أتجنب تبلل جسدي ، ولكن الظلمة الشاملة منعتني ، وأخيرا سمعت قرعة الحمالة فوقى ، فظننت ان الرجل يحاول الارتياح في ضجعته ولكن الصوت ما عثم أن انقطع وخف انسكاب الدم علي *
 - كيف حاله الان نحن نشرف على النهاية ؟ صاح السائق من الثقب :
 - لقد مات علي ما اعتقد *

في غرفتي الواسعة ، في مستشفى الميدان ، أخبروني أن زائرا سيحضر ليرواني في المساء ، كان النهار حارا ، والذباب يملا الغرفة ، ولكن خادمي ، المكلف بالسهر على راحتي ، كان قد صنع مذبة من اوراق مقصوصة يبعد بها الذباب عني ، الا في الساعات التي يغط بها نائما (وهي ليست قليلة) فكان الذباب يلهو بمداعبتي ، فلا اجد مقرا من تغطية يدي ووجهي والاستغراق في النوم .

وهذا ما فعلته ذلك النهار ، على اني حالما استيقظت شعرت بحرارة الجو قد ارتفعت جدا ، وبساقني قد احترت كثيرا ، فأيقظت الخادم الذي سكب على الأربطة قليلا من المياه المعدنية ، الامر الذي رطب الفراش وجعل التمدد فوقه منعشا الى حد ما !

وبينما الخادم يفرك في جسمي المواطن التي أدله عليها ، والتي كانت تحكني بصورة غير محتملة ، دخل الغرفة طبيب وبفرقتة رينالدي ، الذي ما أن لمحني حتى أسرع وانحنى فوق السرير يقبلني .

- كيف انت يا طفتي الصغير ؟ كيف تشعر ؟

.. احضرت لك هذه ، قارورة كونياك .

وجلس على الكرسي الذي جلته الخادم تم أروفا :

- .. اخبار سارة .. سيقلدونك وساما ، الوسام البرونزي -

- ولماذا ؟

- لان اصابتك ببلعنة ، وقد علمت انك اذا برهنت لهم عن قيامك بأعمال

جلية سيقلدونك الفضي ، والا البرونزي ، اخبرني بالضبط ما الذي حدث هل قمت بعمل خارق للعادة ؟

- مطلقا ، اصابتني القنبلة أثناء تناول الطعام .

- كن رصينا ! لا بد ان تكون قد قمت بعمل ما قبل ذلك او بعده ،

تذكر جيدا ..

- أبدا ..

- ألم تحمل احدا فوق ظهرك ؟ قال كورديني انك نقلت عدة جرحي

- على ظهورك .. رغم ان الطبيب اكد ان ذلك من غير الممكن .
 - لم احمّل احدا .. فانا لا استطيع الحركة ..
 - على كل حال .. ذلك لن يؤثر ..
 .. اعتقد ان بإمكاننا الحصول على الوسام القضي .. اسمع ! ألم
 ترفض ان تضمد جراحك قبل الآخرين ؟
 - ولكن دون أي اصرار ..
 - لا بأس ؟ انظر الى اصابتك كم هي بليغة .. اذكر كيف كنت دائما
 تختار الذهاب الى الخطوط الامامية .. ومع هذا فالهجوم الاخير كان ناجحا .
 - هل عبروا النهر ؟
 - تقريبا .. وأسروا حوالي ألف جندي ألم تقرأ التقرير الرسمي ؟
 - لا ..
 - سأجلبه لك ، انه تقرير مفعم بالانتصارات وال ..
 - كيف الحالة الان ؟
 - على ما يرام ، الكل في غاية السرور ، والكل فخورون بك ، اخبرني
 بالضبط كيف وقع الحادث ، أنا واثق انك ستحصل على القضي ، هلم
 اخبرني ، وصمت قليلا ثم أردف :
 - ولربما حصلت على وسام بريطاني أيضا فهناك معرض انجليزي يعرف
 الحادثة سأقابلة وأرى فيما اذا كان يمكن أن يرشحك ؟ لا بد أن يكون بإمكانه
 عمل شيء ، هل تتألم كثيرا ! ما رأيك بكأس من الكونياك ؟ ها لو انك رأيت
 كيف قطعوا ثلاثة أمتار من أمعائي الرفيعة ! اول مرة أقع تحت رحمة المبضع ،
 على كل حال أشعر بتحسن اليوم ، أه أيها الطفل المسكين ، كيف تشعر الان ؟
 حقا انك شجاع ، لقد انسييتني انك جريح .
 ثم فتح قارورة الكونياك وملا كوبا :
 - اشرب ، قرأت أوراقك ، ليس هناك أية شظية ، اصفح عن ثورتني
 الكثيرة ، فانا متأثر جدا لحالك ، دونك ، اشرب انه مفيد جدا ، كلفتني
 خمسة عشر ليرا ، لا بد ان تكون من النوع الجيد ، ماركة النجوم الثلاثة .
 - بعد ان اغادرك سأذهب لمقابلة الانجليزي .. علنا نحصل على وسام
 آخر .
 - القضية ليست سهلة كما تتصور ..
 - لا .. أنت متواضع كثيرا .. سأبعث بضابط الارتباط فهو يستطيع
 الاتصال بالانجليزي ..

- هل رأيت الانسة باركلي ؟
 - سأحضرها هنا ، سأذهب الان واحضرها هنا .
 - لا ، لا تذهب الان ما هي اخبار كوريزيا ؟ كيف حال البنات فيها ؟
 - منذ اسبوعين ولم يتبدلن ! لم اذهب الى هناك أبداً . . . انهن لسن
 فتيات بل عجائز حرب شمطاوات !
 - اظنها لن تؤذيك .
 - ألم تذهب أبداً ؟
 - فقط لأرى اذا كن قد تبدلن وجاء نوع جديد . . . ومنذ لمحنني أسرع
 الجميع يسألني عنك . . . انه لامر شائن أن يبقوهن طيلة هذه المدة الطويلة . . .
 حتى شعرن كأنهن صديقاتنا .
 - لربما غيرهن رفضن القدوم من الجبهة .
 - طبعاً رفضن ! عندهم فتيات كثيرات .
 - ولكنها العناية السيئة . . . يحتفظون بهن لمتعة جنود المؤخرة ، ونحن
 جيران الموت لا . . .
 - يا ريتألدي المسكين ! هكذا أصبحت وحيداً اذا . لا بنات لا ممرضات
 ولا . . .
 - فملاً كوباً آخر وقربه مني .
 - ثم رفع كأسه متظاهراً بهدوء الاعصاب وصاح :
 - نخب جراحك الباسلة ، نخب الوبسالم الفضي ، ولكن قل لي الا تشعر
 بالضيق وأنت مضطجع هكذا طيلة الوقت ؟
 - أحياناً .
 - أنا لا اعتقد أن بإمكانني احتمال ذلك .
 - أنت ولد أحقق !
 - آه ، كم تمنيت ان تكون معي في الغرفة !
 . . . ليس هناك من يقرع الباب متأخراً هذه الايام ، عائداً من مغامرات
 الليل ، لا احد أستدين منه الدراهم ، لا احد اهزأ منه !
 - والكاهن ؟
 - الكاهن ؟ لست أنا الذي اهزأ بالكاهن ، الكاهن هو الذي يفعل ذلك ،
 أما أنا فأحبه وأعتقد أنه اذا قدر لاحدنا مرافقة كاهن ، فعليه أن لا يرضى
 بسواه وقد علمت انه سيرزرك وانه يستعد استعداداً كبيراً لذلك .
 - وأنا أيضاً أحبه .

- أعرف ذلك .. وأظنكما تتسجمان أحيانا في ذلك الشيء .. هل فهمت؟
- أبدا .. أيها الاحمق !
- بلى .. أحيانا ..
- لا ! ليأخذك الشيطان !
- ثم وقف مردفا :
- كم أحب اغاظتك يا صبي .. أنت وكاعنك وفتاتك الانجليزية ..
- وفي الحقيقة ، أنت مثلي من الناحية الجنسية ..
- لا ، لست كذلك ..
- بلى ، تماما .. أنت في حقيقتك ايطالي .. نار ودخان ولا شيء آخر ..
- فقط تنظاير بالأمريكية .. على كل نحن اخوان ويجب أن نحب بعضنا بعضا ..
- إذا كن أمينا أثناء غيابي ..
- أطمئن ، سأبعتها اليك ، وبالطبع ستشعر براحة أكثر معها ..
- وستنتعش وتسر و ..
- أذهب الى الجحيم أيها الاحمق ..
- ومع ذلك سأبعتها اليك .. الهتك المفضلة، الباردة، الالهة الانجليزية ..
- .. يا ويحناه ماذا يمكن لرجل ان يفعل مع فتاة من هذا النوع ؟ .. سوى
- ان يعيدها ؟ لاي شيء آخر تصلح الانجليزية ؟ سوى ان يعيدها ؟ لاي شيء
- آخر تصلح الانجليزية ؟
- أنت حشرة بلسان قدر ..
- ماذا ؟ ..
- حشرة ..
- وانت حشرة بوجه مقزز ..
- وأنت غبي احمق ..
- وكان الكلمة أثرت به فالحقتها :
- .. بلا ثقافة ، بلا خبرة ، ساذج ..
- حسنا .. ولكني سأخبرك شيئا عن فتاتك الطيبة ، عن الهتك ، يوجد
- فرق واحد بسيط بين الزواج من صبية عذراء والزواج من امرأة ، وهذا الفرق
- ان الصبية تتالم ، ولن يستطيع أحد معرفة فيما إذا كانت العذراء ترغب في
- هذا الإلم ام تمقته ؟
- ولكن لا حاجة بك الى الغضب ؟
- لست غاضبا .. انما أخبرتك ذلك رغبة في اصلاحك .. لاوفر عليك

مالك ووقتك وجهودك .

- أوافق أنت أن ذلك هو الفرق الوحيد ؟

- تماما ! ولكن الملايين من الاغبياء أمثالك لا يعرفون شيئا من هذا .

- أشكرك إذا لهذه النصيحة .

- على كل حال لن نتشائم .. فأنا أحبك جيدا ، ولكن لا تكن أحمق .

- لا ! سأحاول أن أكون عاقلا .. مثلك !

- إذن هدىء من روعك ، أضحك .. هل تأخذ جرعة ؟؟ يجب أن

انصرف .

- اتك طفل كبير ، طيب القلب .

- والآن ، رأيت كيف اننا متشابهان من الناحية الغربية ، نحن اخوان

في الجندية ، وداعا .

- أراك مضطربا .

- لا ! .. انما منفعل العاطفة ، الى اللقاء ، سأزورك ثانية ، لن أقبلك اذا

كنت لا ترغب ، سأرسل الفتاة الانجليزية ، وداعا ، قارورة الكونياك تحت

سريرك ..

.. أرجو لك تحسنا عاجلا .



كان الوقت مساء عندما حضر القس ، كنا قد تناولنا حساء العشاء ،
وجمع الخدم الاطباق من على المناضد الصغيرة .. قاضطجعت في سريري ،
أتطلع الى صفوف الاسرة ، ثم توجهت بنظري خلال النافذة ، حيث تبدو قمم
الاشجار ، يداعب أغصانها نسيم المساء المنعش . أما الذباب فقد بدأ يتجمع بقعا
على قضبان السقف وعلى أعالي الجدران - ولم تكن الانوار لتضاء الا عند
ادخال جريخ أو اخراج آخر ، وأعادت ظلمة المساء المبكرة هذه الى نفسي ،
ذكرى الايام البعيدة ، أيام طفولتي ، يوم كنا قد اعتدنا على تناول عشاءنا
باكرا ، حال غروب الشمس ، ثم يطفأ الضوء بعد أن نكون قد وضعنا في
اسرتنا . وبينما أنا أهيئ في غدوية تلك الذكريات اذ رأيت الكاهن يسير بين
صفوف الاسرة وهو يتبع خادمي .. وأخيرا توقف أمامي بحجمه الصغير
ووجهه الاسمر الهادئ ونظراته المتأثرة ..

- كيف أنت ؟ سألني واضعا بعض الرزم على يديه على الارض بجانب
السرير ..

- حسنا يا أبت ..

فجلس على الكرسي الذي أحضره لربنا الذي ، وتطلع بنظره بعيدا خارج
النافذة ، وامارات الحزن العميق يادية على محياه . بينما آثار التعب تنطق
بها كل قسماات وجهه .

- لا أستطيع المكوث طويلا !

- الوقت ما زال باكرا . كيف حال الجماعة ؟

قابتسم مجيبا :

- ما زلت مهزلةهم الكبرى . نشكر الله انهم جميعا بخير . وأنت أرجو
أن لا تكون مثالما .

- أبدا ..

- انني افتقدك دائما . وخصوصا أثناء تناول الطعام .

- كم أتمنى لو اكون معكم .. كنت دائما أستطيع الحديث معكم ..

- جلبت لك بعض الاشياء البسيطة ، ورفع الرزم . هذه (ناموسية) . .
وهذه قارورة نبيذ . . انك تحبه ؟ اليس كذلك ؟ وهذه صحف انجليزية !
- أرجوك ! اعطني اياها . .

تقطع وجهه سرورا وهو يتاولني اياها ، فامسكت باحدها بحيث يبين
ضوء النافذة تصفها الاعلى وقرأت عناوينها الكبيرة ثم سألته :
- كيف استطعت الحصول عليها ؟

- ارسلت في طلبها من بلدة مستري ، وساحصل على غيرها .
- أشكرك جدا لقدومك ، هل تأخذ كأس نبيذ ؟
- شكرا ، احتفظ بها لنفسك ، انها لك .
- لا ، فقط كأسا .

- كما تريد ، سأجلب لك اخرى في المرة القادمة . . وبينما هو يعالج
اخراج سدادتها ، انزلت جزء منها الى اسفل ، فظهر الارتباك على وجهه ولكنه
قال :

- لا بأس ، لا بأس . .

- نخب صحتك يا ابتاه . .

- نخب شفائك التام يا بني .

واتخذ كل منا ينظر في وجه الآخر ، كنا فيما مضى نتحدث كصديقين
نديين ولكن الامر يختلف الآن .

- ما بك ؟ اراك مرهقا يا ابتاه ؟

- انني مرهق جدا ، ولكن دون سبب ما .

- أخشى أن تكون حرارة الجو قد أرهقتك .

- لا وانما هو الريح ، اشعر خلاله بانحطاط قواي .

- أو يكون تفوزك من الحرب قد أضربك .

- أبدا ، مع اني قد أمقت الحرب والعننا دائما .

- اما أنا فأسر بها وأباركها .

فهز رأسه وذهب بنظره بعيدا ثم أردف : لاني لا تدرك حقيقتها ، لا
تعرف فظانها ، لا تقاسي ويلاتها ، سامحني بأعرف انك جريح ، وانك تتألم . .

- لا ! اصابتي سطحية عابرة .

- ومع انك مصاب . . فانت لا تدرك حقيقتها .

. . باستطاعتي أن أوضح لك قليلا . .

- قبل اصابتي ، كنا نتحدث عنها ، بأسيتي كان يتحدث عنها . .

- فوضع الكوب من يده ، وبدا كأنه يفكر في أمر بعيد :
- بلى .. أنا أعرفهم لانني مثلهم .
 - ومع ذلك فأنت تختلف عنهم ؟ !
 - ولكن الحقيقة اني مثلهم .
 - كل الضباط الكبار لا يقاسون شيئا .
 - بعضهم يقاسي ، والبعض حساس يقاسي أكثر منا .
 - ولكنهم يختلفون عنا في معظم الاشياء .
 - القضية لا تنحصر في الثقافة والمال فقط ، انها مسألة أخرى ، حتى لو ملك غيرهم الثقافة والمال ، فلن يرغبوا أن يصبحوا ضباطا ، كباسيني مثلا ، وكذلك أنا لا يمكن أن أصبح ضابطا .
 - ولكنك مثلي برتبة ضابط ؟
 - لسنا في الحقيقة كذلك ، وانت لست حتى ايطاليا .
 - وما الفرق في ذلك ؟
 - لا أستطيع تفسيره بسهولة . هناك أناس يحبون اشعال الحروب ، وعندنا منهم كثيرون ، بينما آخرون يهتفون ذلك .
 - ولكن الفئة الاولى تدفعهم اليها ؟
 - نعم .
 - وأنا أؤيدها !
 - أنت اجنبي .. رجل وطني متطوع .
 - والذين لا يرغبون في الحرب ، الا يقدرّون على منعها ؟
 - وتطلع خارج النافذة ثانية ، بينما رحت أتأمل انفعالات وجهه .
 - ألم يكونوا يوما قادرين على منعها ؟
 - ليسوا منظمين وعندما يصبحون كذلك يخدعهم زعمائهم ويخونوهم .
 - اذا لا أمل في الخلاص منها ؟
 - لا ، ليست القضية يائسة ، ولكنني أحيانا أشعر باليأس ، رغم محاولتي دائما في تقوية أملتي .
 - عن المحتمل أن تنتهي الحرب على كل حال !
 - يا الهي أرجو أن يكون الامر كذلك .
 - وماذا ستفعل عندئذ ؟
 - سأرجع الى أبروزي موطني .
 - وعم الفرخ أسارير وجهه :

- اني احب تلك البلاد ، احبها كثيرا ، كم سأكون سعيدا لو تقدر لي العودة الى هناك ، أعيش هناك وأحيا في عبادة الله وخدمته .
- وفي فرض احترامك على الناس !
- ليس هذا بالامر المهم ، ففي بلادي تعتبر محبة الله من القضايا الاولية ، لا بدعة مصطنعة .
- فهمت مرادك .
- فهمت ! ولكنك لا تحب الله .
- مطلقا .
- مطلقا ؟
- في بعض الليالي فقط أخافه خوفا .
- ينبغي أن تحبه ، وهذا الذي قلته عن خوفك اياه في الليل ليس حيا ، انما هو عاطفة ورعية . عندما تحب تندفع الى العمل ، الى التضحية ، الى الخدمة والطاعة .
- أنا لا أحب .
- لا بد أن تحبه يوما ، وعندها ستكون سعيدا .
- لقد كنت دائما سعيدا .
- ولكنها سعادة من نوع آخر ، لن تعرف لذتها ما لم تنلها .
- حسنا ، اذا ما نلتها يوما سأخبرك عن طعمها .
- وظهر كأنه تضايق فهز رأسه قائلا :
- يجب أن اذهب الان ، لقد مكثت طويلا .
- لا ، لا تذهب ، ماذا عن حب النساء ؟
- .. اذا ما أحببت امرأة حيا حقيقيا ، أتكون اللذة كما تقول ؟
- لا أفهم في هذا الموضوع ، فلم يحدث ان أحببت امرأة ابدا .
- والدتك ألم تحبها ؟
- طبعا ، ليس من شك اني أحببتها يوما .
- هل أحببت الله يوما ؟
- منذ أن كنت صبيا صغيرا .
- حسنا ، لا أدري بماذا أجيبك ، فأنت صبي لطيف .
- صبي ؟ ولكنك تدعوني « ابناه » .
- من قبيل التأديب .
- فابتسم .. سأصرف الان ، هل تريدني من اجل أي شيء ؟

- للحديث فقط *
- سأحمل تحياتك الى الجماعة *
- أشكرك لهداياك اللطيفة الكثيرة ، تعال لزيارتي مرة أخرى *
- ان شاء الله .. الى اللقاء ..



اشتدت ظلمة الغرفة ، ونهض الخادم من جانب السرير يشيع القس *

كنت اشعر نحوه بالحب ، وكنت أرجو له من كل قلبي ، عودة عاجلة الى أبروزي *

كانت ايامه مع فرقتنا يتخللها احراج شديد ، ومضايقات كثيرة ، ومع ذلك فقد كان يتقبلها كلها بصدر رحب ، وطيبة خاطر *

وتصورت كيف يمكن أن يكون حاله في بلده ، حيث والده الصياد الشهير يخرج الى الصيد كل صباح ويتناول طعامه في بيوت الفلاحين ، بينما يمنع الاجنبي من الصيد حتى يحضر شهادة تثبت انه لم يرتكب جرماً مدى حياته *



وأخيرا قرروا ترحيلي ، فلقد سألتني مدير المستشفى ، صباح اليوم التالي ، فيما اذا كنت أشعر بالقدرة على السفر ، ولما أجبته بالإيجاب قال أن ذلك سيتم صباحا وان الرحلة ستكون أفضل بكثير مما لو تأخرت قليلا لتوقع اشتداد الحرارة .

كان معظم أطباء المستشفى المذكور من الايطاليين ، تتحلى غالبيتهم بطيبة نفس خالصة ، ويستطيع المرء بعد أيام معدودات من التعرف بهم أن يوطد صداقته معهم ، ولذلك أبدى الجميع أسفهم وتأثرهم لفراقى ، ولكنهم قالوا ان مستشفى ميلان ، الذي سأنقل اليه ، تتوفر فيه وسائل أفضل ، خصوصا فيما يتعلق بجهاز أشعة اكس وبمتطلبات فترة النقاهة التي لا بد من قضائها بعد اجراء العملية الجراحية ، كما انهم في الوقت نفسه يرغبون بلهفة الى أن يشغروا كل سرير في مستشفىهم استعدادا لاستقبال الجرحى الجدد الواردين من الجبهة مؤخرا . . . بالإضافة الى رغبتى القوية في الانتقال الى ميلان .

• • •

في آخر ليلة لي بمستشفى الميدان ، زارني رينالدي بصحبة لفتنانت الفرقة وأخبراني أن الولايات المتحدة أعلنت الحرب على ألمانيا فقط ، دون النمسا ، وأنها لذلك أنشأت مستشفى أمريكيا في ميلان ، سعالج فيه ، كما سيعالج فيه معظم الرعايا الاميركيين الذين هم في خدمة الحربية .

كان يبدو على الرجلين شأن جميع الايطاليين ، فرح ظاهر لدخول الولايات المتحدة الحرب الى جانبهم ، ولذلك كانوا يظهرُونَ كل اهتمام بكل ما هو أميركي حتى ولو كان من رجال الصليب الاحمر الاميركي .

وبعد ان ابتدأنا بالشرب سألتني الاثنان فيما اذا كنت أعتقد أن الرئيس ولسون سيتبع خطوته تلك بخطوة مماثلة ضد النمسا ، فأجبتهما ان المسألة قضية أيام فقط ، رغم اني لم أكن أعرف في الحقيقة الاسباب التي من أجلها

دخلنا الحرب ضد ألمانيا ، ولكني رأيت انه بات منطقياً بعد هذه الخطوة أن نحارب النمسا أيضاً . أما فيما يتعلق بتركيا ، فأجبتهم أن الأمر مشكوك فيه ، قائلاً أن تركيا هي عصفورنا المدلل ، والظاهر انهما لم يتفهما روح النكتة التي قصدتها فأعتقد أن جوابي يعني اننا سنحاربها هي أيضاً ، فزادت امارات الفرح على وجهيهما ، ولما جاء دور بلغاريا ، وكنت قد أكثرت من الشراب ، رفعت كأسها صائحا :

- طبعاً ، وسنحارب اليابان كذلك .
 - ولكنها حليفة إنجلترا ، وهذا مما يثير الخداع الانجليزي ضدنا .
 - نريد الاستيلاء على جزر الهاواي .
 - وأين تقع جزر الهاواي هذه ، سنال اللفتنانت .
 - في المحيط الهادي .
 - ولماذا يريدان اليابانيون ؟
 - في الحقيقة هم لا يطمعون بها انما يزعمون ذلك .
- فعلق اللفتنانت :

سهؤلاء اليابانيون شعب عجيب ، مفرمون جداً بالرقص والخمر ، تماماً كالفرنسيين .
ولذلك سننتزع سافوي وليس من فرنسا وكذلك كورسيكا وساحل الادرياتيک .

قال ذلك رينالدي فأجاب اللفتنانت :

- ستستعيد إيطاليا أمجاد روما .

وعندها قلت :

• لا ، لا أحب روما ، انها حارة وملينة بالبراغيث أثناء الليل .

فصاح اللفتنانت :

• لا تحب روما . روما أم الدنيا . كيف تقول ذلك ؟ ليتنا جميعاً في روما الآن . بل ليتنا نذهب الليلة ولا نعود أبداً .

روما مدينة رائعة .

• طبعاً ، أم الدنيا وأبوها .

فقال رينالدي :

• لا روما مؤنثة فلا يمكن أن تكون أباً .

فأجبتة : ومن أب الدنيا إذن ؟ الروح القدس ؟

- لا تكفر .
- أنا لا أكفر ، انما أريد الاستفسار فقط .
- لا . أنت مخمور .
- صحيح ، ولكن من دعائي الى الشرب .
- أنا دعوتك الى الشرب ، لاني احبك ولان اميركا دخلت الحرب .
- دخلتها حتى النهاية ، أجبته .
- وعندها سألني رينالدي :
- ستسافر صباحا ؟
- نعم . الى روما ؟
- لا ، الى ميلان ! الى القصر البلوري .
- الى الكوفا ، الى كاميري ، الى بافي .
- الى المتحف الفخيم يا لك من صبي محفوظ .
- ايطاليا العظمى ، ذات الامجاد .
- لا تنسى الذهب الى مقهى سكاللا .
- سأذهب الى هناك كل ليلة .
- لن تستطيع ذلك ، لانه يكلفك كثيرا .
- سأحصل على حوالات مالية من المصرف .
- على ماذا ؟
- حوالات مالية لحساب جندي .
- لماذا لا تكون غريبا لدى أميركا ؟
- مرحي للحوالات المالية ، قلت ذلك بصوت مرتفع .
- وعندها قال اللفتنايت :
- كفى ، يجب ان نخفض اصواتنا ، لقد نبهونا الى ذلك عدة مرات ، هل
- حقا ستسافر غدا صباحا !
- فأجابه رينالدي :
- طبعاً الى المستشفى الاميركي كما أخبرتك .
- فهز رأسه : نعم ، الى المستشفى الاميركي حيث المرضات الجميلات
- لا رجال التمريض ذوي اللحي الكثة ، كما هو الحال هنا .
- هلم يتبني ان تذهب ، ولكن . . . ما عندي مفاجأة لك . . المرضة
- الانجليزية التي كنت تزورها كل يوم ، ستنقل الى المستشفى الاميركي في
- ميلان ، هي وزميلة لها .

- رائع تماما .
- وكيف لا ، ستعيش في مدينة كبيرة ، وبجانبك الفتاة التي تحب ،
- لماذا لم أخرج بدوري .
- لربما جرحت قريبا .
- على كل حال ينبغي ان نذهب ، يكفيننا شرايا وضجيجا . . . حظا
- سعيدا يا فديكو .
- بينما اقترب زينالدي وقبلني .
- لا تتأخر كثيرا ، الى اللقاء .

• • •

في الصباح التالي غادرنا الميدان وبعد ثمان وأربعين ساعة من الرحلة الشاقة وصلنا الى ميلان .

وصلنا ميلان في الصباح ، ومن ساحة المحطة العامة ، نقلتني سيارة
اسعاف الى المستشفى الاميركي .
كنت متلهفا لرؤية الاماكن التي نجتازها ، ولكن تمتدني فوق المحفة ،
حال بيني وبين رغبتي القوية ، في تأمل مناظر المدينة ، البعيدة عن أزيز
الرصاصة ، وهدير القنابل ، على ان رغبتي القوية تلك ، دفعتني في مرحلة
الطريق الاخيرة ان أشرب بعنقي وأنطلق من نافذة السيارة الخلفية :
كان المكان سوفا واسعا ، تقع في طرفه دكان خمور ، انحنت فوق أرضها
صبية تكس ما خلفته ليلة امس ، بينما انهمك قتيان آخرون في رش الماء على
السوق .

شممت رائحة الصباح الباكر تفوح من أرجاء الطريق ، وأخيرا بلغنا
المستشفى ففتح الرجلان باب السيارة وأنزلا المحفة أرضا ، بينما اتجه السائق
مسرعا الى الداخل ، ثم عاد ومعه رجل ذو شاربين ، قد خطهما الشيب ،
وقبعة رسمية عرفت منها انه حاجب المدخل ، وراح الجميع يتشاورون بصوت
منخفض ، ثم علا صياحهم واحتدم الجدل فيما بينهم ، هل يرتقون بي السلالم
درجة درجة ؟ أم يستعملون المصعد ؟ لقد كانت المحفة أهدم من ان يسعها
المصعد ، والظاهر انهم اتفقوا أخيرا على ان أمسك بعنق أحد الرجال ،
ويمسك الآخر بقدمي وهكذا ينقلاني داخل المصعد الى الطابق الرابع . وبالفعل
رفعتني الايدي القوية عن المحفة ورأيت أن أحذرهم ، لئلا تسكرهم بسهولة
العجل الذي ارتأوه ، فخاطبتهم متوددا :

— رويدا ، فلسنا على عجل .

— اطمئن ايها الليوتنان ، لا بأس عليك .

وازدهم المصعد بنا ، ووقف الرجلان في مقابل بعضهما ، وانا بينهما قد
تكومت ساقاي والاسم ينهشها نهشا موجعا حادا لم استنطح عليه صبورا ،
فصحت بهما :

- مدا ساقى .. مداهما *

- لن نستطيع ايها الليوتنان ، فالمصعد ضيق جدا *

قال ذلك الرجل الذي أمسك بعنقه ، بينما يلف هو ذراعه حولي ، وينفت زفيره في وجهي ، مما جعلني اكتشف انه بات ليبلته مخمورا ، مكثرا من الشراب ومن اكل الثوم .

- ترفق بالجريح ، صاح الرجل الاخر ، الممسك بقدمي .

- ابن الكلبة ، من لا يترفق به ؟

- قلت لك ترفق به ، كرر الرجل الاول وعلق الباب ، ثم ضغط باصبعه فوق زر الطابق الرابع . تطلعت الى وجهه فاذا به يحاول الظهور بمظهر غير الخائف ، ولكن ما ان تحرك المصعد حتى بادرت شفتاه تردد اسم يسوع فانسحت بوجهي نحو الرجل ذي رائحة الثوم ، وسألته :

- الحمل ثقيل ، أليس كذلك ؟

- لا ، لا اطمئن ايها الليوتنان ، ومسح العرق المنصب على وجهه ، بينما ضغطت اسنانه فوق شفتيه كأنه يترقب حدثا . ولكن المصعد توقف ، وحالا دفع الرجل حامل قدمي الباب ، وخطا خارجا ، يتبعه الاخر ، فوقفتنا في اول رواق طويل ، على جانبيه ابواب ذات اقفال نحاسية . فقرع الحمال الجرس المقابل ، ولكن احدا لم يفتح قاعاد القرع ، ولكن دون جدوى ، وبعد قليل اذا بالحاجب يكاد يفقد انفاسه ، مهرولا نحونا ، والظاهر انه ارتقى السلم وثيبا .

- أين هم ؟ ألا يوجد أحد ؟ سأل الرجل ذو رائحة الثوم .

- لا ادري انهم يتأمون في الطابق الاسفل .

- ارسل لنا أحدهم اذا .

ولكنه بدلا من أن يفعل ، راح يقرع الباب المقابل بعنف ، ويدفعه بكلتا يديه ، حتى اذا ما انهزم المصراعان أمامه ، اسرع داخلا ، ثم عاد ، ووراءه ممرضة عجوز ، على عينيها نظارتان عتيقتان ، وقد ابيض النصف المتبقي من شعرها الاشعث ، وعندما اقتربت منا ، اندفع الحمالان يخاطبانا بالاطالنية ، وأمازات الغضب بادية على وجهيهما ، وفي نبرات صوتهما ، ولكنها اجابت بالانجليزية : لا أفهم ما تقولانه .. لست ايطالية ، فبادرتهما :

- انا اتكلم الانجليزية .

- لا يوجد لدينا أية غرفة جاهزة .. ولم يخبرونا بقدم أي مريض ..

- ثم أخذت نعبت بشعرها محاولة استراق النظر الي :
- لم تكن نتوقع قدوم احد هذا اليوم و ...
 - فقاطعتها الحاجب غاضبا :
 - اريهم اية غرفة جاهزة .
 - وعندئذ صحت بها :
 - اية غرفة ! ثم التفت الى البواب وخاطبته بالايطالية :
 - افتح اقرب غرفة شاغرة .
 - جميع الغرف شاغرة . فانت المريض الاول . . . وحمل قبعته بيده ،
 - متطلعا الى الممرضة العجوز ، كأنه ينتظر أوامرها .
 - من أجل يسوع ، ضعنوني في اية غرفة !
 - كان الالم قد بلغ الذروة ، حتى أنني لم أعد احس بساقي ، وشعرت
 - كأن سنانا حادة تخترق عظامي .
 - والظاهر انهم لاحظوا ذلك ، فاسرع الحاجب ودخل احدى الغرف ،
 - تبعه الممرضة العجوز ، ثم عاد وأشار بيده : اتبعوني .
 - فتبعه الجمالان وأنا بينهما ، وقبل أن نجتاز عتبة الغرفة ، عثقت في
 - أنوفنا رائحة أناتها الجديد .
 - سرير معدني واحد وخزانة خشبية لم يحف طلاؤها بعد .
 - الاغطية جميعها موصد عليها داخل الخزانة .
 - لن أستطيع وضع غطاء فوقك ، صاحت العجوز ، فلم أجبها ، ولكني
 - قلت للحاجب :
 - يوجد نقود في جيبى ، هاتها لي .
 - فأحضرها ، بينما وقف الجمالان الى جانب السرير ، كل قبعته بيده ،
 - يحاول تخفيف العرق المتصبب من وجهه : اعطهما خمسة لير ، وخذ خمسة
 - أخرى لك ، ثم أخرج أوراقى من الجيب الاخر وسلمها للممرضة .
 - حياتي الرجلان وأنصرفا شاكرين ، وعندها قلت للعجوز :
 - هذه الاوراق تصف مرضى ، والعلاجات التي استعملت قبلا .
 - فقربتها من عينيها ، وراحت تحديق بها .
 - وماذا سافعل بها ؟ لا احسن قراءة الايطالية . ولن أقوم بشئ دون
 - أمر الطبيب .
 - قالت ذلك بصوت مرتفع داسة الازراق في جيب ثوبها ثم اردفت :
 - هل أنت أميركي ؟

- نعم ، وأرجوك وضع الاوراق هنا ، على هذه الطاولة .
كانت الغرفة رطبة ، ضعيفة الانارة ، وكنت استطيع ، وانا مستلق على
ظهري ، رؤية أعلى المرأة نحاسي ، دون أن أتمكن من رؤية الأشياء التي
تعكسها ، كان الحاجب ما زال واقفا الى جانب السرير بوجهه التوسيم ، ونظراته
الرحيمة ، ولم أكن بحاجة اليه بعد ، فأمرته بالانصراف ، والتفت الى
المرضة :

- بإمكانك ان تنصرفي ، ولكن ما اسمك ؟

- السيدة فروكر .

- حسنا ، اعتقد اني سأنام الان .

على انه لم تمضي دقائق قليلة حتى أحسست بالعطش ووجدت شريط
الجرس قريبا مني ، فمددت يدي وضغطته مرة ومرتين وثلاث مرات ، ولكن
احدا لم يأت ، فأغضضت عيني وأغرقت في النوم .

وعندما أفقت كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة ورايت أن ساقبي قد
تمددتا ، دونما وعي مني ، بأربطتهما القذرة ، غير ان عطشي الشديد لم يدع
لي مجالاً للتفكير بهما ، فضغطت على الجرس مطولا ، وسرعان ما انفتح الباب ،
ودخلت ممرضة شابة على وجهها تبدو مسحة من الجمال .

- عمي صباحا .

- عم صباحا ، واقتربت من السرير ثم أردفت :

- لم يكن أحد منا يعرف ان مريضا سيحضر . على كل حال هم تشكرو ؟

- مصاب بساقي وبراسي .

- ما اسمك ؟

- هنري . . . فردريك هنري .

- سأقوم بغسل جسدك الان ، ولكن بالنسبة للضمادات لن نستطيع

عمل شيء ، حتى مجيء الطبيب .

- هل الانسة باركلي موجودة هنا ؟

- لا ، لا يوجد أحد بهذا الاسم عندنا .

- اذا من هذه السيدة التي أخذت بالصباح عند وصولنا .

- انها السيدة ووكر كانت في خدمتها الليلة ، ولم تكذ تنصرف للنوم ،

حتى ايقظتموها .

وبينما كنا نتحدث ، راحت تفزع ثيابي ، ثم جعلت تمرر خرقا مبللة
بالماء ، على اعضاء جسدي العارية ، مما جعلني أشعر بانعاش ونشاط اما هي

فتابعتم عملها بنأان ورفق ، وعندما قرعتم سألتني :

- اين أصبتم بجراحك هذه ؟

- في ايزنزو ، شمال بلافا .

- في أية ناحية ؟

- شمال كوريزيا .

• ولاحظت ان أيا من هذه الاماكن لا يعني شيئا لديها .

- وهل تألمت كثيرا ؟

- لا ، ليس كثيرا .

• فوضعت ميزان الحرارة في فمي .

- الابطاليون يضعونه تحت الابط .

- لا تتكلم !

تم سحبه وقراته .

- كم هي حرارتي ؟

- ليس مفروضا ان تعرفها .

- ولكن أخبريني كم تكون ؟

- تقريبا طبيعية .

• حقا ، فأنا لا أشعر بالحمى ابدا .

- بماذا ؟

- بشظايا قنابل الهاون .

فهزت رأسها مبتسمة :

- لو ان هناك أية أشياء غريبة في جسمك لكنك تشعر بحرارة .

- حسنا ، سوف نرى ما نستخرجون منها .

وبعد قليل خرجت من الغرفة ، ثم عادت برفقة الممرضة العجوز ،

فتعاونتا على ترتيب السرير ، وأنا فوقه ، الامر الذي كان جديدا علي ، بل

تقدما مدهشنا ، حيث ممرضو مستشفى الميدان يتعاونون على انزالي من على

السرير ثم ارجاعي فوقه كيما يستطيعون ترتيبه .

- من المسؤول هنا ؟

- الانسة فان كامين .

- كم ممرضة جميعكن ؟

- اثنتان فقط .

- ان يزداد عددكن ؟

- علمنا ان البعض قادمات قريبا .

- ومتى سيصلن ؟

- اف ٠٠٠ كم انت كثير الاسئلة !

- لا نعرف !

ولما انتهيتا من تنسيق السرير ، استلقيت على الغطاء النظيف ، ثم ذهبت السيدة ووكر واحضرت معطف بيجامة جديد ، فتعاونتا ثانية على الياسي اياه .

- كم انتما رحيمتان بي اهل بالامكان تناول كوب من الماء ؟

لا اريد فطوري ، وانما اريد فتح النوافذ على مصراعها .

وحالا تم ذلك ، واستطعت رؤية سطوح المنازل ومدخلها ، وتامل السماء الزرقاء ، صافية تشويها آثار غيوم عابرة .

- الا تعرفين متى ستتصل الممرضات القادمات ؟

- لماذا ؟ الم ترق لك خدمتنا ؟ الم نعتن بك كما يجب ؟

- لا ، انكما نشيطنان تماما .

- هل ترغب في استعمال المروحة ؟

- ساجريها ، متى سيصل الطبيب ؟

- عندما يعود ، وسنحاول الاتصال به هاتفيا .

- اليس هناك طبيب آخر ؟

- انه طبيب المستشفى الخاص .

احضرت الانسة جكلد ، الممرضة فارورة ماء وكوبا نظيفا ، قشربت ملء

ثلاثة اكواب ، واشرت عليهما ان ينهضاني ، ففعلتا ذلك ثم خرجتا .

اخذت اطلع من خلال النوافذ ، اسرح طرفي خارجا ، ولما مللت ، عدت الى التمدد فالنوم .

عند الظهر ، تناولت غذاء خفيفا ، ثم حضرت رئيسة الممرضات ، الانسة

فان كامين لثرائي ، ومنذ النظرة الاولى لم تقع من قلبي موقعا حسنا ، كانت

صغيرة الحجم ، خبيثة النظرات ، تصلح لمركزها كرئيسة ، وسالتني عدة

اسئلة ، تراى لي من خلالها انها لم يرق لها وجودي في العرب مع الايطاليين

وحظر لي ان استفيد من وجودها قيادرتها :

- هل تستطيع احتساء الخمر مع الطعام ؟

- فقط اذا سمح الطبيب بذلك .

- اذا لا يستطيع تناولها حتى حين قدومه ؟ !

- طبعا لا يستطيع .

- وهل عملتم ليكون قدومه في اسرع وقت ؟
- اتصلنا به هاتفيا الى بحيرة كومو ؟ !
ثم ادارت ظهرها وخرجت ولم ترض هنيهة حتى فتحت الباب الانسة
كاج :

- لماذا كنت فظا مع الانسة كامين ؟
- لم أقصد أن أكون كذلك .
- ولكنها قالت أنك تكلمت معها بكبرياء ، وكنت فظا .
- لم أكن كذلك ولكن ما القائدة من مستشفى يدون طيبب ؟ !
- انه أت اتصلوا به هاتفيا الى بحيرة كومو .
- وماذا يفعل هناك ؟ . يسبح ؟ !
- لا ، عنده عيادة ، يعالج مرضى الناحية .
- اذا لماذا لم يحضروا طبيبا اخر .
- صه ، صه ! كن هادئا وسوف يأتي الطبيب . .

استدعيت الحاجب ، واخبرته بالاطيالية أن يجلب لي قارورة وسكي وقارورتي خمر ، وصحف المساء ، فعاد بعد قليل ، وقد لث القوارير الثلاث بالصحف ، فطلبت اليه نزع سداداتها ووضعها تحت السرير . ثم تركي وحيدا ، فاحتسيت بعض الخمر وزحمت اقرأ في الصحف: اخبار الجبهة وقائمة اسماء القتلى من الضباط والاوسمة التي تقلدوها ، بعد موتهم طبعا ، ثم مندت يدي الى أسفل ، وتناولت قارورة الوسكي ، ووضعتها فوق صدري واخذت احتسي جرعة جرعة ، وبينما انا أفعل ذلك كنت أتأمل الظلام يزحف على المدينة ، والسنونو ينتقل بين السطوح ، ثم دخلت الانسة كاج ويدها قدح به بيضة ، فانزلت قارورة الوسكي نحو جانب السرير الاخر .

- لقد سكت لك الانسة كامين بعض الجمعة هنا . . فلا تكن فظا معها بعد اليوم . . انها ليست بالصبيحة ، وللمستشفى مسؤولية كبيرة مرتبطة بها .
وكما ترى أن السيدة ووكر عجوز لا تستطيع مساعدتها في شيء .
- حقا ان الانسة كامين صبيحة طيبة . اشكرها باسمي كثيرا .
- سأؤخر عشاءك .

- كما تريدن ، فليست جائعا .
وعندما احضرت طبق العشاء ، التهمته على عجل واستلقيت نائما ، وقبل أن تغضب عيني ، لاحظت كثرة اخنواء الاستكشاف تجوب اجواء المدينة ، ثم غفوت في نوم ثقيل ، لم استيقظ منه الا وطلائع الفجر تشق طريقها ، والعرق يتصبب من جميع اجزاء جسدي فعدت الى النوم ثانية .

كانت الغرفة مشرقة ، واشعة الشمس تشير كل جوانبها عندما افقت
ظانا اني ما زلت في الجبهة ، وأحسست بساقي تؤلاني ، والاربطة القادرة ما
زالت حولها لم تبدل منذ يومين ، دفعت جسدي لاعلى ، حتى بلغت شريط
الجرس ، فقرعته ، وبعد قليل سمعت وقع أقدام تقترب ، ثم دخلت الانسة
كاج وقد ظهرت على حقيقتها في ضوء الشمس ، أكبر وأقل جمالا مما بدت لي
للوهلة الاولى .

- عم صباحا . هل قضيت ليلة مريحة ؟
- نعم ! أشكرك كثيرا ، هل يمكن استدعاء حلاق ؟
- جئت ليلا لاتفقدك ، فوجدتك نائما وهذه في سريرك ، وفتحت الخزانة
مخرجة فارورة الوسكي ، التي كانت فارغة تقريبا .
- وهذه الفارورة الثانية ، وجدتها تحت السرير ، لماذا لم تسألني
احضار كاس لك .

- خشيت أن تمنعيني من احتسائها !
- لا ! كنت شاركتك في بعضها .
- أنت فتاة طيبة !
- ليس من حقك ان تشرب وحيدا ، ينبغي أن لا تفعل ذلك ثانية .
- كما تشائين .
- صديقتك باركلي قد وصلت .
- أحقا تقولين ؟
- نعم ، ولكني لم احببها .
- سوف تحببها ، انها فتاة رائعة للغاية .
فهزت رأسها : - أنا واثقة انها رائعة . هل تستطيع التحرك الى ذلك
الجانب ، سأنظف جسديك استعدادا للمفطور ؟
- وهل سيحضر الحلاق ؟ .

أرسلت الحاجب في طلبه ، وغادرت الغرفة ثم رجعت تؤكد انه قد ذهب ليستدعيه .

وتابعتم عملها في غسل اجزاء جسمي بالماء الدافئ ، والصابون ، وبعد أن فرغت ، جاء الحلاق .

كان في حوالي الخمسين من عمره ، ذا شاربين مفتولين ، وما ان اقترب مني ، حتى بدأ عمله قورا ، بوجه عبوس متجهم ، دون ان ينبس ببنت شفة ، حتى ولا بالتحية ، فابتدرته سائلا :

— ما شأنك ؟ أليس لديك أخبار جديدة ؟
— أخبار ماذا ؟

— أخبار عن أي شيء ؟ عما يجري في المدينة .

— نحن في زمن حرب .. والعدو آذانه منبثة في كل مكان .

فأدرت رأسي ونظرت اليه بطرف عيني ، ولكنه ابتدرني صائحا :

— أخفض رأسك فلن تسمع مني شيئا .

— ولكن ما شأنك هكذا ؟

— انني ايطالي اهل فهمت ؟ ..

— ومن المستحيل ان اتصل بالعدو ..

فتركته وشأنه ، لعله مجنون ، وفي هذه الحالة ، من الافضل الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن . وفعلا بقيت معتصما بالصمت ، ساكتا ، على انه اتفق ان استترقت اليه النظر خلسة ، فحدجني ، صارأ على أسنانه :

— اباك ! فالوسى حادة كما يجب .

وعندما انتهى تقذته أجره ، مضيغا نصف ليرة زيادة ولكنه أعاده قائلا :

— لست بحاجة اليك .. لقد أخبرتك اني ايطالي .

— حسنا اخرج من هنا اذا ..

فلف موساه بقطعة الجريدة ، وانصرف .

قرعت الجرس ، وطلبت الى الانسة كاج استدعاء الحاجب ، ولما حضر ،

سألته ، وهو لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الضحك :

— هل هذا الحلاق مجنون ؟

— لا أباها الستيور ، لم يفهم ما قلته له جيدا واعتقد انك ضابط نمساوي

.. ها ها ها .. انها مضادفة مضحكة .. حركة منك قال لي وسوف ..

ومرر يده حول عنقه .. ها ها ها ، وحاول ان يكف عن الضحك .. عندما

أخبرته انك اميركي ولست نمساوي .. ها ها ها .

- .. ها ها ها .. أخرج من هنا .
- .. لا لا .. ياسنيور انه يخاف النمساويين كثيرا .. ها ها ها ها .
- .. ها ها ها ، قهقهت صائحا .. كم كان جميلا أن يقص عني .
- فخرج ، ولكن صدى قهقهاته كانت تتجاوب علي مدى الرواق ، وفجأة سمعت وقع اقدام تنسارع ودخلت الغرفة ممرضة ، أقبلت رأسا الي السرير .. الانسة باركلي .
- .. مرحبا يا حبيبي ، قالت ذلك وكلها روعة وفتوة وجمال ، حتى خيل الي أنني لم أرها بمثل هذا الحسن قليلا ، وأني لم تقع عيني على أنظر أو أجمل منها حتى الآن .
- .. مرحبا ، ومنذ لمحتها خفت قلبي حبا لها ، وانقلب كل شيء في نفسي رأسا على عقب .
- أما هي فتطلعت نحو الباب ، ولما لم تر احدا ، انحنت فوقي تقبلنسي ، فادبتها متي ولقفتها بذراعي ورحت أقبلها ، أقبلها في كل مكان من جسدها ، وأنا اسمع خفقات قلبها .
- .. يا لسعادتي ! اليس قدومك الي هنا امرا رائعا مدهشا ؟
- .. لم تكن المسألة صعبة ، ولكنني أخشى ان تكون الصعوبة في البقاء .
- .. لقد أثبت لتبقي .. آه .. انك مدهشة كنت ان أصبح مجنوننا وأنا بعيد عنك .
- وكانني لم أصدق عيني ، في انها كانت السى جانيسي ، فضغطت علي جسدها ، شادا اياها نحو قلبي .
- .. لا ! .. صحتك لا تسمح بذلك .
- .. بلى ! اقتربي .
- .. لا ، قواك تمنعك من ذلك .
- .. بلى استطيع .. أرجوك ، اقتربي .
- .. هل تجبني ؟
- .. نعم أجلك ، أكاد أجن من أجلك ، اقتربي أرجوك .
- .. أسمع كيف يخفق قلبانا ؟
- .. ليس الان دور قلبينا ، بل دورك ، أرجوك أكاد أجن من أجلك .
- .. هل تجبني حقا ؟
- .. يكفي كلاما من هذا القبيل ، تعالي ، أرجوك يا كاترين .

- حسنا ، ولكن لدقيقة واحدة فقط .
 - كما تشائين ، اغلقي الباب .
 - اه ، لا تقدر ، يجب أن لا تفعل .
 - تعالي ، كفى موعظة ، ارجوك تعالي .
 ومضت ساعة ، جلست بعدها على الكرسي بجانبى ، وقد فتحت باب
 الغرفة ، أما أنا فكانت أعصابى قد استرخت ، وفارقتنى لواعيج شهوتسى
 المضطربة .

- والان هل وثقت من حبي لك ؟
 - آه كم انت رائعة يا كاترين ، بلى ، لقد اتيث لتبقي هنا ، ولن
 يستطيعوا ابعادك عني ، انى موله بك .
 - ولكن علينا ان نكون حذرين للغاية ، لقد كان عملنا الان مخاطرة
 حمقاء ، لا نستطيع فعلها مرة ثانية . - نستطيع ، في الليل .
 - ولكن علينا ان نكون يقظين جدا ، لا سيما امام الناس .
 - سأكون كذلك .
 - نعم سوف نكون ، انت مدهش ، هل تحبني حقا ؟
 - لا تسأليني ذلك مرة أخرى ، فأنت لا تعرفين اثر ذلك في نفسى .
 - واذا سأكون انا حريصة ايضا ، فلست أريد ايداعك ابدا ، ينهني
 ان أنصرف الان .
 - تعالي بعد قليل ، - سآنى عندما أستطيع ذلك ، وداعا ،
 - وداعا ايها الحلوة .

خرجت والله يعلم انى لم أكن أريد لقلبي الوقوع بحبها ، لم أكن أريد
 الوقوع في حب أحد مطلقا ، ولكن الله يعلم ايضا انى قد وقعت ، وأنى
 اضطجع الان على هذا السرير ، في غرفة المستشفى ، في ميلان ، وكل الافكار
 تضطرب في رأسى ، افكار الحائر الوله .
 واخيرا دخلت الانسة كاج :
 - الدكتور قادم الآن ، لقد اتصل بنا من بحيرة كومو .
 - ومتى سيصل هنا ؟
 - بعد الظهر .

كان الطبيب رجلا هادئا نحيفا قد اثرت الحرب في اعصابه ومع ذلك
قلم يسبب لي اي ألم ، وهو يخرج بعض الشظايا المعدنية من فوق ركبتي ،
ولكنه بعد محاولات عديدة ، فشل في معرفة ما يمكن ان يكون قد استقر
عميقا في ساقى ، قائلا انه لا بد من الاستعانة بجهاز أشعة اكس . ولذلك حملت
الى مستشفى ما كوارى ، وقام طبيب أبرز ما يتصف به ، خفة الروح ، وحب
المرح ، بعملية الكشف ، وقد تم ذلك بطريقة استطعت معها رؤية بعض
الشظايا الكبيرة في جسدي ، ثم صوروني في كل المواضع ، وزجاني بعد ذلك
اعطاءه المعلومات الاخرى : اسمي ، فرقتي ، رتبتي ، المدرسة التي تعلمت
فيها والدرجات التي حصلت عليها ، الى آخر ما في هذه القائمة الطويلة من
الاسئلة ، وعندما انتهى من تدوين كل ذلك قال ان الشظايا أصححت في حالة
رديئة ، ضارة ، وأن هؤلاء النمساويين ابناء الملكية . . . وسألني - كم
قتلت منهم ؟

والحقيقة اني لم اكن قد قتلت حتى ولا جنديا واحدا . ولكنني اردت ان
اشفي غليله فاجبته :

- كثيرا . . كثيرا جدا .

على انه بدلا من ان يهتني ، التفت الى الانسة كاج ، وكانت قد
رافقتني الى المستشفى ، وضع يده على كتفها مبديا اعجابه بعسنها ، قائلا
انها اجمل من كليوبتره .

. . اتراها فهمت ما يقول ؟ كليوبتره ملكة مصر السابقة !

. . بلى ! لقد كانت الانسة كاج اجمل منها .

شكرت طبيب ما كوارى وعدت المستشفى ، وبعد رفع ودقع بلغت
غرفتي ، واستلقيت فوق سريري . وفي المساء ، وصلت الصور ، فسر طبيينا
كثيرا ، لانه كان قد أقسم امامي وأكد ، انه يصير على استلامها في ذلك الوقت ،
أما أنا فلم أعرف بوصولها الا عن طريق الانسة باركلي ، التي أحضرتها الى

- الغرفة ، بغلافاتها الحمراء فأخذنا تنأملها معا ، صورة صورة !
- تلك ساقك اليمنى ، قالت معيدة الرسم الى الغلاف الاحمر .
 - ضعيها بعيدا وتعالى الى السرير .
 - لن أستطيع . . استأذنت فقط لدقيقتين ، كي أتمكن مسن اطلعك عليها . وخرجت مسرعة .
- تبعيت وحدي في الغرفة ، وكنت قبل دخولها أشعر بضيق شديد من جراء النوم المستمر ، فاستدعيت الحاجب وأمرته باحضار صحف المساء كلها ، وقبل ان يرجع بها دخل الغرفة ثلاثة اطباء .
- كنت قد لاحظت ان الطبيب الفاضل في عمله ، يميل دائما الى الاستعانة بأطباء غيره ، ولكن من الفاشلين أيضا ، ان الطبيب الذي يفشل في بتر جزء فاسد من جسدك سيوصي بك طبيبا آخر لن يتجح باستئصال لوزتيك الملتهبتين .
- هكذا تراءى لي امر الاطباء الثلاثة .
- هو هو . . الشاب الذي حدثتكما عنه . قال طبيبي .
 - كيف حالك ؟ سأل الطبيب الطويل النحيل ذو اللحية .
- أما الطبيب الثالث ، الذي حمل مغلفات الصور الحمراء ، فلم يفعل شيئا .
- تفك الاربطة ؟ سأل الطبيب ذو اللحية .
 - بالتأكيد ، أجابه صاحبا ، ارفعي الضمادات ايتها الممرضة .
- فتفدت الانسة كاج أمره ، ورفعتها ، وراح كلاهما يتأملان ساقى عن قرب ، كانتا منسلختي الجلد ، والركبية منفتحة ذات لون قاتم ، ولكن دون سديده ، واخيرا قال ذو اللحية :
- نظافة مدهشة !
- وعندما تحرك الطبيب الثالث واشرب بعنقه من فوق كتف زميله وكأنه يريد الاطمئنان الى ما سمع ، بينما تابع ذو اللحية :
- حرك رقبتيك من فضلك .
 - لا أستطيع !
 - فتطلع نحو صاحبا قائلا :
 - هل تفحص المفصل ؟
 - بالتأكيد ، وامسك مع الطبيب الثالث بساقى اليمنى وشرعا في تنيها ، ولكنني صحت بهما .

- انها تؤلمني كثيرا .
- نعم نعم .. اكثر .. اكثر .. اكثر قليلا ايها الطبيبان .
- يكفي .. يكفي .. لن نتنهي اكثر .. انها تؤلمني جدا .
- مفصل مائل ! قال ذو اللحية ، رافعا قامته ، وكنت قد لاحظت أنه يحمل شريطا أحمر الى جانب النجوم الثلاثة على كتف معطفه ، الامر السني يشير الى أنه كابتن ، ثم أردف :
- أين الصور .. اعطينها ثانية .
- فتناوله ايها الزميل الثالث .
- اليسرى .. الساق اليسرى أرجوك !؟
- ولكنها الساق اليسرى ايها الكابتن .
- ها نعم نعم .. لقد نظرت الى الصورة من زاوية أخرى .
- وأعاد الرسم مكانه ، ثم أمسك بالآخرى وتأملها مخاطبا صاحبنا :
- أنت ترى يا دكتور ، وأشار الى نقطة ظهرت واضحة في الضسوء .
- فأنهك الثلاثة في النظر اليها .
- فقط شيء واحد يمكنني قوله .. انها مسالة وقت .. ثلاثة شهور ..
- خمسة .. ستة من المحتمل .
- بالتأكيد ، المسألة مسالة وقت فقط . لن أستطيع شق ركبة كهذه قبل ستة شهور !
- أويديك ايها الكابتن .
- وأنا كذلك ، نطق الثالث لأول مرة .
- ستة شهور من اجل ماذا ؟ سألتهم مذهولا .
- ستة شهور حتى نستطيع تحديد مكان الشظية بالضبط ، وبعدها يمكننا شق الركبة .
- بالتأكيد ، صاح طبيبنا قبل ان افتتح فاهي لاجيب .
- ولكنني اعتقد انها فترة طويلة جدا يا حضرة الكابتن .
- الا تريد الاحتفاظ بركبتيك ؟؟
- لا ..
- ماذا !؟
- اريد بترها ، والاستعانة بكلاية عوضا عنها .
- ماذا تعني بالكلاية .

فقاطعني طبيب المستشفى وهو يريد على كفتي *
- انه يعرج ايها الكابتن ... انه يريد الاحتفاظ بركبته دون شك *
ولكنه شاب شجاع جدا * لقد رشح لتقلد الوسام القضي *
فمد الكابتن يده وصافحني قائلا :

- اتعني لك شفاء عاجلا * كل ما استطيع قوله :
* لا بد لكي تأمين كل شر ، من الانتظار على الاقل ستة شهور *
وبعدها نشق الركبة * انت على كل حال سستسمع الى آراء اخرى * اليس
كذلك ؟

- اشكرك كثيرا ايها الكابتن * انني احترم رأيك واقدره *
فنظر الى ساعته : - ينبغي الانصراف الان * اتعني لك شفاء عاجلا *
ومددت يدي لصافحة الطبيب الثالث ، رغم انه اكتفى طيلة الوقت
بهمز رأسه عند كل ملاحظة ثم غادر ثلاثتهم الغرفة * فناديت الانسة كاج
ورجوتها استدعاء طبيبنا فرجع ، وقبعت يده :

- هل ترغب في أي شيء ؟
- نعم * لا استطيع الانتظار ستة شهور * يا الهي * وانت يا
دكتور ، هل حدث لك ان بقيت ستة شهور مستلقيا على الفراش هكذا ؟
- لن تلازم الفراش كل هذا الوقت * ستعرض جراحك للشمس ، ثم
تندرب على المشي متكئا على العصا *

- ستة شهور وبعدها العملية ؟ !
- تلك هي الطريقة الآمنة * حتى يحدد موضع الشظية بالضبط *
* ويتكون السائل اللزج * وعندها يمكن شق الركبة *
- هل تؤمن في قرارة نفسك يا دكتور ، انه بإمكانني الانتظار كل هذه
البلدة *

- ولكنها الطريقة الآمنة *
- ومن ذلك الكابتن ؟
- انه جراح شهير جدا * من ميلان *
- كابتن اول ! اليس كذلك ؟ !
- بالتأكيد * ولكنه جراح شهير *

- على كل حال لا اريد ان يعبت كابتن بر كبتني .. لو كان حقا ماهرا
 لاصبح ماجور .. انا اعرف ماذا تعني رتبة كابتن !
 - ولكنه جراح شهير .. انا شخصيا ارجح رايه على آراء الآخرين ..
 دائما .
- الا يمكن عرضها على جراح ثان .
 - بالتأكيد ، اذا كنت ترغب في ذلك .. على آبي شخصيا لن أتبع الا
 رأي الدكتور باربلا .
- ومن يمكن استدعاؤه لرؤيتها ؟
 - الدكتور فالنتيني ؟
 - طبيب مستشفى ماكواري .. الذي ذهبت اليه من أجل التصوير
 بالأشعة .
- حسنا جدا .. اني اقدره كثيرا .. انت تعرف يا دكتور انسي لا
 يمكنني الانتظار ستة شهور .
 - بالتأكيد .. ورفع يده يريد ارتداء قبعته .. هل انت مشتاق الى
 هذا الحد ، للعودة الى القتال ؟
 - بالتأكيد ! ولم لا .
 - اتك فتى مدهش حقا من أصل نبيل ! ثم خطا مقتربا مني وانحني
 وقبلني في جيبني : - سأتصل بفالنتيني فورا لا تقلق وتضايق نفسك
 ساذهب لاستدعائه في الحال .
- ألا تأخذ كأسا من الوسكي ؟ !
 - لا شكرا فأنا لا احتسي الكحول ابدا .
 - فقط كأسا واحدا .. وقرعت الجرس اريد الحاجب لاحضار الاكواب ،
 ولكنه كرر . - لا .. اشكرك .. انهم ينتظروني .. وداعا .. وداعا .

بعد ساعتين حضر الدكتور فالنتيني ، جاء مسرعا وقد انتصب شارباه ،
 ولاحظت انه يضع على كتفه شارة الماجور ، اما وجهه وعينه فكانتا تضحكان
 دائما .

- كيف عرضت نفسك لهذا الشيء القدر .. دعني اتأمل الصور ..
 نعم نعم .. هي نفسها .. صحتك جيدة كالعنزة الشرسية .. ومن هذه
 الفتاة الرائعة .. هل هي فتاتك ؟ يظهر انها كذلك .. آه اليسست هذه حرب

دائمة قدرة؟ هنا ٠٠٠ كيف تحسن؟
٠٠ انك شاب طيب ٠٠ سأجعلها أفضل من الركبة السليمة وهنا ، هل
تؤلمك؟ فقط أحبوا ان يداعبوك ٠٠ هؤلاء الرملاء الطيبون ٠٠ ماذا صنعوا
لك؟ يظهر أن غناك لا تتكلم الايطالية؟
٠٠ ولكن ينبغي أن تتعلمها ٠٠ حقا انها جذابة جدا ٠٠٠ أنا مستعد
لتعلمها ٠٠ ومستعد أن أكون مريضا هنا ٠٠ في الغرفة ٠٠ لا ٠٠ بل أقوم
بكل ما يلزمك مجانا ٠٠ هل فهمت؟ ٠٠ والله لتنجين لك صبيا مدهشنا ٠٠
اشقر جذبا مثلها ٠٠ مثلها ٠٠ كم هي فائنة! ٠٠ حلوة كما يجب ٠٠ سلها
إذا كانت ترضى بتناول الغذاء معي ٠٠ لالا ٠٠ لن آخذها بعيدا عنك، اشكرك،
اشكرك كثيرا يا أنسة ٠٠ يكفي - يكفي ، هذا كل ما في الأمر - هذا كل ما
أريد معرفته ٠٠

وربت علي كتفي ٠٠ ابق بلا اربطة .

- هل تأخذ كأسا دكتور فالنتيني؟

- كأس وسكي؟ بالتأكيد! بالتأكيد! عشرة كؤوس ٠٠ اين هو؟
- في الخزانة ٠٠ الانسة باركلي ستحضر القارورة +

- نخبك ، نخبك ايها الانسة ، أنك صبية رائعة جدا ٠٠ سأحضر لك

مشروبا أفر من هذا ، ومسح شاربيه .

- متى تعتقد أنه بالإمكان اجراء العملية؟

- غدا صباحا ، لست اظن ان بالإمكان اجراءها قبل ذلك الوقت . يجب

ان تكون معدتك فارغة ، وجسديك نظيفا تماما ، سأقابل السيدة العجوز علي
كل حال ، وأعطيها تعليماتي ، وداعا ، غدا سارك ، وسأحضر لك وسكي من
نوع فاتر جدا ، انت مرتاح هنا؟ ٠٠ حتى صباح غد حاول ان تنام جيدا ٠٠
الى اللقاء غدا صباحا .

وغادر الغرفة وشارباه يتقدمانه منتصبين ٠٠ ووجهه الاصفر الشاحب

تملاه الابتسامة التي لا تفارقه ، وعلى كتفه تلتصق النجمة الفضية تشير الى
رتبته الرفيعة .

تلك الليلة ، دخل غرفتي ، من باب الشرفة المفتوح ، خفاش صغير ولم يخرج منها . كانت الغرفة مظلمة ، لا يضيئها الا انوار النجوم البعيدة المنتشرة ، وظل الخفاش يرفرف ويتنقل كأنه في العراء ، ومع ذلك استمررتنا في غناق حار ، وكل ظننا انه لا يلاحظنا . وبعد خروجه رأينا ضوء كشاف يجول في القرب ثم زال وعمت الظلمة كل شيء ، وهب نحونا نسيم بارد منعش ، حمل الينا صدى كلمات رجال المدفعية المضادة للطائرات ، المرابطين فوق احد السطوح ، قريبا منا .

وابترد الطقس زويدا زويدا * كنت قلنا اخشى صعود احد الى الغرفة ولكن كاترين اكدت لسي ان الجميع نيام ، على انه حدث بعد ان اغفينا معا ، ان اوقت فجأة ، فلم أجدعا بجانبى ، ثم سمعت الباب يفتح بطيئا ، ولمحتها تسترق الخطى للوصول الى مكانها ، وعندما احسنت اني يقظان قالت ، انها نزلت الى الطابق السفلي فرائ ان كل شيء على ما يرام ، وانها وقفت امام غرفة الانسة كامين فسمعت شخيره المتقطع ، وعندئذ احضرت كمية من اللوز وعادت على مهل *

التهمنا حبات اللوز ، وجرعنا كل ما في قارورة الوسكي ، كنت جالعا جدا ولكنها منعنتني من الافراط قائلة ان كل ما سأكله سيشاهد في معدتي صباحا ، اثناء العملية ، ولذلك عدت الى الاغراق في النوم ، وعندما استيقظت ثانية كان ضوء الشمس ساطعا ، فلم اجدعا بجانبى ، ولكنها دخلت بعد قليل وقد بدت اكثر روعة وجمالا منها في الليل *

جلست على طرف السرير ثم وضعت ميزان الحرارة في فمى ، بينما الشمس ترتفع نحو كبد السماء وغطر قطرات الندى يملا الجو ، تشوبها رائحة القهوة ، فائحة من اكواب رجال المدفعية على السطح المجاور *

- آه لو نستطيع الذهاب في نزهة قصيرة الآن .. وتنهدت *

- اني مستعدة لدفعك في عربة ، لو كان ذلك ممكنا *

- وكيف سأجلس في العربية ؟
- نتدبر الامر معا على كل حال .
- نستطيع الذهاب الى الحديقة ، ونناول فطورنا في العراء .
- ما .. والعملية ! .. ينبغي تهيئتك قبل كل شيء .. فحالا سيجي .
- صديقك الدكتور ..

- اظن انه رجل ماهر .
- لم احبه بالقدر الذي شعرت به انت ، ولكني اعتقد انه طبيب ماهر
- مهما يكن من امره ، تعالي الى السرير الآن ..
- يكفي ، ألم نقض ليلة ممتعة ؟
- وهل ستكون هذه الليلة في الخدمة ايضا ؟
- من المحتمل ذلك ، ولكن انت لا تريدني هذه الليلة !
- بلى أريدك .
- لا ، أنت لا تريدني ، لم يسبق لك ان اجريت عملية جراحية .
- على كل حال ، سأكون على ما يرام ..
- ستكون مريضا ولن اكون ذا نفع لك ..
- اذا تعالي الآن ، تعالي ا ارجوك .
- سأسوق الغرفة يا عزيزي ، وأهينك كما يجب .
- انت في الحقيقة لا تحبينني والا أسرعت الى السرير .
- كم أنت فتى مزعج ، وانحتت ثقبيني ، شددتها الى قلبي .
- يكفي الآن عنقا ، دائما حرارتك ممتازة .
- ولكن أنت كل شيء ممتاز .
- ها ، لا أنت دائما حرارتك مرتفعة .
- ربما كل اطفالنا ستكون حرارتهم مثالية .
- اطفالنا !
- والآن ماذا تفعلين لتهيئتي ؟
- ليس كثيرا ، ولكن قد يضايقك .
- أتمنى أن لا تفعلني شيئا .
- لا أستطيع ، لا اريد احدا غيري يضع يده عليك ، حتى ولا ان يلمسك ، أنني عصبية مجنونة .

- حتى ولا فيركوسن !
- خصوصا فيركوسن ، وكاج والاخر .
- نعم ، يوجد ممرضات كثيرات الان .
- قد يصل ممرضى جدد .
- لا ! الظاهر ان ممرضى كثيرون سيصلون ، وهم بحاجة الى ممرضات دائما ، فالنستشفى واسع جدا .
- ارجو ان يكون الامر كذلك .
- وانا ساعاادر ايضا .
- لا تكن احمقى ، فلن تستطيع ذلك الان ، ولكن تحسنى بسرعة وعندما سندهب الى اى مكان .
- وبعد ذلك ؟
- لربما انتهت الحرب ، فهي لا يمكن ان تستمر !
- سوف التحسن ، لقد اكد لي ذلك فاللنتيني .
- يستطيع بشاربيه الطويلين . ويا عزيزي عندما يبدأ التخدير ، انتبه !
- فكر في أشياء اخرى .
- بماذا سافكر اذا ؟
- باي شيء . . . أي شيء غيرنا .
- لا .
- اذن ردد الصلاة ، فقد يكون لها تأثير طيب .
- ومن الممكن أن لا أهدي ابدا .
- يجوز ذلك فقلما يحدث الهديان .
- اذن لن أهدي . . .
- ولكن لا تغتر بنفسك هكذا ، انت تعرف انك لست بحاجة الى القور فقط . ابدا بتريد الصلاة او باستظهار بعض قصائد الشعر او أي شيء بعيد ، آه ، عندما سامرنك بالتنفس سيكون منطرك جدا ، وسأكون فخورة بك ، أنت تملك حرارة ممتازة ، وتنام بربنا كالطفل ، وذراعك حول الوسادة ، تظنها انا أو آية فتاة اخرى .
- لا أنت فقط !
- طبعا انا ، اه كم احبك يا عزيزي . . . وقاللنتيني سيصنع لك ساقا

- جيدة • انني مسرورة ، ولكنني لا أرغب حضور العملية •
- وستكونين هذه الليلة في الخدمة •
- نعم • ولكن هذا لن يفيدك شيئا •
- سنرى •
- والان يا عزيزي ، لقد عدوت نظيفا كما يجب • اخبرني ، كم فتاة
أحببت في حياتك ؟
- ولا واحدة •
- ابدا ! حتى انا ؟
- فقط انت •
- كم واحدة أخرى ؟ قل الحقيقة !
- ولا واحدة •
- لا ، انك تكذب علي •
- تلك هي الحقيقة •
- حسنا ، استمر في الكذب علي •
- لم أحب ابدا •
- حسنا ، هل كن جذابات •
- لا أعرف شيئا عن تسالين •
- أنت فقط لي وحدي ، تلك الحقيقة • اخبرني ماذا تفعل المرأة لو
أحبت شخصا ما ؟
- لا أدري •
- هل تصارحه بحبها ، اخبرني ارجوك ، أريد ان أعرف ؟
- نعم ، اذا اراد هو ذلك ؟
- وهل يصارحها هو بحبه ؟ قل لي ، امر مهم بالنسبة لي •
- نعم ، اذا اراد هو ايضا •
- ولكن أنت لم تفعل ذلك ! هل فعلت ؟
- لا •
- انك لا تصدقني القول ، ارجوك اخبرني الحقيقة •
- انني اكذب •
- لا ، أنت لا تستطيع ، أنت لا تكذب علي ، انا اعرف انك لا تستطيع
- الكذب علي ، اني احبك يا عزيزي • اذا تقول ما يريد لها هو ان تعلن •
- ليس دائما •

- ولكنني سأفعل ذلك دائما ، سأقول تماما ما تريده مني ، وعندها لن
تحب احدا غيري ، هل ستحب ؟
ونظرت الي سعيدة :
- سأعمل ما تريد ، وأقول ما تريده .
- نعم .
- وماذا تريدني الان ان افعل ؟ لقد اصبح كل شيء جاهزا لحضور
الطبيب .

- تعالي الي السرير .
- حسنا ساجي .
- آه يا حبيبتي . . .
- هل رأيت ، اني لا آكون الا كما تريدني .
- انك رائحة !
- لست ارجب في شيء سوى ما يسرك .
- انك مدهشة !
- انا مدهشة ، اليس كذلك لن تحب فتاة غيري هل ستحب ؟
- لا .
- هل رأيت كم انا مطيعة ، افعل ما تشاء .

أفقت بعد العملية وكان شيئا لم يحدث ، لم يكن البنج موتا كما
تصورته ، ورأيت انهم وضعوا اكياسا صغيرة مملوءة زملا عند اطراف السرير ،
وفيما انا احاول استذكار حوادث الساعات القليلة الماضية ، دخلت الغرفة
الانسة كاج ، وسالنتني :

- كيف تشعر الان ؟
- احسن من الامس
- لقد قام بعملية عجيبة في ركبتيك !
- وكم من الوقت استغرقت ؟
- ساعتان ونصف .
- هل هذيت ؟
- ابدا ، لم تنبس بكلمة واحدة ، بل ظللت هادئا .

كان قد حل في المستشفى مريضان آخران ، أحدهما شاب نحيل من العاملين في منظمة الصليب الأحمر ، مصاب بالمalaria ، والثاني فتى لطيف المعشر ، أميركي أيضا من ولاية نيويورك ، أصيب كذلك بحمى الملاريا المنتشرة ، ثم جيء بمريض ثالث ، كانت قد انفجرت بين يديه قنبلة صغيرة ، وهو يحاول احكام وضعها ، وقد استطاعت كاترين كسب ثقة الثلاثة ، فلم يكن عملها مع الاولين ليشغل من خدمتها الليلية قسما يذكر .

اما المريض الثالث فقد غدا صديقا لنا وقلل من قرع الجرس الا في الحالات الاضطرارية ، وكذلك الامر مع المرضات ، فانهن جميعا كن سعيدات لان كاترين خصصت نفسها بالخدمة الليلية ، ومنحتهن فرصة طيبة للراحة والنوم . ومع انه قد طلب الي الاخلاء الي السكنينة في معظم الوقت ، الا انني كنت اكنفي بساعات النهار للنوم واشارك كاترين في اليقظة طيلة ساعات الليل ، حتى في بعض اوقات اليقظة كنا نكتب لبعضنا رسائل قصيرة نحملها لغيركوسن الفتاة الطيبة . والتي لم اعرف عنها شيئا سوى ان لها اخا في الفرقة الثانية والخمسين ، وآخر ميسو بوتاميا ، وانها فوق كل ذلك كانت على علاقة حسنة جدا مع كاترين ، مخصصة لها كل الاخلاص .

وقد اتفق ان سألتهما ذات يوم .

- هل ستحضرين حفلة زواجنا يا فاركي .

- انتما لن تتزوجا .

- بلى سوف نتزوج .

- لا ، لن نتزوجا .

- ولم لا ؟

- ستختلفان قبل زواجكما .

- لا ، لم تختلف ابدا حتى اليوم .

- ولكن ما زال امامكما متسع من الوقت .

- ومع ذلك فلن نختلف .

- اذن سيموت حبكما ، اما ان تختلفا او يموت حبكما ، هذا ما سيحدث

دائما ، دون ان يتم الزواج .

فاقتربت منها ومددت يدي محاولا ان اضعها في يدها ولكنها حدثتني :

- لا تلمسني ، فاننا لا نستعطفك ، ولكن لا تنسب لها المتاعب .

- لن اسبب لها المتاعب ابدا .

- حسنا ، انتبه على كل حال ، وانا ارجو لكما حظا سعيدا . . . قامامك

فرصة طيبة •

- حقا ، ان امامنا وقتنا سعيينا •
- لا تتساجرا اذا ولا توقعها في مازق !
- سافعل كما تشائين •
- هل فهمت ؟
- انك فتاة رائعة يا فاركي •
- لا لست رائعة ، لا تحاول ان تتملقني ، كيف تحسن بساقتك ؟
- حسنة •
- ورأسك ؟
- ولست قمته بأصابعها • كان حساسا كقدم أصابها التخدير •
- انه لا يؤلمني ابدا
- قنبلة كتلك كافية لتذهب بعقلك ، وتقول انها لا تؤلمك ؟
- لا •
- اذا انت حسن الحظ ، هل كتبت الرسالة ؟
- عا هي •
- ينبغي ان تدعها ترتاح من الخدمة الليلية ، لقد أضحت مرهقة جدا •
- سافعل ذلك •
- حاولت ان اقوم بها بدلا منها ولكنها رفضت • ينبغي ان تدعها ترتاح •
- سافعل ذلك ، كما تشائين •
- لقد سمعت الانسة كامين تتحدث كيف انك تظل طول ساعات النهار
- نائما •
- هل حقا تحدثت بذلك ؟
- ولذلك من الأفضل ان تدعها خارج الخدمة الليلية فترة قصيرة •
- انا شخصا أرغب في هذا الامر •
- لا ، انت لا ترعب ، ولكنك اذا سمحت لها ، فسأقدر ذلك منك •
- ثقي بأني سافعل ما تشائين • - لا اصدقك •
- واخذت الرسالة وانصرفت ، فقرعت الجرس وحالا دخلت الانسة كاج
- ماذا تريد ؟
- فقط أريد ان أتحدث معك ؟
- ماذا ؟

- ألا تعتقدان ان الانسة باركلي أرهقت من جراء عمل الليل ؟
- فنظرت في عيني .
- اني صديقتك ، فليست بحاجة لتحديثي بهذه الطريقة .
- ماذا تقصدين ؟
- لا تدعي الغباء !
- هل تريدان وسكي ؟
- طبعاً ، ثم ينبغي ان انصرف .
- وأخرجت القارورة من الخزانة ، جالية الكاس معها ، فبادرتها :
- اشربي من الكاس وسأحتسي أنا من فوطة القارورة .
- لا تأخذ الكاس لك .
- ماذا تقول الانسة كامين حول بقائي نائماً معظم ساعات النهار ؟
- انها فقط تبتسم ، وتدعوك بمريضنا المدلل .
- لياخذها الشيطان .
- انها ليست حسودة ، بل ثرثرة ، ولا تحبك ابداً .
- ابداً ؟
- انا أحبك على كل حال ، وانا صديقتك ، لا تنس ذلك .
- انا رائعة للغاية !
- لا ، انا أعرف من تكون الرائعة للغاية ، كيف هي ساقك ؟
- حسنة .
- سأجلب بعض الماء المعدني لاسكب فوقها ، لا بد انها تؤلمك فالطقس حار جداً .
- هل تؤلمك كثيراً ؟
- لا ، أظن انها تتحسن .
- سأثبت وضع اكياس الرمل .
- وانحتت فوق السرير .
- انا صديقتك .
- أعرف ذلك .
- لا ، أنت لا تعرف . ولكن ستعرف ذلك يوماً ما .
- توقفت كاترين عن العمل مدة ثلاثة ايام ، ثم استأنفت خدمتها ، فشعر كل منا كما لو ان الآخر قد فارقه في رحلة طويلة بعيدة .

مضى علينا صيف ذلك العام كأجمل ما تكون الايام ، اشتدت قواي
وصار بوسعي مغادرة السرير ، فكنا نمتطي العربة ، وتجوول في انحاء المدينة ؛
ما زالت صورة العربة عالقة في ذاكرتي الى اليوم ، اني اتذكرها والحصان
يجرها بطيئا متهاديا ، وخلف السائق ذي القبعة الطويلة جلست كاترين
باركابي الى جانبي ، اذا ما لمست يدها أطراف يدي ، كنا نرتعش ويخفق
قلباننا .

وفيما بعد ، عندما أصبح بوسعي المشي ، معتمدا على العكاز ، صرنا
نذهب لتناول العشاء في صالة بافي اوكراند ايطالي ، ونجلس الى الطاولة في
الحديقة الواسعة ، والخدم من حولنا يروحون ويحيثون ، والناس قد
اصطحب كل صديقه او عائلته ، وعلى المناضد ، فوق الاغطية البيضاء
النظيفة المتبدلية جوانبها ، تشع مصابيح ذات ظلال ساحرة .

وبعد ان وثقنا من كون صالة كراندي ايطالي هي الفضلى ، طلبنا الى
جورج رئيس الخدم ، أن يجز لنا مسبقا ، عند كل مساء ، المنضدة التي
اخترنا الجلوس اليها .

كان جورج شابا أنيقا ، طيب السريرة ، نظيف اللسان ، فتركناه
ينتقي لنا صنوف الطعام والشراب ، بعد ان كنا قد تذوقنا جميعها ، وحدث
مرة ان نفدت مني النقود ، فتقدم واقترضني مائة لير قائلا :

— لا بأس عليك ايها اللبوتنان . . . ليس هذا أمرا مستغربا . فكثيرا ما
تنفد الدراهم من زبائننا ، واقترضهم ما يشاؤون . وعلى كل حال ، في أي
وقت تحتاج فيه الى نقود ، انت او السيدة ، فلا تحجما ابدا عن الطلب مني ،
اني أحمل دائما نقودا كثيرة .

بعد العشاء ، كنا نتدرج على رصيف الشارع ، متأملين زبائن الصالات

الآخري ، وواجهات المحلات الكبيرة •

وأحيانا نتوقف عند بائعي السندوبش ، نلتهم بعضها ، وأخيرا نستقل عربة من نهاية الشارع مقابل الكاتدرائية ، فتوصلنا الى المستشفى ، وهناك عند المدخل يسرع الحاجب ليساعدني على النزول ثم انقد السائق ونتجه كلانا الى المصعد •

فتنزل كاترين في الطابق الاول حيث تنام الممرضات بينما اتابع انا الى الطابق الرابع • واستند على عكازي للوصول الى غرفتي عبر الرواق الطويل • فأتزغ ثيابي ، واستلقي على السرير ، او اجلس في الشرفة ، اراقب السنونو بانتظار مجيء كاترين •

وعند وصولها احس كأنها عائدة من رحلة طويلة ، فانفض لرافقتها في تفقد غرف المرضى ، انظر خارج الابواب ، او ادخل معها حسبما تكون علاقة المريض معنا •

وبعد ان تنهي كل ما عليها ، تعود الى الجلوس في الشرفة ، خارج غرفتي ، ثم انهض انا نحو السرير ، ويكون الجميع قد اغرقوا في النوم قبلي ، فتتبعني وتصعد الى السرير قربي ، فاخذ بمداعبة شعرها باناملني ، نازعا الدبابيس من بين ثنياه ، بينما تبقى هي ساكنة صامتة بلا حراك •

وفجأة تخفض رأسها وتقبل صدري واستمر انا في نزع الدبابيس ووضعها فوق الغطاء الابيض ، وعندما يتهدل كل شعرها ادخل رأسي تحته وانظر في عينيها وتحس كأننا في جوف خيمة معتمة او عند قاع واد سحيق ويعترينا شعور غريب من الاحساس •

كان شعرها جميلا جدا ، وكنت احيانا استمر في دس انفي بين ثنياه ، او اروح اتمله وهي تجدله في الضوء الآتي من باب الشرفة المفتوح ، فينعكس عليه مشعا كما تتلالا قطرات الماء عند بزوغ الفجر •

اما جسدها فكان يضنا ذا بشرة ناعمة ملساء ، وكثيرا ما كنت أبقبها بين يدي ساعات كاملة ، امرر يدي على وجنتيها وفوق رقبتها وتحث ثدييها فتعزني نعومتها واصيح بها :

— انك ناعمة ملساء كمفاتيح الببانو •

فتصنع ذقتي باصابعها :

- ملساء كالحرير ، ولكنك قاس على مفاتيح البيانو .
- هل حقا ما تقولين ؟
- لا يا عزيزي ، انما اريد مداعبتك .

• • •

وهكذا مضت ايام الصيف، سعيدة حافلة قبلاضافة الى ساعات الوصال الطويلة المديدة ، المليئة بالمتعة الرائعة ، كنا نتواصل بأساليب اخرى عديدة وذلك طوال ساعات النهار ، فقد كان كل منا يحاول ان يشعر حبيبه انه دائما يذكره يفكر فيه ويتوق اليه .

كنا نعتبر نفسيينا زوجين حقيقيين منذ اليوم الاول الذي قدمت فيه الى ميلان ، وصرنا نعد الشهور التي هرت على ذلك اليوم ، ولقد غدوت راغبا حقا في الزواج منها ، ولكنها كانت تمنع في ذلك ، خشية ان يطبق القانون المدني بحقها فيوقفها عن العمل ، ويعيدها الى بريطانيا . على ان رغبتني في الزواج كانت تستمد لحنيني الزائد في ان أنجب طفلا ، وكم تحرق فؤادي كلما عن لي خاطر صيرورتي ابا ذات يوم .

ومع ذلك ظللنا نفتح نفسيينا باننا متزوجان عمليا ، دون ان ينقص فقداننا للصيغة القانونية شيئا من سعادتنا وهنائنا . واطن اني كنت مسرورا بذلك في قرارة نفسي ، واذكر اني تحدثت الى كاترين في هذا الموضوع فاجابتنني :

- ولكنهم يا عزيزي سيعدوني و...
- ربما لن يفعلوا ذلك .
- بلى ، سيعدونني الى انجلترا !
- سأطلب فرصتي السنوية واتبعك .

- لن تستطيع القدوم الى اسكتلنده والعودة منها خلال فرصتك ، على ان الاعم من ذلك كله اني لا ارضى بمفارقتك ابدا ، واية فائدة تجنيها من الزواج الآن ؟ نحن في الحقيقة متزوجان اهل يمكن ان يتيح لنا الزواج اكثر من ذلك ؟

- اريد ذلك من اجلك .
- ليس هناك شيء من اجلي ، فانا انت لا تعتبرني متفصلة عنك ، نحن وحدة واحدة .

- كنت اظن ان الفتيات يصرون على الزواج ؟
- نعم يصرون ، ولكني متزوجة منك ! الا اقوم بواجبي كزوجة كاملة ؟
- بلى ! انك زوجة ممتازة .
- وانت تعرف ان هناك عائقا يمنعني من الزواج .
- نعم ! لا اريد سماع شيء عنه .
- ولم اكن لاحب لولا انت ، واطنك لن تتضايق لكون غيرك قد احبتي .
- بلى اتضايق كثيرا .
- لكن ليس من حقك ان تحسد انسانا قد مات ، بينما انت تملك
- الآن كل شيء .

- على اني لا اريد سماع شيء عنه !
- آه يا حبيبي ، هل تأملت كثيرا ، رغم اني اعرف انك عاشرت العديد
- من الفتيات ومع ذلك فانا لا ابالي ابدا .

- الا تستطيع الزواج ولو بطريقة خاصة ؟ حتى اذا وقع لي حادث
- او انجبت انت طفلا تكون قد ..

- زواجنا هذا هو الطريقة الخاصة ، وليس غيره الا طريق الكنيسة
- او الزواج المدني .

- .. وكما ترى يا عزيزي ، لو ان في نفسي شيء من الايمان بالدين ،
- لاختلف الامر ، لكن لا اثر من الدين في نفسي .

- والقديس انطونيوس ، ألم تعطني اياه ؟
- من اجل البركة ، قدمه لي احدهم .
- اذا انت مطمئنة الى زواجنا الحالي ؟
- فقط ان ابقي بجانبك ، انت معبودي .
- حسنا ، سأترجك في اليوم الذي تريدينه .
- لماذا تتكلم هكذا ، انني امرأة شريفة مخلصه ، وليس من حقك احتقار
- امرأة انت سعيدة معها فخور بها ، الست سعيدة معي ؟

- شرط ان لا تتركيني الى غيري ابدا ؟
- ابدا يا عزيزي لن اتركك ، لا كن مطمئنا ، لا تقلق .
- لست قلقا ، ولكني احبك ، بينما انت احببت رجلا قبلي . ولكن
- ماذا حدث له ؟

• مات •

• حسنا ، ولو لم يممت لما كنت رأيتني ، فأنا لست خائفة يا عزيزي ،
عندي كثير من الاخطاء ولكني مخلصه جدا ، وغدا ستضيق ذرعا من شدة
اخلاصي •

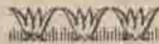
• ساعود الى الجبهة في القريب العاجل •
• ولماذا تفكر في ذلك قبل الاوان ؟ انت ترى كم انا سعيدة ، ونحن
نقضي اياما حلوة •

•• قد عشت بائسة مهمومة زمنا ليس بالقصير ، ويوم عرفتك كنت في
حالة اقرب الى الجنون ، ولكننا الآن سعيدان نحب بعضنا بعضا ، فأرجوك
ان تدعنا نرتع في هذه السعادة •

انت سعيدة ألسنت كذلك ؟ هل هناك أي شيء أفعله ولا يرضيك ؟ هل
باستطاعتني عمل أي شيء يمكن ان يجلب لك السعادة ؟ هل تريد ان اهدل
شعري ؟ هل تريد أن أرقص ؟

• نعم ، تعالي السرير •

• حسنا ، سأذهب لتفقد المرضي اولا •



وعلى هذه الوتيرة ، مضى صيف ذلك العام ، ولست أذكر من حوادثه
الآخري سوى حرارة الطقس ، وأخبار الانتصارات الكثيرة التي كانت ترددها
الصحف .

كانت صحتي في تقدم مستمر ، وجراحي تندمل بسرعة ، ولم يمض
وقت طويل حتى استبدلت العكاز بالعصا ، ثم شرعت في تدريب ركبتي ،
بواسطة الأشعة والحمام الساخن ، على الثني والفرد ، في مستشفى ماكواري .
فكنت أذهب إليها بعد ظهر كل يوم .

وبعد الانتهاء اجلس قليلا لقراءة الصحف في إحدى المقاهي المجاورة ،
ثم انهضت وتوجهت إلى المستشفى ، وكل ما ابتغيه رؤية كاترين باركلي .
وأما ما تبقى من وقتي ، ولا سيما في فترة الصباح ، كنت أحاول قتله
بالنوم أو الجلوس في الحديقة ، وأخيرا أخرج لمشاهدة المباريات أو لزيارة
النادي الانجلو - أميركي حيث اطالع ما أود من الصحف والمجلات .

كان الوقت الذي نعمنا أثناءه بالخروج سووية في الامسيات ، قد ولى ،
ولم يتج لنا بعد ان استبدلت العكاز بالعصا ، ان نرتع في شوارع ميلان
وصالاتها ، متأبطين ذراعي بعضنا ، اذ كان من العار على ممرضة شابة ، ان
ترى منفردة مع مريض ليس فيه ما يدل على حاجته للمساعدة ، وهكذا
اصبحتنا نرتقب اليوم الذي تتكرر فيه الانسة فيركوسن ، فنثوب عن كاترين
في عملها المسائي وتمكننا بذلك من تناول العشاء خارجا .

أما الانسة فان كامين رئيسة المرضعات ، فقد تظاهرت باقتناعها أننا
صديقان حميمان ، على ان تستمر كاترين في تخفيف الكثير من اعبائها، هذا
بالإضافة الى انها كانت تعتقد بأن كاترين سليلة بيت عريق ، الامر الذي

تعتبره كثيرا ، سيما وانها تؤكد دائما انها منحدره من أعرق عائلات اوربا .

• • •

كان الصيف حارا ، وبالرغم من معارفي الكثيرين في ميلان ، الا اني كنت دائما احن الى العودة الى المستشفى فور انتهاء عملي .

اما في الجبهة فكان جنودنا يتقدمون في منطقة كارسو ، محتلين بلدة كوك ، شمال بلانا ، كما انتزعوا عضبة بانسيزا . ومع ذلك فقد كان واقع القتال يشعر بأن الحرب ستستمر طويلا ، وحتى لو تقدم جنودنا الى ما وراء السنسيزا ، وجبل سانت جبريل ، فسيمقي امامهم جبال شاهقة اخرى ، لا بد من الاستيلاء عليها قبل بلوغ النمسا .

لقد سحق نابليون التمساريين ، بعد ان استدرجهم الى الاراضي السهلية المتبسطة ، ولم يحاربهم في الجبال ابدا ، بل تركهم يتبعونه حتى سهل فيرونا وهناك كالمهم الضربات القاصمة ، وقضى عليهم قضاء مبرما .

اما اليوم ، فالحالة تختلف كثيرا ، ولم يتمكن احد الفريقين من سحق عدوه كان الحروب لم يعد بالامكان كسبها ، أو كانها ستظل مشتعلة حارقة الى الابد ، أو وربما هي حرب مائة سنة اخرى .

وعندما بلغ التفكير مني هذه الدوحة ، وكنت اطلع اخبار الميدان ، في النادي الانجلو - اميركي ، القيت بالصحيفة جانبا ، وغادرت المقر باتجاه شارع مانزوني الكبير ، وهناك امام واجهة الكراندا اوتيل ، التقيت بالسيد مايرس وزوجته العجوز عاندين من حفلات سباق الخيل .

كان السيد مايرس رجلا قصير القامة ، ضئيل الحجم ، بلغ من العمر عتيا ، يمشي متكئا على عصاه ، اما زوجته فامرأة سميئة ترندي لباسا اسود اللون . وعندما لمحتني ارتفع صوتها الاجش : - كيف حالك ؟

فحييتها ، وسألت الزوج عن حظه في المباريات اليوم فاجابني ضاحكا :

- رائع ! لقد ربحت ثلاث مرهفات ، لماذا لا تزورنا ؟

- سأزورك في القريب .

فقالت السيدة مايرس :

- كنت قادمة لرؤيتكم في المستشفى ، انتم يا اولادي المرضى ، عندي
اشياء لكم .

- سيكونون سعيدين برؤيتك .

- اولئك الاولاد الاعزاء ! وانت اولهم ، أنت اعزهم على قلبي ! كم أنا
مشتاقة لهم .

- وداعا .

- وداعا . . . بلغ تحياتي للجميع ، عندي اشياء كثيرة لكم . . . كعك
ورسوم وقبعات و . . .

- سنكون سعيدين جدا بزيارتك ، الى اللقاء .

وتابعت طريقي ، وحين بلغت الكوفا توقفت طويلا كي ابتاع هدية
لكاترين ولكنني شاهدت حول احدى المناضد في الحديقة ، نائب القنصل
الاميركي ، بصحبة بعض العسكريين .

كانوا يتحدثون عن الفروق الشاسعة بين الراتب في الجيشين الاميركي
والايطالي ، وكان احدهم اينور ، ينتظر ترقيةه الى رتبة كابتن ، نظرا لبسالته
واقدامه كما يقول . فرجوت له حظا طيبا واوصيته بالحرص على نفسه ،
ولكنه اجابني : لا تكون قلقا من ناحيتي ، اطمئن ، فانا لا اتعاطى الخمره
ولا اعاكس الفتيات ، ولست احمق متهورا ، انني اعرف ما يعود علي
بالخير وكل صبي ، هذه الايام هو كسب الحرب .

- الى اللقاء وحظا سعيدا .

- الى اللقاء . . . متى ستعود الى الجبهة ؟

- قريبا جدا .

- حسنا ، سارك على كل حال ، ولكن انتبه لا ترضى بالوسام
البرونزي .

فهرزت رأسي ، ودفعت قدمي اماما ازيد الوصول الى المستشفى .
كان اينور في الثالثة والعشرين من عمره ، نشأ في رعاية عمه في
سان فرنسيسكو ، وعندما نشبت الحرب ، كان في زيارة والديه في
تورنتو بايطاليا ، فالتحق بالجيش ، وخاض المعارك في صفوفه ، وكانت
له شقيقة ، نشأت معه في سان فرنسيسكو ، برعاية عمها ، واطنبا اليوم
في السنة النهائية في المدرسة الثانوية هناك .

اما ايتور فكان شابا شجاعا جريئا ، ولكنه يتصرف بالثرثرة الدائمة ،
وبمضايقة كل من يجتمع به او يستمع لحديثه ، او حتى يلقاه في الطريق
ولو عرضا .

ولم تستطع كاترين احتمال معشره ، واجابتني وانا اقص عليها
وقال لي يومي :

- عندنا شجمان ايضا ، ولكنهم يا عزيزي ، اقل تبجعا وأخف ظلا .
- انا لا الومة .

- وأنا لا اعتب عليه ، لولا انه مغرور جدا ، ويضايقني كثيرا ،
ويستمر في مضايقته دونما توقف .

- انه يضايقني كذلك !

- كم انت رائع لقولك هذا ، انه مثال الرجل الذي لا احفل به ولا أجد
دافعا للاهتمام بأمره ، رغم تحققي من فائدته في الحرب ، وتصوري لحماسه
واندفاعه بالجهة .

- اني اعرف ذلك . . .

- وانك لعظيم جدا لانك تعرف .

- قال انهم هذا المساء سيقلدونه رتبة كابتن .

- حسنا ، ذلك ما يسره كثيرا .

- وانت لا تسرين اذا ما تقلدت رتبة أعلى .

- لا يا عزيزي ، فقط أريدك تقلد الرتبة التي تمكننا من ارتياد مطاعم

الدرجة الاولى .

- انها الرتبة نفسها التي احملها الآن .

- رتبك ممتازة اذا ، ولست أريدك تقلد رتبة اعلى ، لئلا تزيد

كبرياءه ، أه يا عزيزي ، كم انا سعيدة لكونك عديم الغرور على اني ستزوج
بك حتى ولو كنت مغرورا ولكن الحقيقة ان الزواج من رجل مغرور امر خاسر
تماما .

كنا نتكلم ونحن في الشرفة ، والقمر يصعد نحو كبد السماء
والضباب يملأ الجو من حولنا وشعرت كأن مطرا يوشك ان يهطل ، فدخلنا
الغرفة .

- ومن رأيت غير ايتور وجماعته ؟

- السيدة والسيد مايرس .

- ذاك الزوجين الغريبي الاطوار !
 - يظهر انه قضى زمنا طويلا في السجن ، ثم اطلقوا سراخه كي يموت
 حرا طليقا ..
- وهو يعيش سعيدا في ميلان ، ينتظر نهايته .
 - ولكني لا افهم ماهية سعادته ؟
 - بخلاصه من حياة السجن كما يتراءى لي .
 - زوجته ستجلب لنا مجموعة من الهدايا .
 - اشياء فاخرة بالطبع ! ألم تدعك ابنتها ؟
 - أحد ابنائها .
 - انتم جميعا ابناؤما الاعزاء .. أظنها بدأت تمطر .
 - بغرابة .
 - وانت دائما ستحبني اليس كذلك ؟
 - نعم .
 - والمطر لن يغير شيئا ؟
 - لا .
 - حسنا .. اني اخاف المطر .
 - لماذا ؟
 - لا أدري يا حبيبي .
 - أما أنا فأحبه .
 - ازغب في السير تحت نقاطه ولكنه مخيف جدا في ..
 - أنا أحبك دائما .
 - وأنا أحبك في المطر وفي الثلج وفي البرد وفي .. أي مكان تريد ؟
 - لا أدري ، أظن اني تعس .
 - اذهب الى سريرك يا عزيزي .
 - أنت لست خائفة في الحقيقة من المطر .
 - لا ، عندما أكون معك .
 - ولماذا تخافينه ؟ - لا ادري . - أخبريني .
 - لا تضطرنني اضطرارا - أخبريني . - لا . - أخبريني .
 - حسنا ، اني اخاف المطر لانه يتراءى لي احيانا اني اموت تحت
 رشاشه .

- لا - . واحيانا اراك انت تموت تحت رشاشه .

- هذا اكثر احتمالا .

- لا ، لن يكون كذلك يا حبيبي لاني لا استطيع المحافظة عليك ، انسا
واثقة اني استطيع ، ولكن لا يستطيع احد المحافظة على نفسه وحيدا .

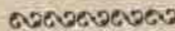
- ارجوك الكف عن هذا الحديث ، فانا لا اريدك هذه اللييلة ،
اسكتلندية مجنونة ، سيما وانه لم يعد هناك متسع من الوقت امامنا ، فقريبا
سأسافر الى الجبهة .

- اذن ساصمت ، كله كلام هراء .

- نعم انه كلام هراء .

- كله كلام هراء . . . انا لا اخاف المطر ، يا الهي . . . ليتني لم اكن
كذلك . . . ليتني . . .

وشبهت باكية . . . فاسرعت وضممتها الى صدري ، ولكنها استمرت
تبكي . . . بينما ازداد صوت المطار خارجا حدة وصريرا .



اقترح علينا كورويل روجرز المريض في المستشفى ، وجريح قنبلة
الهاون ، ان تذهب في احدى الامسيات لمشاهدة سباق الخيل ، الذي كان
يجري عادة على ملعب سان سيرو ، فطربنا جميعا للفكرة ، وراحت كاترين
وفيركوسن ، تعدان نفسيهما لمرافقتنا .

وبالرغم من ان كورويل لم يكن من المولعين بهذه اللعبة ، الا انه كان
دائما يتابع قراءة صحف السباق ، ويتسقط اخبار الخيل الرابحة لغاية قسي
نفسه ، لم اكتشف كتبها .

كان النهار مشرقا ، ودرجت بنا العربة ، خلال وسط المدينة فالضاحية
القريبة ، حيث ابنتي اغنياء ميلان قصورهم الفخمة ، تحيطها الحدائق
المسيحة الغناء وتخللها قنوات المياه الجارية ، والينابيع الكثيرة المنشرة .
وعندما بلغنا حقل السباق المسور ، فتح لنا الحارس مصراعي البوابة ،
وسمح لنا بالدخول بعد ان لمح لباسنا العسكري ، دون ان يطلب الينا دفع
رسوم ما ، نرجلنا من العربة ، واتجهنا صوب المدارج ، نحتل مقاعدنا .

كان كل من في الداخل ، منهمكا في انتقاء اسم الحصان التي سيراهن
على فوزه ، بينما قاد السواس « السائسون » افراد الخيل المتبارية ، واحدا
اثر واحد ، امام اعين النظارة ، وانتفى كورويل من بينها حصانا اسود اللون ،
قائلا انه يؤكد عدم طبيعية ذلك اللون ، الشديد السواد ، وانه من فعل
صياغ معين ، فوافقته كاترين على رايه ، واثقة هي الاخرى في ذلك ،
بينما اعلنت فيركوسن عن جهلها في هذا الموضوع ، اما انا فادعيت ان في
المسألة نظرا ، وان الامر يدعو الى الشك . الا اننا في النهاية ، اتفقنا جميعا
على المراهنة باسمه ، واسرع كورويل فابتاع الاوراق المطلوبة ، ومنها عرفنا
ان فائده ستكون ٣٥ لير مقابل اللير الواحد في حال فوزه . وهذا ما تم
فعلا ، اذ جاء الاول بين الخيول المتبارية ، فسرت كاترين وقالت بصوت
الفائز النشوان :

- اذن سنكسب ما يزيد على ثلاثة الاف لير .
- فقط اذا لم يتغير لونه قبل ان نقبض الثمن . اجابها كورويل ، ولكنها اردفت :
- انه حقا حصان جذاب . لا ادري اذا كان السيد مايرس قد راهن باسمه ايضا .
- وكان هذا الاخير يجلس بالقرب مني فناديتنه :
- هل ربحت ؟ فهز برأسه نعم .
- اما انا فلا . . . صاحت السيدة مايرس . . . وانتم يا اولادي ، اي حصان اخترتم ؟
- جابلك . . . الرابع .
- احقا ذلك ؟ سيعطي ٣٥ مقابل لير واحد .
- لقد احببنا لونه .
- على خلافي انا .
- ولكنهم لن يدفعوا هذا المبلغ ، اعترض السيد مايرس .
- كيف لا ؟ لقد سجلوا ذلك الرقم مقابل اسمه ؟
- ومع ذلك لن يدفعوه . . . الكثيرون تراهنوا عليه .
- اوافق انت ؟
- نعم ، السيد كمبتون وزوجته . . . و . . . لن يدفعوا اكثر من ليرين مقابل واحد .
- وعندها صاحت كاترين :
- اذا لن نحصل على الثلاثة الاف لير !
- هذا ليس عدلا ، هذا تزوير .
- ولكنك ستقبضين مائتي لير !
- مبلغ لا قيمة له ، لقد حسبت اننا سنقبض ثلاثة الاف ليرة !
- هذا تحيز واضح ! علقت فيركوسن .
- طبعا تحيز واضح ! تابعت كاترين ، ثم التفتت نحوي ناهضة .
- فنهضت وامسكت بيدها ثم نزلنا المدرج ، وعيون الشبان الايطاليين ، الذين جلسوا حولنا تراقبنا بفضول ظاهر ، حتى بلغنا مكانا قريبا من البوابة :
- هل تحب امثال هذه المباريات ؟
- نعم ، اظنني كذلك .

- حسنا ، ولكن يا عزيزي ، انا لا استطيع المكوث مع كل هؤلاء
- ليس معنا كثيرون .
- لا ، ولكن السيد مايرس وزوجته والموظف ذاك وزوجته وبناته و . .
- انه الموظف الذي اصرف عنده حوالاتي المالية !
- ها . . ولكن الا يمكن ان يقوم موظف مقامه اذا ما رفض هو ذلك !
- والشبان الايطاليون الاربعة لقد ضايقوني للغاية .
- اذن لننظر هنا بعيدا . . نراقب السباق .
- هذا افضل ، فانا اشعر الآن بارتياح . الا تريد احتساء شي ؟
- فبإمكاننا هنا ان نشرب ، ونراقب السباق ايضا .
- سأذهب لاحضار مشروب اذا .
- لا ! الخادم يحضره ، واشتارت بيدها فاسرع نحونا . . الا تفضل ان تكون وحدنا ؟

- طبعاً .

- شعرت كأنني وحيدة . . ونحن معهم .

- المكان رائع هنا !

- حقاً انه سباق جميل !

- انه ممتع !

- ولكن لا تدعني أفسد عليك متعتك . انا مستعدة للذهاب حيث تريد
- والجلوس في المكان الذي يروق لك .

- لا ، سننظر هنا ونحتسي الشراب .

- آه ، انك عظيم جدا . . انك تعاملني معاملة طيبة للغاية .

- وبقيتنا وحدنا ، نتأمل ما يجري امامنا ، دون ان يتيسر احدنا بكلمة . .

- وعندما انتهى السباق سررنا بلقاء الآخرين .

أقبل كانون الثاني ، وأقبلت معه ليالي البرد القارس ، بعد ان
 تساقطت اوراق الاشجار ، مؤذنة بانقضاء الصيف وحلول ايام الشتاء .
 كانت الاوضاع في الجبهة تسير من سيء الى أسوأ ، ولم يستطع
 جنودنا الاستيلاء على سان جبريل ولا ان يتقدموا في بانسيزا ، وجرت في
 المدينة ، كما جرى في تورين ، مظاهرات ضد استمرار الحرب ، وفي النادي
 الانجلو - اميركي جلست اتحدث الى ماجور انجليزي ، فأخبرني ان الايطاليين
 فقدوا ١٥٠ الف مقاتل في جوار بانسيزا ، وان اربعين الفا آخرين ، قد فقدوا
 في ناحية كارسو ، ثم تابع حديثه قائلا « ان فصل القتال قد انتهى هذا العام ،
 وان شعب ايطاليا قد تحمل فوق طاقته . وان الهجوم قد فشل في الفلاندرز ،
 وانه اذا تمكن الالمان من افتاء عدد كبير من جنود الحلفاء ، كالعدد الذي أفنوه
 هذه السنة ، فان ذلك يعني انهيار الدول المتحالفة ، وادرف : رغم انها الآن
 في حالة تضعف مؤسفة . الا ان أحدا لم يدرك هذه الحقيقة بعد ، والواقع اننا
 جميعا متضعفون ، ولكن الامور تتابع مجراها طالما اننا لا ننتبه لذلك . نعم
 تلك الحقيقة ، جميعنا خائرو القوى . ولكن يجب ان لا ننتبه لذلك وآخر
 دولة تنتبه لهذه الحقيقة ، هي التي ستكسب الحرب . على كل حال ، القضية
 كلها قدارة . انهم يفكرون فقط بالفرق العسكرية بالرجال والجنود . انهم
 ينتاقسون في تجنيد القوى البشرية . وعندما يصبح بين ايديهم ملايين
 الرجال ، يدفعونهم الى القتال . الى الموت . . . الجميع منهارون ، والالمان
 وحدهم يحرزون الانتصارات انهم الجنود الحقيقيون . ان الالمان الاول خلق
 ليكون جنديا ، ومع ذلك فهم خائرو القوى أيضا . . . الجميع خائرو القوى . . .
 الجميع محطون . . . وسالته عن روسيا فأجابني « انها هي أيضا منهاره .
 وكذلك النمساويون ، منهارون أيضا . . . أما اذا استطاعوا تجنيد بعض الالمان

- في فرقتهم فسينتصرون ، فسألته :
- وهل تعتقد انهم سيهتدون هجوما عاجلا ؟
 - نعم ، الايطاليون منهارون ، كلنا يعرف ذلك . وسيطاردون الالمان في ترنتيمو ويقطعون عليهم الطريق عند فيسنزا .
 - لقد جربوا ذلك في السنة الماضية فلم يفلحوا ،
 - ليس الالمان الذين جربوا ؟
 - بلى .
 - اذا من المستحيل ان لا يكونوا يقصدون ذلك ، انهم يحاولون الامور الصعبة الشائكة .
 - جاء الآن ميعاد انصرافي ، ينبغي ان اعود الى المستشفى ، وداعا .
 - وداعا .
 - كان هنالك تناقض واضح ، بين مرحة الشخصي وتشاؤمه السياسي المتطرف .

• • •

- كانت ساقاي قد تحسنتا كثيرا ، وكنت قد عرضت للكشف الدقيق الايام الثلاثة الماضية ، ولم يبق سوى قليل من التمرينات الفنية ، علي ان اجرها في مستشفى ماكواري ، وينتهي بعدها كل شيء ، وكنت حسب ماطلب الي اكثر من المشي الهادي المنتظم . وحدث مرة وانا اسير على الرصيف ، ان شاهدت رجلا مسنا ممن يتعاطون فن الرسوم التخطيطية ، فوقفت اتأمل حركة يده الرشيقية ، وكانت مقابله ، صبيتان ينتقل بنظره منهما الى الورقة الكبيرة امامه وعندما اتم الرسم ، اراني اياه قبل ان يقدمه لهما .
- انهما جميلتان . هل تريد رسما ايها الليوتنان ؟ وناول الورقة للفتاتين فابتعدتا وصوت قبعتهما يرن في اذني . •• كانتا جميلتين فعلا واحدهما تعمل في دكان الخمر القريب من المستشفى .
 - انزع قبعتك .
 - لا ، ارسمني واياها .
 - لن تكون صورة جميلة .•• لا ، ستكون اكثر هيبة ووقارا . وبعد قليل قدمها لي .

- كم تريد ؟
- لا بأس ، هذه مقدمة مني .
- لا . . أرجوك .
- أبدا . . رسمتها كهدية مني .
- شكرا جزيلًا ، الى ان التقى بك انا .

• • •

عندما بلغت المستشفى ، وجدت فوق منضدتي بعض الرسائل . احداها عسكرية قرأتها فورًا ، فعلت انهم جددوا لي ثلاثة اسابيع اخرى ، كماذونية اضافية اعود فور انتهائها الى الجبهة . اخبرت المرصدة اني لسن اتناول عشائي وحملت الرسائل قاصدا المطعم القريب في نهاية الشارع وعلى المنضدة داخله ، شرعت بالقراءة : كانت اولها من جدي تتضمن اخبار العائلة ، ثم نصائح . . وحواليتين بمائتي دولار . والثانية من صديقنا كاهن القرية ، والثالثة من رينالدي يسألني الى متى سأظل رائعا في شوارع ميلانو وحاتاتها ، ويذكرني بضرورة احضار اسطوانات الاوبرا ، نسيتهما في المرة السابقة .

تناولت عشائي ، وقرأت الجريدة الموضوعية على المنضدة المجاورة ، ثم حملت رسائلني وخرجت .

وفي غرفتي بالمستشفى ، استلقيت على السرير ، بعد ان ارتديت ملابس نومي ممسكا بين يدي احدي جرائد بوسطن ، التي كانت قد اهدتها الى ابنائها الاعزاء ، السيدة مايرس . لم يكن في الصحيفة الا اخبار القتال القديمة ، وبعض انباء محلية تافهة ، ثم اسماء معسكرات التدريب الناشطة ، وكم سررت لانني لم اكن ضمن اسلاك احداها .

وفيما أقرأ ، كنت أسمع خطوات كآثرين ، وهي تنتقل في الرواق ما بين الغرف ، كانت نوبتها توشك على النهاية ، ولم تمض دقائق حتى انفتح الباب ورأيتها تتجه نحوي :

- لقد تأخرت عليك يا عزيزي . . كيف أنت ؟
- فأخبرتها عن الرسائل وقرب انتهاء الماذونية .
- حسنا ، وأين ستقضي فترة الماذونية هذه ؟

- هنا ، سابقى هنا .
- لا ، اختر مكانا جميلا وسألحق بك اليه .
- وكيف ستندبرين ؟
- لا أدري ، ولكنى سأفعل .
- انك حقا مدهشة .
- لا ، لست كذلك ، وليس في الحياة امر يصعب القيام به .
- ماذا تقصدين ؟
- لاشيء ، كنت اتصور عقبات صغيرة على جانب عظيم من الخطورة .
- أما انا فأعتقد ان الامر في غاية الصعوبة .
- لا ، يا عزيزي ، اذا اقتضى الامر فسأستقيل .
- وأين سنذهب !
- لن يهتني هذا . . أي مكان تريده !
- لا تمانين في أي مكان أنتقيه ؟
- ابدا ، فأنا اقنع بأي مكان تكون انت فيه .
- ما بك يا كاترين ؟
- لاشيء . ابدا .
- لا بل هناك شيء .
- ابدا لا شيء في الحقيقة .
- أنا اعرف ان هناك شيئا ما ، اخبريني .
- لا أريد ، أخاف ان افسد عليك سعادتك .
- لا لن يحصل شيء من هذا .
- اوافق انت ؟ الامر لم يزعجني ، ولكنني اخشى ان يزعجك انت !
- لن يكون ذلك طالما انه لم يزعجك انت .
- ومع هذا فلا أريد اخبارك ؟
- نعم :
- سوف أضع طفلا ، انه يبلغ من العمر ثلاثة شهور .
- حسنا .
- هل سررت ؟

- طبعاً
- حاولت كل شيء ، وتناولت أنواعاً من العقاقير ، ولكنها لم تفد .
- لست متضايقا .
- لم استطع تجنبه يا عزيزي ، يجب ان لا تشعر بالكدر ابدا .
- الي متكدر من اجلك .
- هذا ما كنت أخشى وقوعه ، كل رجل ينبغي اطلاقاً ، انه امر طبيعي .
- انت مدهشة حقاً !
- لا ، لست كذلك . . . ولكن انت يجب ان لا تتكدر . . . وأعدك اني لا
أجلب لك المتاعب مع اني سببت لك بعضها ، لم اكن فتاة صالحة هل تعلم ؟
- لا .

- وكذلك سييسير كل شيء ، وببساطة ، يجب ان لا تقلق ابدا ، يتراءى
لي انك متضايق . لماذا ؟ . . . ابعده القلق . . . انزعه بعيداً . . . ألا ترغب في كأس
فأنا اعرف ان الشراب يجعلك تشعر بالارتياح .

- لا ، اني اشعر بالارتياح الآن . . . وانت مدهشة حقاً .
- لا ، لست مدهشة ، ولكنني عملت كل شيء ، وفكرت بكل شيء . . .
واستطعت ان اتدبر الامر كي نظل دائماً معا ، اذا ما اخترت لنا مكاناً نذهب
اليه . . . فالطقس سيكون ممتعاً جداً في تشرين الاول . وبامكانك ان نقضي
وقتنا جميلاً للغاية ، وبعد ساكاتيك كل يوم ، عندما تعود الى الجبهة .
- واين ستكونين انت ؟
- لا أعرف تماماً الآن ، ولكن في أي مكان مريح ، سأفتش عنه .
وصممت برهة كانت تجلس على السرير قبائلي ، وعيناي تتأملها من
طرف خفي :

. . . كنا بعيدين عن بعضنا ، كل يفكر في نفسه بشخصيته المفضلة ،
بذاته الخاصة ، كنا انسانين متباعدي العاطفة مفترقي الشعور تماماً ، كما
يكون وضع أي انسانين عاديين ، عندما تدخل الغرفة ، وتراهما جالسين
منفصلين ، قد شرد كل منهما وراء بنات افكاره . وفجأت مدت يدها الي ،
وامسكت بيدي :

- أنت لست غاضباً يا عزيزي ! اليس كذلك ؟ - لا .
- ولا تحس بأنك وقعت في الفخ ؟

- لربما قليلا ، ولكن ليس من قبلك ؟
 - أنا لم أقل من قبلي ! لا تكن أحمق .. انني أقصد « عموما » .
 - أنت دائما تشعرين بأنك وقعت بالفخ .
 - فتراجعت الى الوراء دون أن تهز أو تبعد يدها .
 - دائما ليست كلمة طيبة . - آسف .
- حسنا ! ولكنك تعرف انني لم أرزق طفلا أبدا .. وانني لم أفكر بحب
 أحدهم يوما .. وانني جربت طيلة هذه المدة أن أسير في الطريق الذي ترصيك
 وان أنفذ مشيئتك .. وبعد هذا كله تقول « دائما » .
 - هل تريد أن أقطع لساني ؟ اني على استعداد لافعل ذلك !
 - آه يا عزيزي . واقتربت مني : ينبغي ان لا تؤاخذني ..
- ثانية تملكننا الشعور المشترك بالالفة والتكامل ، وزال عنا الاحساس
 بالفردية ، وقالت كاترين .
- نحن كلانا شخص واحد ، يجب أن لا نسيء فهم بعضنا عن عمد .
 - نحن لا نفعل ذلك .
 - ولكن الناس عادة يفعلون ، انهم يتحاربون ثم يختلقون المشاكل عمدا
 وتسببوا علاقاتهم ويتشاجرون ، وفجأة نسمع انهم افترقوا .
 - ولكننا لا نتشاجر .
 - طبعاً .. ينبغي أن لا نتشاجر ، لاننا وحيدان في علاقتنا في هذه الدنيا ،
 لا مثيل لنا ولا لحبنا .. فاذا ماتشاجرنا لا قدر الله ، سنشقى كثيرا
 وبسنتون بنا .
- لن يشمتوا بنا .. لانك شجاعة جدا ولا شيء مطلقا يصيب الشجعان .
 - ولكنهم يموتون أخيرا .
 - مرة واحدة فقط .
 - لست اذكر قائل هذه العبارة :
 الجبان يموت الف مرة ، ولكن الشجاع يموت مرة .
 - صحيح ! ومن قائلها ؟ - لا أعرف !
- من الأرجح أنه كان جبانا ، فهو يعرف الكثير عن الجبناء ، ولا شيء
 عن حقيقة الشجاع ، فربما مات الشجاع ألفي مرة ولكن القضية انه لا يذكر

ذلك ولا يفضح خوفه .

- لسنت اذكر ذلك ، ومن الصعب معرفة ما في قرارة الشجاع .
- بنى ! تلك هي طريقته .
- انك حقا خارقة الذكاء ، والقدرة على السيطرة .
- اصببت يا عزيزي ، فانا جديرة بهذه الصفة . - انك شجاعة .
- لا ، ولكني ارجب في ان اكون كذلك . .
- اما انا فلا ، انا اعرف فقط اين يجب ان اضع قدمي ، ولقد توصلت الى ذلك بعد تجارب كثيرة .
- اعتقد ان كلامنا مقتر بنفسه ، على ان الحقيقة انك شجاعة .
- لا ! ولكني ارجو ان اكونها .
- كلانا شجاع ، وانا شخصيا اشعر بشجاعة اكثر بعد احتساء كأسين او ثلاثة .

- كلانا شخصان ممتازان . وذهبت الى الخزانة ، واحضرت قارورة البراندي .

- اليك بالكاس . . فقد عاملتني معاملة حسنة جدا .
- الحق اني لا اشعر بحاجة الى الشراب الآن . - واحدة فقط . .
- لا بأس . وجرعته . . وبعد دقائق ملأت الكاس الثالثة .
- لقد شربت كثيرا . . سمعت ان البراندي تقدم للابطال . . ومع ذلك فينبغي ان لا تشمر بالكبرياء ، ولا تتعجرف .
- اين ستسكنين بعد الحرب ؟
- في بيت عتيق على الاغلب . منذ ثلاث سنين وانا انتظر انتهاء الحرب ولكنني الآن انظر اليوم الذي سيصبح فيه ابنتي لفتنانت !
- لربما اصبح جنرالاً .
- اذا تحولت هذه الحرب الى حزب مائة سنة اخرى فسيكون بإمكانه نيل تلك الرتبة . - الا تريدن كاساً ؟
- لا ! انها دائما تجعلك مسرورا ، وهي دائما تجعلني كالمصاب بالدوار .
- ألم تشربي البراندي قبلاً ؟
- لا يا عزيزي ، فانا زوجة محافظة ، متمسكة بالتقاليد .
- تناولت القارورة من على الارض ، وملأت الكوب للمرة الرابعة .
- الافضل ان اذهب الآن في جولة على غرف المرضى ، وتقرأ أنت في الصحف ربما اعود .

- هل أنت مضطربة للذهاب ؟
- لا بد من الجولة أن عاجلا أو آجلا .
- حسنا لتكن الآن اذا .
- وسأعود بعد قليل .
- فأكون قد انتهيت من هذه الصحف .

في مساء اليوم التالي ، وكنت عائدا من مستشفى ماكواري ، اذ بحرارة الجو تنخفض فجأة ثم تهطل أمطار غزيرة ، تبدل ثيابي وتصل الى جسدي وعندما بلغت غرفتي ، كان المطر ما زال يتساقط مدرارا ثم أخذت الريح العاتية تقذف بحباته الكبيرة على زجاج باب الشرفة ، فيدوي الصوت مزججا .

بدلت ثيابي ، واحتسيت قليلا من البراندي ، ثم غفوت في سريري ، وفي الليل أحسست بحمي تتابني ، وبدوار ثقيل في رأسي ، فلم أفعل شيئا ، وتابعت نومي ، ولكنني عندما استيقظت في الصباح ، سمعت طبيب المستشفى يخاطب الأنسة كاج ، وكانا يقفان بجانب السرير :

- الامر مؤكد .. ليس عندي أدنى شك . أنظري الى بياض عينيه ..
مؤكد يا آنسة مؤكد .

فانحنت الأنسة كاج ونظرت في عيني ، ثم احضرت مرآة وجعلتني أشاهد بواسطتها بياضها ، كان أصفر اللون مما يثبت اصابتي بداء الريقان . وهكذا لم تستطع كاترين وأنا ، التمتع بأيام عطلتي المتبقية ، اذ ظلمت طريح الفراش طيلة أسبوعين كاملين ، وخابت آمالنا في الذهاب الى النزا في لاکو ماكوري ، الناحية التي فكرنا في قضاء أيام حلوة بين ربوعها ، حيث يستطيع المرء الابتعاد عن ضجيج المدن وشغيبها ، والعيش في أحضان الطبيعة الجميلة الهادئة ، على ضفاف الجداول الرقراقة ، والبحيرات الصافية المياه ، وفي ظلال الاشجار الدائمة الخضرة ، في الرياض المشمسة . لقد قدر لي بدلا من ذلك كله ملازمة الفراش ، طيلة خمسة عشر يوما ، قضيتها دون أن يسمح لي بمغادرة الغرفة ولو لساعات ، وفي صباح أحد هذه الأيام ، دخلت علي الأنسة فان كامين ، رئيسة الممرضات ، واتجهت ، رأسا الى الخزانة وبعد

أن تأملت محتوياتها ، التفتت نحوي وحدجنتي شديدا . لقد رأيت قارورات
الشراب ، مكدسة فوق بعضها ، وكنت قبل دقائق ، قد أرسلت عددا كبيرا
منها مع الخادم ، والظاهر أنها لمحتة وهو يسرع على السلم بها ، فأسرعت
لتلقي القبض على بقيتها ، على أن الخادم كان قد نجا بمعظم الكبيرات ، ولم
يدع الا قوارير البراندي ، المتوسطة الحجم .

مضت دقائق والآنسة كامين ساكنة تحملق في داخل الخزانة ، كأنها
لا تصدق ما تراه أمامها ، ثم حملت قارورة من نوع كوميل ، يظهر أنها اغضبتها
أكثر من الباقي ، وأخذت تتأملها والحنق ياد في كل قسمات وجهها ، وفي
عينها .

- انها كوميل . . أحسن الانواع التي ترد الى ايطاليا . . وأظنها من
صادرات روسيا .

- جميعها براندي ، أليس كذلك ؟

- لا أستطع رؤيتها من هنا ! ولكن الغالب انها كذلك .

- منذ متى وهذا الامر يجري هنا ؟

- انني ابتاعها واجلبها بنفسي ، لان كثيرا من اصدقائي ، الضباط

الايطاليين ، يزوروني بين الحين والآخر ، فأكرههم بتقديم شيء منها .

- يعني انك لم تشرب منها بنفسك ؟

- بلى ، أنا ايضا أشرب منها .

- براندي ! . . احدي عشر قارورة من البراندي وهذا الشراب الروسي

الثقيل . الكوميل .

- سأبعث خادما لآخذها جميعها . . هذا كل ما عندك منها ؟

- نعم في هذه اللحظة .

- تفعل كل ذلك ، ونشفيق عليك لانك اصبت بالريقان . . أن المعطف

يذهب سدى مع شخص مثلك ! - شكرا .

- أظن أن أحدا لا يلومك ، لانك تحاول التخلص من العودة الى الجبهة ،

ولكني أعتقد أنه كان بإمكانك اتباع طريقة أخف ضررا من الاسراف في شرب

الكحول ، وتعرض نفسك لداء الريقان الوبيل . - الاسراف بماذا .

- بالكحول . . أنتظاها بعدم سماعك اياه . فلم أجبها ، ولكنها

أردفت :

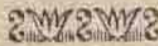
- ان لم تبتدع سببا آخر ، فانك مضطر للعودة الى الجبهة ، فور

شفائك من الريقان فانا لا أعتقد أن اصابة بريقان اختيارية تمكنك من

- الحصول على مأذونية للنقاهة •
 - ألا تعتقدين ؟ - لا •
 - هل حدث لك أن أصبت مرة بالريقان يا آنسة فان كامين ؟
 - لا ، ولكني مرضت كثيرا من المصابين به •
 - وهل لاحظت كيف ينعم المصابون بمرضهم هذا ؟ ويتمتعون بأيام مرضهم فيه ؟
 - على كل حال ، أظنها أفضل من أيام السنة •
 - آنسة فان كامين ! هل علمت مرة برجل أراد أن يجعل من شخصه عاجزا ، فعذف بنفسه في المرحاض ؟
 فتجاهلت السؤال ، ولم يكن أمامها غير ذلك أو تغادر الغرفة ، على انها لم تكن في حالة تمكنها من الانسحاب الطبيعي لقد كرهتني زمنا طويلا ، وما هي الآن تقيض الثمن • وحتى لا تشعرنني بما يفترض في داخلها أجابت ،
 مظهارة بالطمأنينة •
 - أعرف كثيرا من الرجال كانوا يتهربون من الذهاب الى القتال بايقاع أنفسهم بمختلف الاصابات الجارحة •
 - ولكن ليس هذا ما سألتك عنه •• فانا أيضا رأيت رجالا جرحوا أنفسهم تعمدًا ، أما أريد أن أعرف فيما إذا كنت شاهدت انسانا يقذف بنفسه الى المراحض ، ليجنبها الذهاب الى الحرب ، فهذا أقرب الامور التي توقع المرء نفسه بداء الريقان •• وقل من النساء من خير شروبه ، وهذا ما جعلني أسألك فيما إذا كنت قد أصبت به ، لانه يا آنسة فان كامين ••
 ولكنها قطبت وجهها ، وغادرت الغرفة وما هي الا ثوان حتى دخلت
 الآنسة كاج •
 - ماذا قلت للآنسة كامين •• انها حانقة غضبي !
 - كنا نقارن بين الاحاسيس ، وكنت عازما أن أشرح لها كيف أنها لم تعان آلام الولادة •• و ••
 - هذه حماقة ا قهي ليست من اللواتي يصح أن تمزح معهن •
 - ولكنها بادرنتي بالمزاح •• فبالاضافة الى أنها أفسدت علي مأذونيتي ، فانها تحاول علي ما اعتقد ، إنهامي بالاصابة تعمدًا وسوقسي الى المحكمة العسكرية ، انها منحطة جدا •
 - انها لا تحبك أبدا •• ولا أعرف لذلك سببا ؟
 - تدعي اني قد أدمنت على الشراب ، حتى أصاب بالريقان ، وعندها أنجو من العودة الى القتال •

- يا لها من • اني على استعداد أن أقسم باسم يسوع انك لم تشرب
حتى ولا جرعة • كل انسان يؤكد ذلك ويقسم عليه •
- وأخذت القارورات •
- آه ، كم مرة قلت لك أن لا تحتفظ بالفارغات هنا ، أين هي الآن ؟
- في الخزانة • - هل عندك محفظة جلدية ؟
- لا ! ضعيفا في ذلك الكيس •
- سأحملها للحاجب •
- ففعلت ذلك :
وأتجهت الى الباب تريد استدعاه ، ولكنها اصطدمت بفان كامين
مسرعة وخلفها الحاجب •

وعندما رأت الكيس ، صاحت بالخادم :
- اليك بها • • هيا سأعرضها أمام عين الطبيب قبل أن أقدم تقريرى •
ثم خرجت ، يتبعها الحاجب ، حاملا الكيس الذي كان قد حمل قواريره
الفارغة ملأى ذات يوم •
ومضت أيام ، ولم يقع شيء اللهم الا اني خسرت التمتع بأيام عطفتي •



في مساء الليلة التي كنت سأسافر فيه الى الجبهة، أرسلت الحاجب، ليحجز لي مقعدا في القطار، القادم من تورين، والذي سيقادر في منتصف الليل .
كان من الواجب أن يكون المسافر موجودا بنفسه لقطع التذكرة وحجز المكان ولكن الحاجب اصطحب معه أحد أصدقائه، كان مدفعا، قادم من الجبهة في مادونيتيه، فأكد لي الاثنان ان بإمكانهما تأمين المقعد، والمحافظة عليه حتى حين وصولي .

وفي الساعة الخامسة مساء ودعت نزلاء المستشفى ومستخدميه، وخرجت الى الطريق، وكان الحاجب قد نقل أمتعتي الى غرفته، استعدادا لايصالها الى المحطة، قبل الثانية عشر بقليل . أما زوجته التي كانت تلقبني بالسنيور فقد أجهشت بالبكاء عندما مدت لها يدي لادعها، ثم مسحتم دموعها ولكنها عادت الى البكاء ثانية، فربت على كتفها وواسيتها ببعض العبارات الرقيقة، الا أن كل ذلك لم يغير من شدة تأثرها، فأجهشت باكيا للمرة الثالثة .

لقد كانت امرأة طيبة، ساذجة النفس، نقية السريرة، ذات شعر أبيض، وكنت اعتمد عليها في رثق ثيابي وجواربي، وعندما شرعت في البكاء، كانت كل قسما وجهها تشارك في اعلان حزنها البالغ وتأثرها العميق .

اتجهت الى دكان الخمر الصغير، في نهاية الشارع وجلست أنتظر :
كان الجو باردا، الليل شديد الظلام، يملأ الضباب، وبعد أن تقدمت الجرسون ثمن القهوة، وكأس البراندي، رحت أنظر من وراء زجاج النافذة، أراقب المارة، وعندما لمحت كاترين، نقرت بقوة على الزجاج، فأدارت رأسها ورأني ثم أسرعمت مبتسمة، ولكنني هرعت للقاءها خارجا، وتنابط ذراعها ومشينا معا في الرصيف . ثم عبرنا ساحة السوق الصغير، ومن ثم اتجهنا

نحو ميدان الكاتدرائية التي بدت ، عند اقترابنا منها ، بيضاء مبللة من جراء الضباب . فسألت كاترين :

- هل تريدان الدخول ؟
- لا دعنا نتابع المسير .
- وعند زاوية الكنيسة ، كان يقف جندي مع حبيبته في وضع أقرب الى العناق ، يحجبهما عن الانظار العمود الرخامي الضخم فقلت لكاترين :
- انهما يشبهاننا .
- ليس في الدنيا من يشبهنا .
- أرجو أن يجدا مأوى يلجآن اليه .
- وكنا قد تجاوزناهما بمسافة قصيرة ، ووقفنا نتأمل واجهة احد محلات بيع الادوات الجلدية . حيث نسقت يد البائع عصا السكي وحذاء لاعب الكرة ، واحزمة الجنود ، بشكل أنيق جذاب .
- سنلعب السكي ذات يوم .
- بعد شهرين سيبدأ فصل السكي في مورين .
- لنقضدها اذا ؟ !
- حسنا .
- وعطفنا سيرنا نحو طريق فرعية .
- لم تطرق قدماي هذا الشارع أبدا .
- انها الطريق التي أعود فيها الى المستشفى .
- وظللنا نسير على الرصيف الايمن ، نتأمل واجهات المحلات المضيئة ، بينما أشباح المارة تتحرك وسط الضباب من حولنا . وعند باب احد المحال قلت لكاترين : ادخلي ، أريد شراء مسدس .
- أحضرت السيدة ، صاحبة الدكان ، عددا من المسدسات المختلفة القياس ، وشرعت تبين مزايا كل منها .
- أريده يتناسب مع هذا ، وأشرت الى حزامي . وكان جلديا ، بني اللون ، اشتريته عتيقا لاستعمله مدة تجوالي في المدينة .
- هل هذه المسدسات من النوع الجيد ؟ سألت كاترين :
- كلها من نوع واحد . هل تسمحين بتجربة هذا ؟
- ليس عندي الآن مكان لاطلاق النار . ولكنه ممتاز جدا . لا يخطيء أبدا .
- فخرطشته ، كان رفاصه قويا ، ولكنه يتحرك ببطء ، خرطشته ثانية وثالثة .
- انه مستعمل كان يخص أحد الضباط الماهرين باصابة الهدف .
- وهل أنت التي بعته اياه ؟

- نعم . - وبكم استرجعته منه ؟ - من خادمه .
- لربما كان عندك مسدسي أيضا . . . بكم هذا ؟
- خمسين لير . . . رخيص جدا .
- حسنا ، أريد ماسكتين عتيقتين وحافظة رصاص .
- وعندما أحضرتها سألتني : هل تريد سيفا ؟
- تفديتها الثمن ، وثبتت المسدس في الحزام . ثم ملأت الحافظة رصاصا .
- الآن أصبحت كامل العدة : الامر الذي كان يجب أن لا أغفل عنه ، منذ أن
- سرق أحدهم مسدسي الاول ، وأنا في طريقي الى المستشفى .
- أرجو أن يكون مسدسا من نوع جيد .
- قالت ذلك كاترين ، تريد اقتراع جوابا من المرأة . ولكن هذه أجابت :
- ألا تريد اي شيء آخر ؟ - لا أظن .
- المسدس له شريط خاص ، يعلق به . هذا ما لاحظته .
- كأنت تريد بيع أي شيء ، فأردفت : ألا تريد صفارة ؟ - لا أعتقد
- ثم حينها وخرجنا . سألتني كاترين : ما هذه المرايا المثبتة الى الالواح
- الخشبية ؟
- انها تستعمل لاجتذاب الطيور : يضعونها في الحقول ، فتراهـا
- القبرات ، وتقف فوقها ، وعندئذ يطلق الإيطاليون النار عليها .
- انهم شعب ذكي ، أنت لا تصطاد القبرات يا عزيزي هل تصطاد في
- أميركا ؟
- ليس القبرات بصفة خاصة .
- عبرنا الطريق ، ومشينا على الرصيف المقابل .
- اني أشعر بانتعاش الآن . . . عندما بهانا السير كنت متضايقا كثيرا .
- نحن دائما نشعر بانتعاش ساعة تكون معا .
- ونحن سوف نكون معا دائما .
- نعم . . . غير انني مسافر الى الجبهة عند منتصف الليل .
- لا تفكر بذلك الآن يا عزيزي !
- طللنا نمشي حتى نهاية الشارع ، كانت الاضواء تشوبها صفرة خفيفة
- بتأثير الضباب ، الذي أخذ يتردد ويتكاثف وسألتني كاترين :
- ألسنت تعبا ؟ - كيف أنت ؟ - على ما يرام . . . فالشمس شيء
- جميل .
- ولكن دعينا لا نطيله كثيرا . - لا . . .

وعطفنا نحو طريق ضيق ، حيث لا أنوار ولا أناس ولا ضجيج ، فتوقفت وقيلتها وبينما أنا كذلك احسست بيدها فوق كتفي ، ثم التفت حول عتقي فنشرت « شالي » كي يستر رأسينا ، وبعد قليل همست في أذنها :

– لنذهب الى مكان ما • – حسنا !

استأنفنا السير حتى بلغنا ميدانا صغيرا تجري حوله قناة مائية وهناك لمحنا سيارة فوق الجسر • نستطيع امتطاء عربة خيل من على الجسر • وفي الضباب الرطب ، وقفنا ننتظر ، مرت عدة سيارات ملأى بالناس العائدين الى بيوتهم ، وتبعتها عربة ، ولكن بدا أن أناسا في داخلها ، وكان الضباب قد شرع يتحول الى رذاذ خفيف ، فقالت كاترين :

– الأفضل أن نتابع المشي أو نركب الترام •

– لا بد أن تصل أخرى ، ف عربات الخيل كثيرا ما تمر من هنا •

– ها • • هذه واحدة •

أوقف السائق العربة ، فصعدنا الى داخلها ، كانت مظلتها متدلالية الى مداها الاقصى ، لمنع رذاذ المطر ، ولم نستطع رؤية حتى وجهي بعضنا في الظلمة الدامسة •

– الى أين طلبت اليه أن يسير بنا ؟

– الى المحطة ، فليس في طريقنا اليها أي فندق آخر •

• كانت المسافة طويلة ، تتعرج في عدد من الازقة •

– ألن نتناول العشاء ؟ أخشى أن يعضني الجوع •

– سنتناوله في غرفتنا •

– ليس معي أي شيء ، البسه هنالك ، حتى ولا قميص نوم •

– سنشتري واحدا • وصحت بالسائق : – الى شارع مازوني •

فاطرق رأسه وعند أول منعطف أدار العربة نحو الجهة اليسرى • ولما بلغنا الشارع الكبير ، مدت كاترين رأسها تريد رؤية دكان ملابس • ثم خاطبت السائق :

– قف هنا •

لم تمكث طويلا حتى رجعت وبيدها حزمة صغيرة ثم همست في أذني :

– هل تأخرت ؟ أسرعنا كثيرا ومع ذلك فقد انقضىته قميصا فاتنا جذابا •

ولما وصلنا الفندق ، طلبت منها البقاء داخل العربة ، ريثما أكلم المدير • وبعد قليل رجعت اليها ، ونقدت السائق ، ثم سرت متأبطا ذراعها نحو المدخل المضيء • فأسرع الصبي الصغير ، ذو البذلة اللامعة الازرار ، وتناول الحزمة

من يدي ، وما أن اقتربنا من منضدة المدير حتى خرج من خلفها وانحنى أمامنا مشيراً الى المصعد ، ثم تبعنا ورافقنا في الصعود داخله .

— هل ترغب السيدة والسيد في تناول عشاءهما بالغرفة ؟
— نعم ، أنتفضل بإرسال قائمة الطعام ؟

— هل تريدان مأكولات خاصة ؟ بعض الطيور أو الاسماك أو ..
كان المصعد قد اجتاز الطوابق الثلاث ثم توقف :

— وماذا عندك من أنواع الطيور .

— أستطيع تقديم دجاج وحجل .. حجل ..

قلت ذلك ونحن نخطو في الرواق الضيق ، الذي غطته سجادة بالية مهترئة ، بينما اصطفت على جانبيه أبواب كثيرة ، وقف أمام أحدها وفتحته . وضع الصبي الصغير الحزمة على الطاولة التي في زاوية الغرفة ، بينما انهمك المدير بسحب الستائر :

— الضباب كثيف بارد في الخارج !

أما اثاث الغرفة فكان جميعه ذا لون أحمر ، تنتصب بين قطعه عدد من المرايا ثم كرسيان وسرير واسع ، فوقه غطاء من الحرير ، والى جانبه باب يوصل الى الحمام . — سأبعث لكما بقائمة الطعام فوراً .
قال ذلك وانحنى خارجاً .

فاتجهت حالا الى النوافذ ، وأعدت الستائر الى حالتها الاولى بينما جلست كاترين على السرير ملقياً رأسها الى الورا ، فبدأ شعرها في الضوء براقاً رائعاً . ولم يبدو في وجهها أي دليل من علامات السرور ، بل كانت تفشاه سحابة من الكتابة العميقة . — ماذا في الامر يا عزيزتي ؟

— ما حدث أن شعرت بنفسى كزائية كما أشعر الآن .

فرجعت الى النوافذ لتوي وأزحت الستائر جانبا .. ثم ذهبت بنظري بعيداً .. الى الأبعاد السحيقة . لم أكن أحسب أن الامر يمكن أن يكون كذلك .
— ولكنك لست عاهرة .

— أعرف ذلك ، ولكن ما أفظح أن تشعر المرأة بنفسها كعاهرة . قالت ذلك بصوت جاف متقطع ، تميزت من صدق تبراءته صدق أحاسيسها .
— هذا أحسن القنادق التي بوسعنا دخولها .

وعدت أتطلع من النافذة ، ومن بعيد عبر ميدان المحطة الفسيح ، كانت تتناهى الى مسامعي أصوات العربات ، وتشعخافة أنوار الكهرباء ، واستطعت رؤية أضواء الفندق تنعكس على الرصيف المبلل .. « يا للجميل

- ... هل قدر لنا أن نقطع الساعات القليلة المتبقية في جدل عقيم .
 وفجأة سمعتها تنادي بصوت مرتفع ، خال من الجفاف ،
 - تعالى الي ، هنا ، تعالى الي .. أرجوك .. انني فتاة طيبة ، تعال ..
 فأدركت وجهي نحوها ، كانت تبتسم وهي على السرير ، ولم أقوى الا أن
 أهرع اليها . وأقبلها :
- انك انسانتي العزيزة الرائعة . - انني انسانتك بلا زيب .
 بعد العشاء ، شعرت أن الجو قد تحسن ، ونعمنا بمشائر السرور تشع
 في عيوننا ، ولم تمض فترة قصيرة حتى بسمت الدقائق لنا ، وتحولت الغرفة
 وكانتنا عشنا الزوجي المؤمل ، لقد كانت غرفتي في المستشفى بيتا زوجيا
 هائلا رتعا فيه كأعذب ما تكون الحياة ، وها هي الغرفة الثانية في ميلان ،
 تغدو كذلك مأوى لتفسيينا الظالمتين ، ننهل منه الدفء والسعادة والإطمئنان .
 - انها غرفة بديعة .. انها جذابة . كان يجب أن نقيم هنا طيلة الايام
 التي قضيناها في ميلان .
- انها تبدو في ناظري مكانا مضحكا ولكنه مضياف على كل حال .
 أحببتها :
- الرذيلة شيء عجيب جدا ، شيء يستحق أن يقف عنده الانسان طويلا ،
 والناس الذين ينغمسون فيها لا بد انهم تذوقوها جيدا ...
 والاعطية الحريرية .. كلها .. كلها على أحسن ما يرام .. انك فتاة رائعة .
 أنظر ، كم هي رائعة هذه الاوسدة الحمراء .. والمرابا النظيفة ..
 - لست أدري كيف يحس المرء ، عندما يستيقظ غدا صباحا فيجد نفسه
 مستلقيا على هذا السرير ، في هذه الغرفة .
 سكبت لها كأسا أخرى ، ولكنها استمرت .
- أتمنى ان لو تستطيع اعتراف أثم حقيقي ، ان لو تتذوق الرذيلة الحققة
 .. ان لو نفوس فيها . كل ما فعلناه حتى الان يبدو لي شيئا بريئا ساذجا ،
 ولن أستطع أن أصدق أن شيئا مما فعلناه ، يعتبر أثما حقيقيا .
 - انك فتاة عظيمة .
- انني فقط اشعر بالجوع ، بالجوع المخيف .
 - انك فتاة جذابة ساذجة .
 - نعم ، انني فتاة ساذجة ، ولم يدرك ذلك أحد سواك .
 - يوم التقيت بك أول مرة ، ظللت ساعات طويلا ، وأنا أفكر كيف
 يمكن أن نذهب سويا الى فندق كافور ، وكيف سيتم ذلك .

- ولكن ذاك صفاقة منك ، منتهى الصفاقة ، هذا ليس فندق كافور
 ليس كذلك ؟ - لا ، فلا يمكننا الدخول الى هناك *
- سيمكنا الدخول يوما ما ، ولكن لماذا ننظر الى علاقتنا دائما بهذا
 الشكل .. لماذا لا تنزع من نفسك صفتها هذه .. أنا دائما يا عزيزي اعتبرها
 شرعية ، ضمن قواعد الخلق والفضيلة *
- هل تعتبرينها كذلك يوما ؟ - الا في النادر *
- آه ، انك فتاة فاتنة *
- وملات كأسا اخرى ، ثم أردفت :
- لم أكن اعتبرك كذلك في البدء ، ظننت انك عصبية المزاج *
- كنت عصبية الى حد ما ، ولكن ليس الى درجة معقدة .. هل حدث
 أن ضايقتك يوما ؟ أنا لم أضايقك ؟ ليس كذلك ؟
- الخمر مادة عظيمة ، تجعلك تمسين كل السيئات *
- انه أشهى ، ولكنه سبب داء النقرس (الفالج) لوالدي *
- ألك والد ؟
- نعم ! وهو مصاب بالنقرس ، وليس من الضروري أبدا أن تراه *
- وانت اليس لك أب ؟ لي عم ، زوج امي *
- هل تظن أنني ستأميل اليه وأحبه ؟ ليس ممن الضروري أن تربيه *
- نحن نتمتع بوقت جميل ، ولست أبالي بأي شيء آخر مطلقا .. انتي
 سعيد جدا بزواجي منك *
- ثم دخل الخادم ، وحمل طبق الكزّوس الى الخارج ، وظللنا صامتتين ،
 وصوت تساقط الامطار يصل الى مسامعنا ، وعلا هدير سيارة تعبر الشارع ،
 وفجأة أقيت نفسي أترنم بمقاطع أغنية كنت أحبها :
- وكلما استلقيت على ظهري
 سمعت هديرها في أذني
 عربة الزمن المجنحة
 تسرع قريبة مني
- أنا أعرف تلك القصيدة .. انها للشاعر مارقل ، ولكنها تتحدث عن
 صبية ، تأبى الحياة بصحبة الرجال *
- كان ذهني صافيا ، ونفسي قد اطمأنت ، وأحسست بدافع يدفعني الى
 الصراحة والصدق في القول : - أين ستلدين طفلك ؟
- لا أدري ، في أفضل مكان أجده *
- وكيف ستندبرين الامر ؟

- سأتبع أفضل طريقة ممكنة ، لا تجزع يا عزيزي فيمكن أن ننجب عدة أطفال والحرب لما تنته بعد .
- قرب وقت اقلاع القطار .
- أعرف ، وبامكانك تقريبا اكثر اذا اردت . - لا ا
- اذا ، لماذا التلق لقد كنت رائعا حتى الآن ، فمالي أراك قد اضطربت؟
- ليس هناك أي شيء ، كم مرة ستكتبين الي في الشهر .
- يوميا ، هل يطلعون على رسائلك ؟
- ولكنهم لا يستطيعون فهم الانجليزية لا يتمكنون من اكتشاف ما في الامر . سأجعل كتابتي غامضة .
- ليس كثيرا ، سأجعلها غامضة قليلا .
- أخشى أن يكون ميعاد ذهابي قد آن .
- ينبغي ان ننهض حقا ، رغم اننا لم نستقر طويلا في أي من بيوتنا . .
- ولكن لا بد ان نستقر يوما .
- ساهي . لك منزلا رائعا عندما تعود .
- لربما جرحت قليلا في قدمي ، او في شحمة اذني .
- لا ، أريد ان تحتفظ بأذنيك جميلتين كحالهما الآن .
- وقدماي ؟ ألا ترينهما كذلك ؟
- قدماك جرحتا من قبل .
- حسنا ، استيقني .



نزلنا السلم درجة درجة ، بدلا من استعمال المصعد ، كان الطاهي الذي احضر لنا العشاء يجلس على الكرسي ، قرب مدخل القاعة الخارجي ، وكنت قد دفعت له ثمن الطعام فقط دون اجرة الغرفة ، وعندما شاهدنا نهض واقفا ، ثم انحنى مقتربا منا ، فأخذته جانبا ، ودفعت له اجرة الغرفة حيث كان صديق سابق له ، على انه بعد ان غادر عرفتنا امر السفرجي بالمرابطة عند الباب الخارجي ، خشية مغادرتنا قبل دفع الثمن ، والظاهر انه يفعل ذلك دائما ، ومع اصدقائه ايضا ، فالمرء يكثر اصدقائه زمن الحرب .

امرت الحاجب ان يحضر لي عربة ، فتناول جزمة كاترين من يدي ، واسرع تحت المظلة الى الشارع ، ووقفنا ننتظره في غرفة صغيرة جانبية

- كيف تشعرين الان يا كاترين ؟

- اني نعسة .

- اما انا فاشعر بالفراغ والجوع .

- اليس معك شيء تاكله ؟

- بلى في المحفظة .

ثم أتت العربة ، وقفز الحاجب من داخلها مسرعا نحونا ، فاتجهنا الى الباب وسرنا تحت المظلة ، وعندما بلغنا العربة ، قال :

- تلك هي الجزمة على المقعد في الداخل .

ثم وقف منتظرا ، فوضعت بعض الدراهم في جيبه ساكرا ، واخيرا

تحركت بنا العربة ، وعند المدخل وقف اثنان من رجال البوليس الحربي .

- يمكننا الآن أن نقول وداعا .

التفت الى كاترين ، كان وجهها هادئا ساكنا .

- الا أستطيع الدخول ؟

- لا ، وداعا يا كات « تصغير كاترين » .

- هل تخبره أن يوصلني الى المستشفى ؟

- طبعا ..

- وداعا احرصي على نفسك وعلى كاترين الصغيرة .

- وداعا يا عزيزي .

- وداعا ، وتزلت من العربة التي تحركت مبتعدة ، ولكن كاترين مدت رأسها خارجا فبدأ وجهها في الضوء ، ويدها تلوح مضطربة حائرة ثم اقتربت من المنعطف ، ورأيتها ترفع يدها الى أعلى ، وفهمت انها تريدني ان أدخل المحطة ، لئلا يضر بي المطر المتساقط .

وفي قاعة المحطة وجدت حاجب المستشفى الاميركي بانتظاري ، والامتعة الى جانبه ، ثم حملها وسار امامي نحو عربة القطار .. وهناك كان الازدحام على أشد ، وكل واحد يتنافس لاحتلال المقعد الشاغر . وفي طرف العربة الآخر ، كان المدفجعي قد جلس مطمئنا . وعندما شاهدني نهض ، فاحتلت انا مكانه . ولكن احدهم ضغط بيده على كتفي ، تطلعت الى الوراها فاذا هو كابتن عسكري .

- ماذا تريد ؟

- لا تستطيع فعل ذلك ! ليس من حقك جعل جنديا يحجز المقعد سلفا .

- ولكنني قد فعلتها .

- ليس من حقك ان تفعل ذلك .

- وماذا تريد الآن ؟ - المقعد . وانا أريده ايضا .

نظرت في وجهه ثم تطلعت حولي ، فأدركت ان كل من في العربة يتحزب معه ، لقد كان الحق بجانبه . يالشيطان قلت في نفسي ، ثم خاطبته :

- اجلس ايها الكابتن .

كان القطار في غاية الازدحام وأدركت ان لا أمل لي بالحصول على مكان اجلس فيه ، تقدمت الحاجب والمدفجعي ، فشكراني وانصرفا ، ولكنهما بدلا من ان يتوجها خارج المحطة ، راحا يطلان من نوافذ العربات الاخرى عليهما يبحثان مقعدا شاغرا .

ثم رجعا وخاطبني الحاجب مواسيا .

- لعل احدهم ينزل في برسيا .

ولكن زميله المدفجعي أجابه :

- على العكس ، سيصعد آخرون هناك .

وأخيرا تركاني وفي نفس كل منهما غصة .

ظللنا وقوقا ، حتى ابتعدت عنا أضواء المحطة ، ثم استلقيت على أرض
العربة واضعا يدي حول رأسي ، وانغرقت في النوم ولم استيقظ الا ونحن في
برسبيا، على اني سريعا ما عاودت النوم، كالكثيرين من المسافرين حتى نهاية
الرحلة .



ها هو الخريف قد اوشك ان يولي وساثر الاشجار ما زالت كثيفة ،
عارية من اوراقها ، والارض موحلة عمسيرة المسالك وانا في طريقي من الودين
الى كوريزيا ، في جوف شاحنة فارغة مسرعة ، التقيت بها عرضا ، فتجاوزت
بي عدة عربات كانت تسبقها ، وتابعت سيرها الجنوبي ، بينما رحلت انا
أتأمل الريف الساكن في حقوله الرمادية الداكنة ومزارعيه الموزعين هنا وهناك
يهيئون للحياة في زمن الموت .

ثم ترامت لي مباني المدينة في ظلال طبقة من الضباب ليست كثيفة ،
وبعد ان اجتزنا النهر المتدفق غزيرا ، دخلنا المدينة ، وسرنا بين مصانعها
وبيوتها ، ومنذ الوعلة الاولى ، اتضح لي ان عددا اكبر من المباني قد دمرته
القنابل ، وان عددا اخر قد لاقى نصيبه من التشويه والتخريب .

وفي الميدان الصغير حيث يقوم مبنى رئاسة بلدية كوريزيا ، توقف
الناسق . وتناولني امتعتي ، فحملتها وسرت متهاديا ، ابحت عن الدار التي
كنت اسكنها دون ان يخالجنني شيء . ولو ضئيل جدا ، من شعور العائذ الى
منزله . واخيرا ، ظهرت امام عيني وجميع نوافذها مغلقة ، كأنها في شبه
هجران ، اقتربت منها ودفعت الباب ودخلت ، وهناك وجدت الماجور جالسا
في المكتب في غرفته الفارغة العارية ، اللهم الا من خراط البلدان ، والاوراق
المطبوعة ، معلقة جميعها على الجدار امام ناظره .

— مرحبا ، كيف حالك ؟

— على ما يرام ، كيف الامور عندكم ؟

— لقد انتهى كل شيء . ضح أمتعتك ، واجلس هنا .

— ادنيت الكرسي الشاغر ، وجلست استمع اليه .

— لقد كان صيغا مضتيا سيء الطالع ، هل استعدت نشاطك ؟ — نعم .

— وهل تقلدت الاشرطة العسكرية ؟

— نعم ، حصلت عليها جميعها ، اشكرك كثيرا .

- دعنا نراها .
- فككت أزرار معطفي ، وأشجته جانبا كيما يراها .
- هل استلمت الاوسمة ؟
- لا أوزاقها فقط .
- سنصنك قريبا .
- وماذا تريد ان أفعل الآن ؟ السيارات جميعها في الجبهة ، ست منها في كايورتو . هل تعرف كايورتو ؟
- ما زلت أذكرها ، انها بلدة صغيرة في سفح الوادي ، انهم يعملون بقربها ولقد كثر عدد المرضى هذه الايام ، بعد ان توقف القتال .
- وأين السيارات الاخرى ؟
- انتنان في المركز الجبلية ، واربع ما زالت في بانسيزا ، أما فريقا الاسعاف فيعملان برفقة الجيش الثالث .
- وماذا تريدني ان افعل ؟ - بإمكانك الذهاب الى بانسيزا اذا شئت ، واستلام السيارات الاربع ، وهناك ستجد جينو ، الذي مضى عليه وهو في الخدمة فترة ليست بالقصيرة . هل رأيت المنطقة قبلا .
- لا .
- كانت الاحداث فيها سيئة جدا .
- أعرف ذلك .
- هل اخبرك رينالدي !
- أين رينالدي ؟
- في المستشفى ، لقد ازهق في هذا الصيف المشؤوم .
- كذلك كنت أتوقع . لقد كان فصلا سيئا جدا .
- أعرف ان ذلك كان من حسن حظي .
- السنة التالية ، ستزيد الحالة سوءا ، ولربما شنوا هجوما عاجلا ، فقد اعلنوا انهم سيبدأون خلال الايام القليلة القادمة ، السم تلاحظ مجرى الشهر ؟
- بلى انه مرتفع جدا .
- لا ، لن يهاجموا قريبا ، فالامطار بدأ هطولها غزيرا ، ولكن ماذا عن مواطنيك الاميركيين ، هل سيلتحق بجيشنا آخرون فميرك ؟
- انهم يدربون جيشا من عشر ملايين جندي !
- أرجو ان يتجدونا بجزء منه ٠٠٠ ولكن لا ، ستلتهم الجبهة الفرنسية جميعهم ، على كل حال اسبق الليلة هنا ، وغدا في الصباح الباكر ، تطلع

بالسيارة الصغيرة لتحل مكان جينو الذي ينبغي ان يعود فوراً ، وسأرسل معك من يدلك على الطريق ، وعندما تصل يطالعك جينو على كل شيء . . . والظاهر انهم ما زالوا يوالون اطلاق القنابل ، على اني اعتقد ان القتال الجندي قد انتهى ، كما انك ترغب في رؤية بانسيزا ، اليس كذلك ؟
- نعم ، اني مسرور لرؤيتها ، ولكن سروري الحقيقي اني عدت للعمل تحت امرتك ثانية .

فاجاب مبتسماً : هذا لطف منك ، الحقيقة اني تعب جدا من الحرب وأظن لو أتيت لي الذهب بماذونية لما رجعت مطلقاً .
- هل الحالة سيئة الى هذا الحد ؟
- اسوأ بكثير مما يمكن تصوره . . . على كل حال ، اصعد الآن وانسل جسديك ، وتحدث الى رفيقك رينالدي .

خرجت حاملاً امتعتي قاصداً الغرفة ، وهناك شاهدت أدوات رينالدي ولكني لم أره هو فجلست على سريري وحللت ملابسي ونزعت حذاءي الايمن ، ثم استلقيت على ظهري . كنت مجهداً ، وقدمي اليمنى تؤلمني ، ولم يكن من اللائق ان اتمدد فوق السرير هكذا . ومن على السرير لمحت أغراض مجموعة في إحدى الزوايا .

ظلمت على هذه الحال ، أقلب مختلف الامور في رأسي ، حتى أحسست ان هواجسي تتجه نحو كاترين ، وفيما انا احاول ابعاد شخصها عن مخيلتي ، الى ان يحين موعد نومي ، اذا برينالدي يقف مندهشاً في الباب ، يتطلع نحوي وقامته المديدة قد بدا عليها الضعف قليلاً :

- أهلاً بك يا ابني .
فاعتدلت في جلستي ، وأسرع هو الي وزاح يقبلني بحرارة ظاهرة .
« ايها الطيب ، دعني أرى ركبتيك » .
- لا بد من نزع سروالي .
- انزعه فتحن زميلان ، ولا يوجد انسان غريب هنا . أريد ان أرى ماذا فعلوا بها .

فنهضت ونزعت السروال ، ثم رفعت المشد السميك الموضوع حول الركبة بينما جلس هو على الارض ، وأمسك بها وأخذ يثنئها ويفردها ، ثم مرر أصبعه على الجرح وضغط بكلتا يديه حول الركبة ، وبعدها شرع ينقر على موضع العظام بعقد أصابعه .
- هذه الدرجة فقط تستطيع ثنيها ؟

- نعم *
- من الجريمة ان يعيدوك الى الجبهة *
- على كل حال ، انها احسن من السابق *
- تم صرخت : آه .. يكفي *
- لا بد من تدريها مرة اخرى *
- انها احسن من السابق بكثير *
- اعرف ذلك ، فهذه قضية افهمها اكثر منك *
- الركبة وحدها جسد قائم بذاته ، جسد مركب *
- وزاح يشرح عنها باسهاب ثم اردف : اخبرني كل ما تم بشأنها *
- لا يوجد شيء هام يمكنني اخباره لك ، قضيت اياما هادئة مريحة *
- طبعاً عشت كما يعيش الازواج . تكلم ما بك ؟
- لا شيء ، ما بك انت ؟
- لقد انهكتني الحرب ، كادت تدمرني *
- آه ! ..
- آية حياة هذه يا ابني ! لا يستطيع الواحد منا ان يتطلع نحو غده ،
- ان يحقق رغباته الانسانية ، ليس من حقي التمتع ببعض ما اتوق اليه ؟ الا
- يسمح لي بممارسة ما اشتهيته ؟
- وكيف لا ؟
- طيلة ايام الصيف والخريف ، وانا مرهق في العمل ، والله يا صبي
- لقد اصبحت جراحاً ماهراً *
- بشري سارة *
- انا لا استعمل عقلي ابداً ، لا اجهد تفكيري ، لا ، واسم الاله ، اني لا
- افكر مطلقاً ، فقط اندفع في العمل *
- هذا حسن على كل حال *
- ولكن الآن يا ابني قد انتهى كل شيء ، ولذلك اجد نفسي كالمعتوه ،
- انها حرب مخيفة وهيبية ، لقد اتعبتني حضورك ، هل جلبت اسطوانات
- الابورا ؟
- نعم ، وكنت قد وضعتها في محفظتي ، ولكن تعبي الشديد اقعديني
- عن النهوض لخراجها ، وكأنه لاحظ ذلك في ، فابندرني :
- الا تشعر بالراحة ؟
- أشعر بالجحيم *

هذه الحرب تدعو الى اليأس ، هلم نحتمي بعض الخمر ، ونرفه عن
تفسيئنا ونزيل ما يتبقى من الهم والافكار السوداء . . . وعندها تشعر بالراحة
والانتعاش .

لقد اصبحت بداء الريقان ولا استطيع احسناء الخمر .

- آه يا عزيزي ، بأية حالة عدت لي !

- سأحتمي بعض الجرعات .

أسرع زينالدي الى طرف الغرفة واحضر كأسين وقارورة كبيرة .
- انه كونيالك نمساوي ، ماركة النجوم السبع ، الشيء الوحيد الذي

كسبوه في سان جبريل .

- هل كنت معهم ؟

- لا ، لم أقادر هذا المكان ابدا ، بقيت اعمل هنا طول الوقت ، ها

انظر تلك فرشاة اسنانك العتيقة ، احتفظت بها مدة غيابك لتذكركني بك .

- لتذكرك بتنظيف اسنانك .

- عندي فرشاتي الخاصة . ثق اني احتفظت بها لتذكركني بك وانست

تحاول في كل صباح ازالة مخلقات الليل عن اسنانك وتتناول حبوب الاسبرين
وتلعن الغائيات والذي سيعود اليهن . تراهي لي أنك تحاول تنظيف

ضميرك بواسطتها .

- قبلتي وقل أنك لست ناقما .

- لن أقبلك ابدا ، قانت قرود احمق .

- أعرف ذلك ، بينما انت الشاب الانجلو اميركي الجميل المهذب

يزيل فسقه بفرشاة اسنانه .

- اسكب قليلا من الكونياك .

وقرعنا كأسينا ، ثم شربنا معا ، وزينالدي يضحك مني .

- سادعك تشرب حتى تسكر ثم اخرج كبدك واضع لك بدلا منه كبدا

ايطاليا كي اجعل منك رجلا حقا .

حملت الكاس اريد ملاها ثانية ، ثم نهضت وفتحت النافذة . كان

الظلام ينتشر خارجا ، والمطر قد كف عن النزول ، بينما الجو يبتدر قليلا
قليلا ، يشوبه ضباب خفيف .

عندما رأني زينالدي اطل من النافذة ، والكاس في يدي صاح من مكانه :

- لا تقذف بالكونياك أرضنا ، هاتها لي لاشربها ان لم تكن راغبا

احسناءها .

- كنت سعيدا بلقائه ، لقد مضى عليه سنتان وهو بجوارتي يخفف عني
ويسليني وكنت أشعر نحوه بالحب ، لقد كنا نفهم بعضنا تماما .
- هل تزوجت ؟
 - حتى الآن لا .
 - وهل لا تزال من المتيمين ؟
 - نعم .
 - بتلك الفتاة الانجليزية ؟
 - نعم .
 - هل تعتقد انها صالحة . - احرص .
 - حسنا ، سأريك ابي رجل مذهب . هل هي ..
 - رينالدي ! قلت لك احرص ، فالأفضل ان تصمت .
 - اذن اصمت !
 - كما تشاء .
 - لقد رأيت كيف بدأت المسألة يا رينالدي وكيف تطورت .
 - ها ، نعم ، طيلة حياتي وانا أخوض الجدل في القضايا المقدسة ، على
ان القرص لم تنح لي معك .
 - اليس في خلدك شيء من تلك القضايا الآن ؟ - لا .
 - أبدا ؟ - لا .
 - هل من حقني التحدث كذا عن والدك او عن أختك ؟
 - عن أختك .
 - ردها مسرعا ، فضحكنا كلانا ، ثم تابع :
 - لربما كان بي حسد منك .
 - لا ليس الامر كذلك .
 - لست أقصد الحسد بالضبط .. لك اصدقاء متزوجون ؟
 - نعم . - اما انا فلا حتى ولا في مرحلة الخطوبة .
 - ولماذا ؟ - يعتبرونني التعبان ، تعبان المنطق والحكمة .
 - أخطأت قولها ، ليس التعبان رمز الحكمة بل التفاحة .
 - كلا ! انه التعبان . فاه بها مرحا .
 - اذا من الأفضل ان لا تعمل الفكر كثيرا .

- اني احبك يا بني ، فانت تشبهني كلما احسست بذاتي تتحول الى مفكر ايطالي كبير ، ولكن ثق الي اعرف اشياء كثيرة ، لا استطيع التعبير عنها .
- ولكن لا بد لك في وقت نهنا به ، وتساعد حالك ، حتى رغم استيقاظ ضميمرك وتمالك ، فستحين الايام الجميلة .
- لا اعتقد ذلك .
- بلى بالتاكيد ، عندما انهمك في العمل ، تهذا نفسي وتزول عيومي .
- وعاد يحملق في الارض ، ثم رفع رأسه مردفا :
- اقول لك سنتنصر على ما في نفسك .
- ليس هذا ما اتوق اليه ، ان ما أريد تحقيقه أمرين : الاول سيسيء الي عملي ، والثاني يمكن ان يتم في مدى نصف ساعة أو أقل من ذلك :
- نعم ربما أقل من ذلك .
- لقد صارحتك بالحقيقة .
- كفى ، ينبغي ان نوقف النقاش . انسي مسرور بعودتك ، انت اعز اصدقائي ، وأخي في الحرب .
- ومتى ياكل اخوان الحرب .
- الآن هلم بنا ، ولكن لنشرب كاسا آخر .
- كما فعل القديس بول !
- لست على صواب في هذا ، خذ قليلا نخب معدتك .
- سأخذ كل ما تبقى في القارورة .
- نخب فتاتك ، قالها ورفع كأسه .
- لا بأس .
- لم أقل شيئا يمسها .
- لا تجزع .
- فتابع الشراب ثم أردف :
- انني طاهر النفس بريء النية ، انني مملك . انسي انا الذي عرفت فتاتك اولا ، ولكنها كانت طويلة بالنسبة لي ، حتى انها لا تصلح الا ان تكون شقيقة لي .
- أنت تنعم بذهن صاف .
- وهذا ما يجعلهم يدعونني « رينالدو البراق » .
- رينالدو الضحاك .

- يا بني ، هلم بنا نزل الى غرفة الطعام .
وبعد ان غسلت وسرحت شعري نزلت برفقته ، وكانت الخمرة قد
بدأ مفعولها برأسه ، فخاطبني رينالدي :
- انتظرني كيما أصعد وأجلب قارورة الكونياك ، جلست الى احدى
المناضد انتظره ، وبعد هنيهة عاد وسكب كوبين فصحت به ، وأنا أهم
بتناول الكاس :

- ليس كثيرا بالنسبة للمعدة الفارغة ، انه يحرق المعدة حرقا .
- حسنا .

- يضعف الجسد يوما فيوما ، ويتلف المعدة .
- اذن انت تنصح بالاكثر منه .

- أنصح من قلبي ، فأنا لا استعمل غيره ، اشرب يا بني ولن يطول
بك الوقت حتى تقع طريح الفراش .

وبعد ان شربت ما يقارب نصف الكأس ، علا صوت الخادم ، يدعونا
لتناول الطعام ، ثم حضر الماجور ، وجلس الى المنضدة متسائلا :

- هل نحن جميعا حاضرون ؟
فأجاب رينالدي :

- نعم جميعا ، عدا القس ، وأظنه سيأتي سريعا اذا علم بقدم فرديكو .
- واين هو الآن ؟

- في الثكنة رقم ٣٠٧ سوف يأتي كما أتصور لقد كنت هناك ، وتركت
له ملاحظات تنبئه بقدمك . - القاعدة تفتقر لعنصرها الاصيل .

- حقا انها هادئة لعدم وجوده ، لاضحيج ابدا .
- سأعمركم بالضحيج ، صاح رينالدي .

- اشرب بعض الخمر يا فرديكو ، خاطبني الماجور مألثا كوبي ، ثم
حضرت المعكرونة ، وانهمكنا في التهام خيوطها ، وفيما نحن نمسح أيدينا ،

دخل القس ، فنهضت واقفا وصافحته ، ووضع هو يده الاخرى على كتفي :
- جئت حالما علمت بقدمك .

وهم يقول عبارة أخرى ولكن الماجور قاطعه :
- اجلس . . . قانت متأخر .

وحياه رينالدي بالانجليزية : عم مساء ايها القس .

- عم مساء رينالدي . ثم احضر له الخادم طبق الحساء فرفضه قائلا :
- سابدأ بالمعكرونة رأسا ، والتفت الي قائلا :

- وكيف انت ؟ - على ما يرام . كيف الاحوال عندكم ؟
وقبل أن يجيب قاطعه رينالدي صائحا : اشرب قليلا من الخمر يا قس ،
من أجل معدتك ، فذاك ما فعله القديس بول كما تعرف .
- بل نعم أعرف .
وبحركة عصبية ملا له رينالدي الكوب :
- آآ . القديس بول ، انه سبب متاعبنا . . . أليس كذلك يا
فرديكو ؟

فلم أجبه أما الكاهن فنظر الي مبتسما ، واستطعت أن أدرك انه لا
يعتبر التهجم مصوبا نحوه بينما تابع رينالدي :
- ذلك ، لقد كان مراوغا ، يطارد الصبايا وعندما شاخ وفترت همته
زعم ان هذا الامر شائن ، ووضع لنا ، نحن الذين ما زلنا نحس بحرارة الجسد
اللاهية ، القواعد الخلفية . ولكن بعد ان كان هو قد ارتوى . أليس كذلك
يا فرديكو ؟ فأجسته ، وكنا قد بدأنا بتناول اللحم :
- أنا لا أناقش في امور القديسين بعد غروب الشمس .
فرفع القس رأسه وتطلع في عيني مبتسما ، ولكن رينالدي اجابني
متهمكا :

- ها . . . لقد انحزت الى جانب القس اذا . . . لا بأس . . . أين هؤلاء
الذين كانوا يبرزون الكاهن في الامسيات ؟ أين كافلكانتي ؟ أين قيصر . . . هل
أنا مضطر ان احارب هذا القس وحدي ؟ دون أي معين ؟
- ولكنه كاهن طيب ، قال الماجور .

- أعرف انه طيب ، ولكنه كاهن على كل حال . . . لا بأس . . . اني احاول
ان اعيد للقاعدة مرحها السابق ، مرح أيامها الماضية . . . كيما يسير فرديكو
ويهنأ . . . وعلا صوته : لياخذني الشيطان ايها القس .

فتطلع الماجور نحو الكاهن ، مشيرا اليه بان صاحبنا مخمور ، ثم
خاطب رينالدي : أحسنت يا رينالدي . . . أحسنت .

وكان هذا استشعر قيمة عمله ، فآزاد صياحه : الى الجحيم . . . الى
الجحيم بكل هذه المهنة القذرة . قالها واعتدل في كرسيه . بينما التفقت
الماجور نحوي قائلا :

- انه مجهد . . . تحت تأثير ارهاق شديد .
عندما انتهى رينالدي التهام قطع اللحم ، ضرب المنضدة بقبضة يده
وصاح موجها كلامه لها :

— انا لا أهين الناس ، انا لا أريد الا الخير • الى الجحيم بكل هذه القضية •

ثم نظر حوله بعينين محمقتين متحدثتين ، ووجه شاحب ، وقد بدا الارهاق في قسماته بأجلى مظاهره ، فامسكت بيده قائلاً :

رينالدي •• كما تريد •• الى الجحيم بكل هذه الورطة •

— لا ، لا ، أنت لا تستطيع ذلك •• انت لا تستطيع ذلك •• اقول لك انك لا تستطيع ذلك •• انت جاف ، فارغ ولا شيء اخر •• اقول لك لا يوجد شيء اخر •• « لا ورطة ولا من يحزنون » • انا اعرف متى اتوقف عن العمل انا اعرف •

فأطرق القس رأسه ، بينما راح الخادم يجمع اطباق اللحم ، وعندما وصل الى متضدة القس ، صاح رينالدي :

— اخبرني كيف تأكل اللحم هذا اليوم •• الا تعرف انه يوم الجمعة ؟
— انه الخميس •

— كذب ، اليوم هو الجمعة •• انك تأكل لحم الرب انه لحم الله •• انا اعرف •• انه لحم جندي نمساوي ميت •• هذا هو ما تأكله •
فقاطعته متمما العبارة القديمة المعروفة :
— اللحم الابيض وهو لحم الضباط •
فضحك رينالدي ، وملاً كأسه :

— لا تؤاخذوني •• فانا متوتر الاعصاب الى حد ما •

— ولكن ينبغي ان تأخذ اجازتك ، اجابه القس • فهز المايجور رأسه موافقاً ، بينما تطلع رينالدي نحو الكاهن متسائلاً :

— هل تعتقد انه ينبغي ان آخذ اجازتي •

— كما تريد ، ان لم تكن ترغب في ذلك فلا بأس •

— لياخذك الشيطان •• انكم تحاولون التخلص مني ، كل ليلة تحاولون

التهرب مني ، سأحاربهم جميعهم •• واهزمهم •• وماذا لو حصلت على

اجازتي ؟ كل انسان يحصل على اجازته : الجميع حصلوا على اجازتهم ••

اولاً ••

وتابع كلامه مقلداً اسلوب الخطباء : انها قرحة صغيرة •• ثم نلاحظ ان

الطفح الجلدي ينتشر بين الكتفين •• ثم لا نلاحظ شيئاً البتة ونضع ثقتنا

بمادة الزئبق • او بالفضة • قاطعه المايجور بهدوء •

- والتناجح ؟

- نتائج زئبقية .. اردف رينالدي ولكن بخيلاء ظاهر .
ثم دخل الخادم يحمل صينية القهوة واطباق الحلوى المولفة من الفطائر .
و كان الصباح الزيتي الذي ينير القاعة قد أخذ يخرج دخانا ذا رائحة كريهة
فطلب الماجور من الخادم ابداله بقنديلين صفييرين ، ففعل هذا ما أمر به . وفي
هذه الاثناء ، كان رينالدي قد هدأت ثورته ، وظهر كأنه استعاد وعيه . وبعد
ان شربنا القهوة . خرجنا جميعا الى غرفة الجلوس . وهناك اخبرني رينالدي
انه سينتهاز فرصة انشغالي بالحديث مع القس ، ويذهب الى السوق . وبعد
ان حيا الكاهن مودعا التفت الي وحمس في اذني : سأراك الليلة لتحدثني عن
كل شيء . ثم خرج من الباب بعد ان غمزني بطرف عينيه . وكان الماجور ،
ما زال يجلس بيننا . فلما غادر رينالدي المكان قال : كم هو مرهق هذا
الفتى .. انه تعب جدا .. ويعتقد انه مصاب بالسفلس الامر الذي لا اظنه
حقيقة .. على كل حال لا بأس ان يعالج نفسه .. والآن . عما مساء ايها
الصنديقان .. هل ستقادر قبل الشروق يا فردريكو ؟

- نعم .

- اذن وداعا . وارجو لك مهمة موفقة .. بدوزي سيوظك ويذهب
برفتك .

- وداعا ايها السنيور ماجوري .

- وداعا .. انهم يتحدثون عن قرب قيام هجوم نمساوي الامر الذي
لا اثق به وارجو ان لا يتم . وعلى كل حال .. لن يشنوه في هذه الناحية ..
سيخبرك عن كل شيء . والهاتف بدأ يعمل بصورة حسنة هذه الايام .

- سأتصل بك بواسطة اذا .

- ارجوك لا تنسى ذلك أبدا . عم مساء .. لا تدع رينالدي يكثر من
الخمير .

- سأحاول ذلك .

- عم مساء ايها الكاهن .

- عم مساء . سنيور ماجوري ..

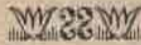
- انقطع سقوط الامطار في الخارج ، ولكن الضباب ما زال يملأ الجو ،
قلت للقس : هل تفضل الصعود الى الطابق العلوي ؟
- لن استطع البقاء طويلا على كل حال .
 - هلم بنا نصعد .
- دخلنا الغرفة ، وتمددت أنا على السرير بينما جلس هو على الكرسي
الصفير الذي جلبه الخادم ، وبعد أن استقر في جلسته بادرنى :
- كيف أنت بالضبط ؟
 - على ما يرام . ولكنني اشعر بالتعب هذه الليلة .
 - وأنا تعب أيضا . . . ولكن دونما سبب .
 - ماذا عن حالة القتال ؟
 - أعتقد أن الحرب ستنتهي سريعا . لا اعرف لماذا . ولكن أحس بذلك
احساسا قويا .
 - وكيف تحس بذلك ؟
 - أنت تعرف كيف كان ماجور فرقتكم . ألم تدرك الليلة انه تراجع
عما كان يصر عليه . وان روحه متقهقرة . . . وكثيرون الآن الذين اضحوا في
مثل حالته .
 - لقد كان صيفا مرعبا دمر معنويات الرجال . قال ذلك وفي لهجته
تأكيد وثقة لم أعهدا عنده من قبل . . . واردف :
 - لن تستطيع ان تتصور كم سيئة كانت الحالة ، الا اذا شهدتها بأم
عينيك . . . كثير من الناس لمسوا شرور الحرب من جراء احداث الصيف ،
حتى الضباط الذين كنت اعتقد أنهم بعيدون عن الميدان الحقيقي ، ولن يتاح
لهم ادراك مساوىء القتال ، حتى هؤلاء لمسوا بانفسهم الى أية درجة انهكت
الحرب الرجال .

- وما الذي سيحدث ؟
- لست أدري . انما اتق انها لن تستمر طويلا .
- وكيف تأمل ان يتم ذلك ؟
- سيوقفون القتال .
- من ؟
- كلا الجانبين .
- أرجو أن يقع هذا .
- انت لا تعتقد به .
- انما لا اعتقد ان كلا الطرفين سيوقفان القتال فورا .
- وانا ايضا افترض ذلك ، فهذا اكثر مما نرجو ونتوقعه . ولكن عندما تلمس هذا التحول في نفوس الرجال وافكارهم ، تؤمن انها لن تستمر طويلا .
- ومن الذي كسب المعارك هذا الصيف ؟
- لم يكسبها احد .
- بلى ، النمساويون كسبوا . منعونا من الاستيلاء على سان جبريل .
- وحالوا بيننا وبين التقدم مسافة ما باتجاه الشمال ولذلك اعتبروا هم الرابحين ، والذي اعتقده انهم لا يتوون ايقاف القتال .
- اذا كان جنودهم يشعرون بما نشعر به نحن ، فمن المحتمل جدا ان يوقفوه . ان قواهم الحقيقية قد انهارت ، شان قوانا .
- لا يوقف القتال من يعتقد أنه الراجح .
- اني أقول ما اعتقده صوابا .
- اذا أنت تعتقد انها ستستمر وتستمر ، ولن يحدث شيء ابدا .
- لست ادري ، كل ما استطيع تأكيده هو أن النمساويين لن يوقفوا القتال بعد ان كسبوا انتصارات عدة . فمن لا ندين بالمسيحية الا عند الهزيمة .
- النمساويون جميعهم مسيحيون ، عدا طائفة البوستيانس .
- أنا لم أقصد الكلمة بحرفيتها ، انما أردت بالمسيحية حب الخير والسلم والتخلق بصفات الله .
- فلم يجب شيئا ، بينما تابعت أنا :
- نحن الآن نميل الى الخير وايقاف القتال لاننا مهزومون وكيف كان

- يمكن أن يكون سيدنا المسيح لو ان تلميذه بطرس انقذه في الحديقة .
- تماما كما هو ، لن يغير ذلك منه شيئا .
 - لا وافقك على هذا .
 - أنت تجعلني أياس . . . اني اعتقد واصلي من اجل حدوث شيء .
 - وكنت احس بوقوعه عاجلا .
 - لربما حدث شيء ولكنه سيحدث من قبلنا فقط . أما اذا كانوا حقا يعانون ما تعانيه نحن فالنتيجة ستكون على ما يرام . . . ولكنهم همومنا واحساساتهم لا بد ان تكون اشد حماسا وعزيمتهم أقوى .
 - الكثيرون من جنودنا ، كانوا دائما ، ومنذ البدء يحسون بقرب النهاية . . . وينفونهم من الحرب ، ولم يكتفوا بعد مهزومين .
 - بلى ، كانوا مهزومين عندما اجبروا على الاشتراك في الحرب ، كانوا مهزومين عندما انتزعوا من مزارعهم وبيوتهم وأرهموا على الانخراط في الجيش ، وهذا بالضبط ، سبب ما نراه من حكمة في اقوال الفلاح ، انه مهزوم منذ البداية . وضعه في موضع القوي المنتصر وانظر كيف تغدو آراؤه .
 - وعندما أتممت عبارتي كان قد أفرق في تفكير عميق ، دون أن يبدو عليه اي استعداد للاجابة ، ولذلك تابعته .
 - لقد آلمت نفسي الآن ، وعذبتها ، وهذا ما يجعلني أتجنب الخوض في هذه الامور . اني لا أحاول مجرد التفكير بها مطلقا ، ومنذ ما شرعنا بالحديث ، وانا اقول ما استنتجته من الحقائق البديهية ، دون اي جهد في التفكير .
 - لقد كنت ارجو حدوث شيء ما ؟
 - الهزيمة ؟
 - لا ، أكثر من ذلك .
 - لا يوجد أكثر من الهزيمة ، الا النصر ، الذي يمكن ان يكون أسوأ في بعض الحالات .
 - لقد آلمت بالنصر زمنا طويلا .
 - وكذلك انا .
 - والان لا اعرف بماذا أؤمل نفسي .
 - لا بد ان تكون النتيجة أحد الأمرين .
 - لست آمل بالنصر بعد اليوم .
 - وانا كذلك ، ولكني لا اعتقد بالهزيمة ايضا رغم انها يمكن ان تكون

افضل *

- واذا بماذا تؤمن *
- في النوم *
- فوقف قائلا : انني آسف لكوني اطلت مكوثي ، ولكنني احب التحدث اليك كثيرا *
- جميل جدا ان نعود الى هذا الحديث في فرصة قادمة ... ولست أقصد بايماني بالنوم امرا معيناً *
- ومددت يدي مصافحاً ، والظلمة تعم الغرفة :
- اني اقيم في السكنة رقم ٣٠٧ *
- ولكنني سأذهب الى المراكز الامامية غدا صباحاً *
- اذا سأراك عندما تعود *
- حسناً وسنعود الى هذا الحديث ثانياً *
- وسرت بجانبه ، اريد تشييعه *
- يكفي ... ارجوك ان لا تنزل السلم ... كم هي عزيزة مسرة ، عودتك اليها ، مع انها ليست صالحة بالنسبة لك *
- ووضع يده على كفي ، فأجبتة :
- لا ، انها صالحة بالنسبة لي ، ان هذا ما كنت ارجوه ... عم مساءً *
- عم مساءً *
- الى اللقاء ، قلتها وانا اغمض عيني *



القطائر الحلوة بين اصناف الطعام ، رغم اني لم اصفها له كما ينبغي . وانما اكتفيت فقط بذكرها ، والظاهر انه تخيلها اكثر من الخبز المحمر المغطس بطبقة رقيقة من السكر .

وفيما السيارة تدرج بنا ، سألني اذا كنت اعرف وجهة سيرنا ، فأجبتة بالنفي معنا جهلي بنواحي المنطقة ، قائلا : ان كل ما اعرفه ان بعض سياراتنا موجود في كابوريتو . والظاهر انه كان يحب كابوريتو هذه ، فقد صارحني برغبته في الانتقال اليها ، لانها كما قال : مكان جميل ، فتان المناظر ، تنتصب الجبال الشامخة حوله ، من كل الجهات ، الامر الذي يتعشقه هو ويضطرب له . كان جينو فتى طيبا ، لطيف المعشر يميل اليه والى رفقته كل من يتعرف به ، وما ان شرع بالتحدث عن كابوريتو حتى ظهرت على وجهه انفعالات اثقل القلب الطاهر البريء ، ثم اردف :

— اما الجحيم الحقيقي فقد كان في سان جبريل ، حيث فشل الهجوم الذي اعد له طويلا . ان النمساويين يملكون مدفعية ضخمة ، وافرّة العدد موزعة في الغابات ، وهم ينتحون قوعتها باتجاه الطرق كل ليلة وعندهم كذلك نوع من المدافع البحرية ، تمزق الاعصاب برئيرها ، يطلقونها عادة كل اثنتين معا ، فتنتثر شظاياها الكثيرة في كل مكان . وارانبي واحدة منها . قطعة معدن ملساء مسننة الاطراف اطول من القدم بقليل .

— ولكني لا اعتقد انها ذات مفعول قوي ، تابع جينو : ومع ذلك فهي ترعبني كثيرا ، جميعها تزار فجأة ، كأنها قادمة نحوك مباشرة ، ثم تسمع الصفيير الحاد ، وبعده الانفجار المروع وحينئذ ، ما فائدة نجائك من الجراح اذا كنت قد شارفت على الموت خوفا النمساويون واضرو العدد ، توجد بينهم فرقة الكروتس الشهيرة ، وبعض التاكيارز ، ورغم ذلك فجنودنا ما زالوا ممسكين بزمام الموقف مع انهم لا يملكون اجهزة لاسلكية تصلح للاستعمال عند الحاجة ، وكذلك لا وجود للمكان الصالح اذا ما اقتضى الحال ضرورة التراجع ، اما البقاع الملائمة لاتخاذها مراكز دفاعية ثابتة ، فلم يعمل شيء في سبيل تحصينها وتنظيمها . . .

— كيف كنت تتصور البانسييزا ؟

— اكثر انبساطا وأقل تشعبا .

— انها كمقدمة جهاز البيانو ، مع ان واقعها ابعد ما يكون .

وعندما رجعنا الى غرفته صارحته برأيي : ان خندقا محصنا متينا خير للدفاع من كل هذه المرتفعات المتناثرة . ودعمت قولي بالاعتماد على ما يفعله الفرنسيون ، مردفا :

- وفي الماضي ، كان النمساويون يهزمون في الأراضي السهلية حول فيرونا ، كانوا يستدرجون الى المقاع المنبسطة ويسحقون سحقاً .
- نعم ، عندما تكون الحرب في ارض عدوك تستطيع التصرف حسب ما تشاء ، وتذليل جميع العقبات الجغرافية .
- حقا ، أما في وطنك فلا تستطيع التصرف كما ينبغي .
- ولكن الروس فعلوا ذلك ، واستدرجوا نابليون .
- هذا صحيح ، على انهم يملكون اراضي واسعة جدا بينما اذا اردت استدراج نابليون في ايطاليا ، فستجد نفسك في جوار برانديزي كأنك تستعد للرحيل .
- برانديزي . . . مكان مزعج هل اتفق لك أن زرته ؟
- زيارة عابرة .
- رغم اني من مواطني ايطاليا . ولكن لا يمكنني أن اشعر بحب نحو أي من برانديزي أو تورنتو . . .
- اذا هل تحب البانسيزا ؟
- تربتها طيبة جدا ، ولكن لبيتها فتتح أكثر من البطاطا . اظنك تعلم أنه يوم جئناها وجدنا حقولها قد زرعها النمساويون بطاطا .
- وهل قلت كميات الطعام حقا !
- أنا شخصيا لم اتمكن من الشبع في أية وجبة .
- ورغم اني اكل من الدرجة الكبيرة ، على اني لم اشعر بالجوع حتي الآن . فالكمية متوسطة المقدار ، والذي علمته أن الجنود في الخطوط الامامية يتعمون بالطعام الجيد ، بينما أولئك الذين في الخلف يعانون نقصا حتى في ابسط انواع المأكولات ، هناك خطأ في ناحية ما ، يجب أن يتوفر الطعام .
- ومع ذلك فهم يبيعون السمك في أماكن أخرى .
- انهم يقدمون فقط للمحاربين في الصفوف الامامية ، كل ما يطلبونه ، بينما تعاني المؤخرة نقصا فاضحا . لقد اتوا على كل البطاطا التي زرعها النمساويون ، ينبغي أن يطعم الجنود بشكل أفضل . نحن اكلون ، نهمون جدا . اني واثق من وجود وفرة في المواد الغذائية ، ومن أسوأ الامور بالنسبة للجندي ، ان لا يقضى كما ينبغي ، ألم تلاحظ كيف يؤثر ذلك في أسلوب تفكيرك ؟
- حقا ، فانت لا تستطيع عندئذ كسب الحرب ، بل تنجح في خسرتها .
- نحن لا نتحدث عن الخسران ، رغم أن هنالك الكثيرين يتحدثون عنها . . . فالذي جرى في هذا الصيف . . . لن يذهب سدى دون أن يترك اثرا

استيقظت على صوت رينالدي يدخل الغرفة . ولكنه ظل صامتا ،
فعدت الى الاعغاء ثانية ، وفي الصباح الباكر لبست ثيابي ، وغادرت الغرفة ،
وضوء الصباح لم يعم بعد ، ورينالدي ما زال مغرقا في النوم .
لم اكن قد رأيت منطقة بانسيير قبلا ، وكان من الامور المؤثرة المثيرة ،
ان ارتقي بسيارتي المتحدر الذي كان النمساويون يعسكرون فيه ، وراء
رقعة النهر ، حيث اصابتني القنبلة .

وكانت هناك طريق جديدة ، عمودية الانحدار ، يسير فوقها عدد من
الشناحنات ، وتنتهي عند احدى القرى المدمرة ، التي تقع خطوط القتال الامامية
الى ما وراءها ، ولذلك ركزت حولها بطاريات المدافع الضخمة ، ونظمت الامور
داخلها بصورة يستطيع معها الاستمرار في العمل ، بعد ان اتلفت القنابل
معظم منشأتها ومبانيها العامة .

وعلى مسافة قصيرة من القرية ، التقينا بجينو وبعد ان قدم لنا القهوة ،
ذهبت برفقته وتفقدت المراكز الطبية ، والتقيت اثناء ذلك باناس كثيرين .
أخبرني جينو ان البريطانيين يعملون بعيدا قرب حدود البانسيير ، في
جوار رافنا ، وكان معجبا بهم كثيرا ، ينني على طريقتهم في العمل . وبعد ان
اتم حديثه عنهم ، انتقل الى حالة الجبهة ، قائلا ، ان تبادل القنابل
ما زال مستمرا ولكن على نطاق محدود ، وباصابات قليلة ، على ان عدد
المرضى من الجنود سيزداد من جراء عطول الامطار ثم اُردف :

— من المتوقع ان يشن النمساويون هجوما عاجلا . . . ولكني لا اعتقد
امكانية حدوث ذلك ، وكذلك نحن ، لم يرد الى الجبهة اية فرق جديدة تشير
الى احتمال قيامنا بهجوم قريب .

— وفهمت من حديثه ان الطعام نادر هنا ، لذلك سيسر كثيرا عندما يتم
بتناول الوجبات الدسمة في كوريزيا . وعندما اجبته على سؤاله مسم تالف
عشاء الليلة الفائتة دهش كثيرا ، وبدا عليه التأثر العميق ، خصوصا لوجود

بليغا .

فلم أقل شيئا . كنت دائم التأثير بالالفاظ الرنانة: مقدس . . . مجيد . . .
تضحية . . . وبقية التعابير الفارغة الاخرى . . . لقد سمعناها مرارا ونحن نقف
في العراء ، تحت وابل الامطار ، بعيدا عن مصدرها الحقيقي ، وقد قرأتها
مكررة ملايين المرات ، في نشرات الاذاعة الدورية . . . التي تتكسر بعضها
فوق بعض ، ومع ذلك فلم تكن نسمع ، الا الالفاظ الداوية الطنانة ، وما أنا
الآن ، وعند زمن ليس بالقصير ، لا أجد فيما حولي شيئا مقدسا مجيدا .
والاشياء التي كانت مجيدة لم تكن كذلك ، والتضحيات كانت كذلك التي
تجري في مخازن شيكاغو ، يطمرون اللحم عندما لا يجدون وسيلة يستفيدون
بها منه .

هناك كثير من الالفاظ التي لا يمكن الاستمرار في الاعجاب بها
وسينحصر المجد أخيرا في أسماء بعض الأماكن وأرقام الفرق العسكرية ،
وتواريخ الأيام ، وبقايا القرى الحجرية المدمرة ، وأمواه الانهار المصبوغة
بالدم الاحمر .

.. .

لم يلبث جيتو طويلا حتى غادرني برفقة بدوزي عائدين الى كوريزيا ،
وكانت العاصفة التي هبت منذ الصباح قد اشتدت ، وحملت رياحها الامطار
الغزيرة ، فعم الوحل جميع الطرقات ، وجرت المياه المتدفقة في كل النواحي ،
وبدا طين البيوت المهتمة رماديا مبللا . ولم ينقطع المطر حتى ساعة متأخرة
من المساء . ومن شرفة المركز الثاني رحت أتأمل الريف الرطب العاري ،
والغيوم تزحف فوق هضابه ، وأشرفت الشمس فترة قصيرة قبيل غروبها ،
فتللات رؤوس اشجار الغابة وتجلي منظر الطبيعة جميلا فاتنا .

وبين اشجار تلك الغابات ، كانت تكمن المدافع النمساوية ولكنها لم
تشارك جميعها بالوقوف ذاك المساء ، كما أن العاملين عليها لم يصوبوا
قذائفهم نحو المركز الطبي ، حيث كنا نستعد لاستقبال الجرحى ، ومن
الشرفة ذاتها التي وقفت فيها أتأمل جمال الطبيعة ، رحت أراقب اندفاع
القنابل العمياء ، تنفت دخانها أولا ثم يزار رعيقتها وتنتشر شظاياها المسننة
في كل اتجاه .

ملأنا سيارتين بالجرحى ، وسرنا فوق الطريق المغطاة بالحشائش
المبللة ، ولم نكد نقطع مسافة قصيرة حتى عاودت الامطار عطلها الغزير .

وفي الثالثة صباحا ، والريخ تعصف عصفا مريعا ، والمطر يتساقط
مدرارا ، اهتزت جدران المركز على حين غرة ، ودوى انفجار مرعب تبعه
قذف متواصل ، ثم علمنا ان فرقة الكروتس النمساوية قد شنت هجوما عاما ،
عبر السفوح وخلال الغابات المحيطة ، ولكن هجوما معاكسا من رجالنا المدعورين
ردعا على أعقابها ، بعد اصطدام في ثنايا الظلمة وتحت وابل الامطار . الا ان
دوي الطلقات وأزيز الرصاص ، واطلاق الصواريخ ظل مستمرا على طول
الجبهة .

وفي برهة قصيرة امتلأ المركز بأجساد الجرحى ، وصل بعضهم محمولاً
على المحفلات ، والبعض ماشياً ، وآخرون على ظهور زملائهم من الجنود ، أتوا
بهم عبر الحقول الموحلة ، كانوا جميعهم مبللين حتى البشرة ، وجميعهم هلعين
مدعورين . ولم نكد نملاً عربتين بذوي الجراح البليغة حتى تحول المطر الى
حبات ثلج كبيرة ثقيلة متسارعة النزول .

في فجر اليوم التالي تناقلت بعض الاسئلة خبرا مفاده ان النمساويين
اخرقوا خطوط الدفاع الشمالية ، وان أمرا بالتراجع سيصدر قريبا ، وكنت
حينئذ في مقر القائد ، الذي اتصل بمركز البريجادير فاتفهم ان يجب الدفاع
عن البانسيزا مهما كلف الامر ، فسألته عن صحة نجاح النمساويين في اختراق
الخطوط الشمالية قرب كابورينو بعد معركة استمرت طيلة النهار ثم أردف:
- اذا تمكن هؤلاء الانفال النمساويون من الاستمرار في التقدم فذلك
يعني دمارنا .

وهنا تدخل أحد الضباط الحاضرين : - علمت ان الدين قاموا
بالهجوم ، جميعهم من الالمان !
وكانت هذه الكلمة تثير الرعب ، فالكل يتحاشى الاصطدام بالالمان ،
وينحسب القتال ضدهم .

- يوجد خمس عشرة فرقة منهم ، تابع الضابط :
- لقد شقوا ثغرة واسعة وسوف يقطعون خط الرجعة علينا .
- ولكنهم في القيادة يقولون ان الثغرة ليست خطيرة وانهم سيحتفظون
بخط الدفاع مهما كلف الامر ، كما انهم سيعدون خطا دفاعيا جديدا بين
الجيال .

فسألته : كيف علمت بهذا ؟

- من القيادة .

- وخبر التراجع اتى من القيادة أيضا ونحن نعمل بأمر قائد الفصيل ،
ولكننا الآن تحت أمرتك ، ومن الطبيعي انني سأنفذ أوامرك ، شريطة ان

- تلقاها مباشرة من مركز البريجادير .
- الاوامر تقول بوجود المقاومة . عليك نقل الجرحى من هنا الى مركز التضמיד .
- ولكننا في بعض الاحيان لنقلهم من مراكز التضמיד الى مستشفيات الميدان ، اخبرني قانا لم اشترك في عمليات تقهر بعد . فاذا ما وقع شيء من هذا ، كيف سنجلي الجرحى ؟
- ليس من الضروري اجلاء الجميع ، انقل العدد الذي تستطيعه واترك الباقين .
- وماذا سنحمل في السيارات ؟
- معدات المستشفى .
- حسنا .

قضى الامر ، وشرعنا في منتصف الليلة التالية ، بالتراجع العام ، كان تراجعاً مقيتاً مضطرباً ، ينذر بالشؤم ، الطرقات مزدحمة ، وجنود المشاة يهرولون فوقها بملابسهم المبللة ، المطر يتساقط عليهم غزيراً ، تتخللهم العربات والشاحنات والبغال المحملة ، والكل في صلح وذعر شديدين ، يدفعان بهم بعيداً عن الجبهة ، في فوضى بشعة لم أشهد أسوأ منها .

وقبل أن يبلج الصبح استطعنا تقريب مستشفيات الميدان المقامة مؤخراً في انقاض القرى المدمرة ، خلف الجبهة ، بعد أن أنزلنا الجرحى الى بلافا قرب النهر ، وفي اليوم التالي استمررتنا النهار بكامله ، ونحن نكدح لنقل المستشفى ومراكز التضמיד من بلافا ، والمطر لم ينقطع تساقطه عنا ، ولا عن جيشس اليانسييزا الذي عبر النهر ، واجتاز ضفافه الخصبة حيث أحرز في ربيع السنة الماضية ، انتصارات عدة .

بلغنا كوريزيا ظهراً ، كانت مهجورة ، خالية من الاحياء ، اللهم الا بنات بيت الدعارة اللواتي كانوا يحشرونهن في شاحنة كبيرة ، استعداداً لترحيلهن ، وقد ارئدين معاطهن وقبعاتهن ، وأمسكن الحافظ الجليدية بأيديهن ، بينما راحت اثنتان منهن تبيكان بصوت مسموع ، ومدت واحدة أخرى رأسها ضاحكة في وجهي مخرجة لسانها بحركة معنّاج ، كانت شفثاها غليظتان ممتلئتين وعيناها سوداوتين .

ثم تحركت الشاحنات ، فلوحت لنا بيدها وفهقت فهقة مصطنعة ، وكذلك فعلت رئيستهن .

- ينبغي أن تذهب معهن ، خاطبني السائق بونلو الذي جلست بجواره .
- ثم أردف . ستكون رحلة موفقة .
- سنقوم برحلة موفقة على كل حال .
- الى الجحيم طبعاً .
- هذا ما غنيته .
- ولكن هل تعرف انهن قطات سليطات اللسان .
- او انت ؟
- كل جندي في الجيش الثاني يعرف رئيستهن ، انهم يدعونها بالام الكبرى ، فهي قديمة العهد هنا بينما البئات جنن مؤخرا . قبل التراجع بايام قليلة .
- سينلن حظهن في مكان آخر .
- طبعاً ، ذلك امر مؤكد ، كم أرغب أن انعم بهن جميعهن . ولكن دون مقابل ، يتقاضين مبالغ فاحشة ، الحكومة تستغلنا استغلالاً بشعاً ، انها تسرق روابنا .
- خذ العربية كي يتفقد الميكانيكي أجهزتها ، ثم املاها زيتاً وبعدها عد لتأخذ قسطك من النوم .
- كانت التكنة شامخة مظلمة ، وقد غادرها رينالدي مع اثبات المستشفى وكذلك فعل المناجور ، تاركا لي مذكرة يطلب فيها أن أملا السيارات الثلاث بسعتها من الامتعة المقدسة في القاعة الكبرى ، وأن أنجه نحو بورديتو بالسرعة الممكنة ، وفيما أنا أبحث عن الميكانيكيين ، الذين لم أجد لهم أثراً ، وصلت السياراتان الاخرتان ، وخاطبني بياني سائق اولاهما ، بصوت متهدج :
- انني تعسان جدا ، كادت عيناى أن تناما ثلاث مرات وأنا في الطريق أقود من بلانا . ماذا سنعمل الآن .
- سنعد السيارات ، نملأها زيتاً ، ونحملها بالامتعة التي خلقوها لنا .
- تم ننتلق ! ؟
- لا ، ننام مدة ثلاث ساعات .
- شكراً يا يسوع . كم أنا أتوق للنوم .
- قال هذا بونلو ، السائق الآخر ، ثم أردف :
- فأنا لن أستطيع منع نفسي من النوم أثناء القيادة .
- وكان السائق الثالث قد حضر فابتدته :
- كيف هي سيارتك يا بارتوليجو ؟

- على ما يرام .
- احضر لي معظفا جلديا لاشاركك في تزييتها .
- ليست بحاجة للزيت ايها الليوتنان ، فهي بحالة حسنة .
- انها معدة جميعها ، قربوا السيارات حالما تصبح جاهزة .
- ملائنا العربات باناث المستشفى ، وبعد وسقها للقمه ، تركناها مصطفة بين الاشجار ، والمطر ينساقط عليها . فقلت لبياني :
- اشعل النار وجفف ثيابك .
- لا يهمني هذا الامر ، سارتديها ميللة كانت أم جاقة ، ان ما اريده هو النوم فقط .

فصاح بونلو :

- وكذلك أنا ، ولكني سأتنام في سرير الماجور .
- لا فرق عندي انما أضجع بحسني المنهوك .
- وكنت أقت بجوار غرفة الماجور ، ففتحت بابها قائلا :
- هيا فهنا سريران لكما .
- رغم طول المدة التي عشناها ، فأنا أجهل محتويات هذه الغرفة .
- أسرعنا اذا ، كي اوقفكما في الوقت المعين
- اذا أغرقت في النوم ايها الليوتنان فالنمساويون يوقظوننا .
- لن أدع النوم يتغلب علي . . أين بارتولمو ؟
- في المطبخ .
- الى اللقاء اذا بعد ثلاث ساعات .
- دخلا الغرفة ، وسمعت بونلو يخاطب بياني :
- انزع نعليك ، فهذا سرير الماجور .
- ولم أسمع الا صرير الرفاص يهتر عنيفا .
- ثم اتجهت الى المطبخ فرأيت بارتو قد اشعل نارا ووضع عليها انا به ماء :
- ارتأيت طبخ بعض المعكرونة ، سنشعر بالجوع حالما نستيقظ .
- ألسنت نعسا يا بارتو ؟
- ليس كثيرا ، عندما تغلي الماء ، سأذهب للنوم .
- كان الافضل أن تنام ، فباستطاعتنا ان نتناول لحمنا مجفقا .
- المعكرونة أفضل . اذهب ونام يا حاضرة الليوتنان .
- يوجد سرير لك في الغرفة المجاورة لغرفة الماجور .
- استعمله انت .
- لا سأصعد الى غرفتي الاصلية ، هل ترغب في احتساء كأس يابارتو ؟

- قبل ان ترحل ، فهي لن تفيدنا الآن •
- اذا استيقظت بعد ثلاث ساعات ، أيقظني •
- لا أملك ساعة •
- استمعن بساعة الحائط •
- حسنا •
- هذه فضيلة التفهقر • يتاح لنا شرب ما نريد من الخمر الجيدة ••
- كالتي نشربها الآن ••
- فلربما شربنا غدا مياه المطر •
- غدا سنكون في الأودين ونشرب الشمبانيا الفاخرة ، فهناك يعيش
الخاملون ارباب الرعاوية • بياني استيقظ سنشرب الشمبانيا غدا ••
- اني مستيقظ • ألم تجد عصير البندورة يا بارتو ؟
- لم يتركوا ايا متها
- فصاح بونلو :
- لا بأس •• فغدا سنشرب عصير الشمبانيا •
- هل تريد مزيدا من المعكرونة يا حضرة الليوتنان ؟
- لا ، اعطني القارورة •
- احتفظت بواحدة لنشربها اثناء الرحلة •
- وهزلت على السلم الرخامي قاصدا المكان الذي عشت فيه برفقة
رينالدي •
- واحسنست بعيني تسبقاني الى الأغماض ، والبرد يعضني ، والنافذة
مفتوحة تكشف عن الظلمة الدامسة خارجا ، وصوت هطول الأمطار ما زال
مستمرا ، ومنذ الليلة الفائتة يهمس في أذني •• فالتقيت بجسدي على
سرير رينالدي وأغفيت سريعا •
- وقبل الرحيل جلسنا جميعنا في المطبخ ، وشربنا قارورتين من الخمر
التي أصابها الهجران ، كان الظلام ما زال حالكا ، والمطر متواصلا ، وبينما
راح بياني يتتأب المرة الأخيرة ، قال بونلو والسرور يطفح في كل وجهه :
- هل أغفيت طيلة الساعات الثلاث •
- أرقت في أولها ، لكنني لست بحاجة الى النوم كثيرا •
- غدا سنتام في سرير الملك •
- أما أنا فسأتام مع الملكة •
- احسنا •• هذه عاقبة الأكنار من الخمر •
- وتطلعت الى ساعتني ، كانت التاسعة والنصف ، فنهضت قائلا :

- أن الوقت لنتحرك .
- بجوار من ستركب أثناء الطريق المؤدي الى كورمنس ؟
- أخشى النوم وراء المقود ، قال بياني .
- حسنا ، ساركب بجوارك اذا ، ويتبعنا بوتلو ثم بارتو .
- هذه أفضل طريقة .
- سأقود بنفسي ، ريتما تأخذ قسطك من النوم .
- لا ، بل أقود انا على ان تبهني قبيل ان اغفي .
- لا بأس ، اطفئ الانوار يا بارتو .
- دعها كما هي ، صاح بوتلو : فليس من رجعة لهذا المكان . الى أين
مهم يتقهرون يا حضرة الليوتنان "
- الى تاجليمنتو ، القسم الطبي سيكون في بوردينو .
- كوريزيا هذه ، أفضل منها بكثير .



- على ما يرام .
- أحضر لي معطفا جلديا لاشاركك في تزييتها .
- ليست بحاجة للزيت أيها الليوتنان ، فهي بحالة حسنة .
- انها معدة جميعها ، قربوا السيارات حالما تصبح جاهزة .
- ملأنا العربات بأنات المستشفى ، وبعد وسبقها للقامة ، تركناها مصطفة بين الأشجار ، والمطر يتساقط عليها ، فقلت لبياتي :
- أشعل النار وجفف ثيابك .
- لا يهمني هذا الامر ، سارتديها مبللة كانت أم جافة ، ان ما أريده هو النوم فقط .

فصاح بونلو :

- وكذلك أنا ، ولكني سأنام في سرير الماجور .
- لا فرق عندي ابتما أضجع بجسدي المنهوك .
- وكنت أقف بجوار غرفة الماجور ، ففتحت بابها قائلا :
- هيا فهنا سريران لكما .
- رغم طول المدة التي عشناها ، فأنا أجهل محتويات هذه الغرفة .
- أسرع اذا ، كي أوقفكما في الوقت المعين
- اذا اغرقت في النوم أيها الليوتنان فالتمساويون يوقظوننا .
- لن أدع النوم يتغلب علي . - أين بارتولبو ؟
- في المطبخ .
- الى اللقاء اذا بعد ثلاث ساعات .
- دخلا الغرفة ، وسمعت بونلو يخاطب بياتي :
- انزع نعليك ، فهنا سرير الماجور .
- ولم أسمع الا صرير الرقاص يهتر عنيقا .
- ثم اتجهت الى المطبخ فرأيت بارتو قد أشعل نارا ووضع عليها اناء به ماء :
- اربأيت طبخ بعض المعكرونة ، سنشعر بالجوع حالما نستيقظ .
- السنت نعسا يا بارتو ؟
- ليس كثيرا ، عندما تغلي الماء ، سأذهب للنوم .
- كان الافضل ان تنام . فباستطاعتنا ان نتناول لحمنا مجفقا .
- المعكرونة افضل . اذهب ونام يا حاضرة الليوتنان .
- يوجد سرير لك في الغرفة المجاورة لغرفة الماجور .
- استعمله انت .
- لا سأصعد الى غرفتي الاصلية ، هل ترغب في احتساء كأس يابارتو ؟

ناديته :

- بارتو .. بارتو .

فتطلع نحوي ضاحكا ، قال :

- تحدث معهما ايها الليوتنان ، فأنا لا أفهم ما يقولانه ، مه ! ووضعه
يده فوق ساق احداهما ، وضغطها بحركة ودية بريئة ، ولكن الصبيبة
ابتعدت عنه ، محكمة لف عباؤها حول جسدها ، ومع ذلك فقد أعاد بارتو
الكرة مقهقها ، هه ! أخبري الليوتنان عن اسمك ، وماذا تفعلين هنا ؟

فنتظرت الي شذرا وتلفظت بعبارة مغتاج لم أفهم منها شيئا ، بينما
استمرت الاخرى في اطرافها الي الارض : كانت اكثر ترهلا تبدو وكأنها في
السادسة عشرة من عمرها . فاشرت اليها مخاطبا الاولى :

- شقيقتك ؟

فهزت رأسها مبتسمة .

- حسنا ، وريت على ركبتيها شاعرا انها سرت ، أما اختها فكانت ما
تزال مطرقة الي الارض . وخطر لبارتو مداعبتها ، فمد يده نحوها ولكنها
عاجلته بدفعها عنها ، فانجبر ضاحكا ، ثم خاطبها مشيرا الي نفسه :

- رجل طيب ، لا تخافي .

- لماذا تركب معي اذا كانت لا تحبني .

- لا تخافي ، رجل طيب ..

ويظهر انها أدركت مقصده ، فبدأ الفزع في عينيها ، بينما تابع هو :

- لا خطر .. لا تخافي .

كان يتكلم بالعامية مستعينا بإشارات يده على التعبير ، ورأيت الدموع
تسيل فوق وجنتيها ، وبعد هنيهة لمحت الدمع يتفرق في عيني شقيقتها
التي أمسكت يدها .

- أظن انها أساءت فهمي .. انا لا أقصد ذلك ، ثم أخرج سكينه وقطع

قطعتي جبين من كيسه ، وقدمهما لهما .

- خذا .. كفا عن البكاء .

فهزت الكبرى رأسها بينما تناولت الصغيرة قطعتها وأقبلت عليها بهم ،
ثم قدمت القطعة الثانية لشقيقتها ، فتناولتها وقد خف شقيقها .

- ستعود الي طنائنتها بعد قليل ، ثم صاح فجأة :

- عذراء .. عذراء ، فهزت الصبيتين رأسيهما •
- ها .. حسنا ردها بارثو مرات ثلاث •

ورجعت الى بياني والمطر لم تخف غزارته ، وجنود المشاة فاضون في سيرهم على جانب الطريق •

في صقيع هذا البرد القارس .. لو لم تكن الحرب لكنت في سريري ..
 لكننا جميعا في أسرنا .. أدس رأسي تحت الغطاء الصوفي .. في بيتي سرير دافئ وطعام ، وهي الآن في سريرها .. كاترين بين غطاءين دافئين واحد من فوقها والآخر تحتها .. على أي جانب تراها نائمة ؟ لعلها مستيقظة ؟ لعلها متمددة تفكر بي ؟

هبي .. هبي يا رياح الغرب العاصفة .. ها .. لقد هببت .. ولكنه لم يكن رذاذا خفيفا ، بل مطرا غزيرا متواصلا استمر طوال الليل .. كيف يمكن ان يحدث كل هذا ! يا يسوع .. يا يسوع .. ان تكون كاترين بين ذراعي الآن .. وكلانا في الفراش الوثير •

هبي يا رياح الغرب العاصفة ، احملينا الي .. ها هي تحت الامطار ، الكل تحت الامطار .. عمي مساء يا كاترين .. أرجو ان تنامي نوما مريحا ، واذا كنت تشعيرين بالضيق يا عزيزتي فنامي على الجانب الآخر ، ساجلب لك ماء باردا .. انني آسف لانني سببت لك كل هذه الآلام .. كاترين الصغيرة ، جربي ان تنامي يا حلوتي ..

• كنت نائمة طيلة الوقت •

• ما بك تتحدث أثناء نومك ؟

• هل انت حقيقة هنا ! .. كاترين •

• طبعاً ، انني هنا .. لن اذهب بعيدا عنك •

• انك جميلة فاتنة ، لا تتركيني في الليل •

• لا ! لن اتركك واذهب • سأظل دائما هنا .. أسرع اليك حينما

تريدني ..

• • •

لقد انطلقوا ، دوى صوت بياني في أذني •

• كنت في حلم !

وانظرت الى ساعتني ، الرابعة صباحا ، فمددت يدي اسفلا أريد قارورة

• الوسكي

- كنت تتكلم بصوت مرتفع •
- كنت أحلم بالانكليزية •

• • •

بزغ الفجر والقافلة تتحرك وليدا ، وجنود المشاة يترنحون مجهدين ،
والوف القلاحين قد اندسوا بيننا بعرباتهم الموسوقة • فكنت ترى وسط آليات
المدافع وشاحنات العتاد ، خزنا ذات مرايا •• وآلة خياطة عميقة ، وفراخا
وأوزا وأمتعة أخرى •• وحشر بعض النسوة أجسامهن مع أطفالهن الى جانب
الامتعة وعلى رؤوسهن ينهمر المطر تتبعهن الكلاب التي انضمت للقافلة هي
ايضا •

ومن خلال الموكب ، عزمت على أن أعرف بسياراتي الثلاث وأسلك
طريقا جانبيا بين الحقول في أقرب منعطف • لقد كان من غير الحكمة أبدا
أن نستمر في هذا الطابور اللانهائي •

ولم يكن احد يعرف النقطة التي بلغها النمساويون ولا كيفية سير
القتال ، ولكنني كنت واثقا أنه اذا ما انقطع المطر ، وأصبح بإمكان الطائرات
التحليق فذلك يعني دمار كل ما تضمنه القافلة وفتنا انسانها وحيوانها
وجمادها جنبا الى جنب • ولن يحتاج الامر الى أكثر من أن يترك عدد من
السواتين مقاعدهم هربا أو أن تقتل بعض الحيوانات الجارة حتى يضطرب
الجال ، ويتوقف الجميع ، ويصبحوا لقمة سائغة في فم الموت الشنيع •
ولم نلبث طويلا حتى انتثيت في أول هذه الطرق الفرعية الضيقة ، ثم
نزلت من العربة ، أريد أن أدل بوللو وبارتو عن وجهة سيرنا الجديدة •

- وماذا سنفعل بهذين الجاويشين !
- سيفيداننا في دفع العربات اذا أعاقنا الوحل •
- أما بارتو فالتفت نحو الصبيتين الفارقتين في النوم :
- وعائلتي العذراء هذه ؟
- لن تفيدانا شيئا •
- يمكنني وضعهما في المؤخرة •
- حسنا ، اذا كنت ترغب في بقائهما برفقتك ••

- كما تشاء . . كيف حالك أيها الليوتنان ؟
- على ما يرام . . وأنت ؟
- لا بأس ولكن أحس بجوع شديد .
- لا بد من وجود شيء في نهاية الطريق ، وعندها سنقف وتلتهم ما تقع عليه أيدينا .
- كيف هي ساقك ؟
- حسنة .

ثم فتحت باب سيارته وجلست بجواره ، وتبعنا بونلو الذي كان قد انعطفت اثر بياني ، ولم نكد نقطع مسافة قصيرة حتى بلغنا منزل مزارع ، متوسط الحجم ، فأوقفنا السيارات في ساحته الواسعة، وشرع بياني في سحب المياه من البئر التي في الوسط .

كان المنزل مهجورا ، تغطي عرائش الكرم جدرانه الخارجية وتفوح رائحة الهجران من داخله ، حيث راح الجاويشان يتنقلان من غرفة الى غرفة ، ثم خرج أحدهما وفي يده ساعة حائط كبيرة ، فصاحت به :

- أين زميلك ؟
- في المطبخ .
- وماذا عن فطورنا أيها الليوتنان ، سألتني بونلو .
- باستطاعتنا تناول ما يمكن .
- هل تعتقد أن هاتيك الطريق يمكن أن تؤدي بنا الى شيء .
- بالتأكيد .
- اذا دعنا نأكل أولا .

فأسرع برفقة بياني يبحثان داخل المنزل عن أي شيء صالح للأكل، بينما هتف بارتو بالفتاتين :

- هلما . . وعد يده لمساعدتهما على النزول ، فهزت الكبرى رأسها، ولم تتحرك الصغرى مطلقا كالتنا تخشيان الدخول الى منزل مهجور على أنهما تبعنانا بعينيهما ، ونحن ندخل المنزل .

- صعبتنا المنال ، همس بارتو في أذني .

كان كل ما في البيت يشعر بالفراغ الهائل ، وفي المطبخ وجدنا بياني وبونلو يجلسان القرفصاء ، فصاح الاول عندما لمحنا :

- لم تجد الكثير • لقد نظفوه قبل رحيلهم •
- وكان بونلو منهمكا في تقطيع قرص كبير من الجبن الابيض •
- أين وجدته ؟
- في غرفة المؤونة العلوية • لا أعرف أين وجد بياني الخمر والتفاح •
- لقد أصبح لدينا فطور لذيذ •
- وفي الحال أحضر بياني قارورة الخمر الكبيرة ، ونزع سداتها ثم ملأ
- المقلاة النحاسية العميقة •
- لا بأس برائحته •• فتش عن أكواب يا بارتو • ها •• الجاويشان !
- كلا جبنا •
- ينبغي أن نتطلق فورا ، قال أحدهما وهو يمد يده الى قطع الجبن ،
- فأجابه بونلو :
- لا تجزع ، سنتطلق حالما نشبع •
- نحن جيش عجيب ، يزحف على معدته •
- ماذا ؟ سال الجاويش •
- أقول لك كل فهذا أفضل الاشياء •
- ولكن الوقت ثمين • هل تعرف الطريق ؟
- لا •
- فتطلع كل منهما في الآخر •
- اذا من الضروري أن لا نتأخر •
- لن نتأخر ! وجرعت كأسي مردفا :
- املا جميع قواريرنا بالخمر واتبعني ، ففعل بونلو ذلك ، تاركا القارورة
- الكبيرة قرب الباب •
- سيحدها التمسايون دون أي جهد •
- هيا ، ينبغي أن نتطلق •
- كان الجاويشان قد سبقنا ، بينما استثمرت الفتاتان في التهام قطع الجبن
- وبارتو يدخن بجوارهما ، ثم انعدرنا في الطريق الضيقة ، نتعرج بين برك
- الوحل ، والحفر الكثيرة •

كانت الشمس في كبد السماء ، والمطر قد انقطع ، عندما سمعنا هدير
الطائرات في الجو ، ثم لمحناها نمر عاليا فوق رؤوسنا متجهة الى الغرب ، ولم
نلبث قليلا حتى دوى في آذاننا صوت انفجارات قريبة ، فعرفنا أن قوافل الطريق
التي انحرفتنا عنها ، تعاني الآن ضربات عقبان الجو .

وتكرر القصف ثلاث مرات متتابة ، وكنا نسرع فوق ممرات الحقول
المتعرجة ، فقد كانت جوانب الممرات طرية ، بحيث أن عجلات سيارة بارنو
غررت الى اعلاها حال دورانها ، وكنا ما نزال على بعد مسافة ١٠ كيلومترا
من الاودين .

كان الشمي الذي ينبغي عمله الآن ، أن نحفر أمام العجلات ثم ندفعها
بكل قوانا ، فتجمعنا حولها ، وتفحص الجاويشان وضعها ، ودون أن ينبسا
بكلمة واحدة ، أدارا ظهريهما وسارا بعيدا ، فصحت بهما .

- الى أين ؟ هلما الى مساعدتنا في الدفع .
- لا بد لنا من الذهب .
- تعلقا ، اننا بحاجة لكما .
- لا بد لنا من الذهب .
- أمركما بالرجوع وقطع الاعشاب .
- لن نستطيع ، فبعد قليل سيقطع خط الرجعة عليكم ، وليس من
حقلك أنت أن تأمرنا .
- أقول لكما هيا الى جمع الاعشاب .
- ولكنهما تابعا السير دون أن يلتفتا .
- قفا ، صحت بملء صوتي ، فعدا في المشي ، فوق الارض الموحلة .
- أمركما أن تلقا .. رددت العبارة ، ولكن دون جدوى . وعندئذ

أخرجت مسدسي وصوبته على أحدهما ، الذي كان قد تولى الإجابة على أوامري ثم ضغطت الزناد الا اني اخطأته ، وبدا هو يركض مذعورا ، فعاجلته بطلقات متتابعة فخر أرضا ، بينما قفز زميله الى الخندق ، وغاب عن الانظار ، فلاحقته باطلاق النار صوب الخندق .

وعندما فرغ المسدس عبأته مجددا ، وتابعت القذف آملا أن تصيبه احدي الطلقات الضالة ولكنه بعد دقائق ظهر راکضا وقد احنى رأسه ، فعبأت المسدس للمرة الثالثة واستمررت في القذف ولكن دون جدوى ، فقد اضحى بعيدا جدا في طرف الحقل .

تناول بونلو المسدس واتجه نحو الجاويش الجريح ، وأجهز عليه ، ثم رجع ملتفتا نحو الجثة :

— ذلك الوغد ابن الكلبة ، أليس كذلك ؟

— ينبغي أن نباشر الحقر فوراً ، تعتقد أن الآخر لم يصب ؟

— لا أظنه ، فقد تجاوز مدى رصاص المسدس .

— الجبان القدر ، قال بياني .

ثم شرعنا نقطع أغصان الأشجار ، وبعد أن أفرغنا العربة من جميع حمولتها ، راح بونلو يحفر أمام عجلاتها ، بينما صعد بارتو وأدار المحرك واشترك الباكون في دفعها ، ولكن عبثا .

— أرجعها خلفا تم اماما ، وتابع هذه العملية .

ففعل ما أمرته به ، الا أن العجلات أوغلت في النزول أرضا ، ثم أخذت تدور في حفرها .

— لنجرب شدها بواسطة الجبال .

— لا اعتقد ذلك يفيدنا أيها الليوتنان .

— ينبغي التجربة على كل حال .

وفي الحال ربطنا العربة الى السيارتين الاخرتين ، وصعد بونلو وبياني لادارة محركيهما ، وبعد محاولة فاشلة خاطبتهما :

— قفا ، لن نتجح التجربة .

فتزلا من مقعديهما ، وكذلك تزل بارتو عن مقعد سيارته المنكودة ، بينما

كانت الفتاتان تنظران من بعيد .

— وماذا تقول الآن أيها الليوتنان ؟ سأل بونلو .

— سنعاود تجربة ثانية .

لقد كانت غلظتي ، فانا الذي قدتهم خلال هذه الارض الموحلة ، دون أن يكون لي معرفة ، وما هي المحاولة الاخيرة تعلن ضياع جهودنا ، وضياع الزمن

الشمين الذي يطاردنا .

- انتهى الامر ، احملوا كل ما تريدونه من العربية .
تأخرت بونلو قطعة الجبن وقارورتني الخمر من داخلها ، بينما التفت أنا
الى بارتو :

- وماذا عن عذراوتيك يا بارتو ؟ أين ستحملهما الآن ؟
- بإمكانهما الركوب في المؤخرة ، وأظن أن المسافة الباقية ليست طويلة .
فتحت لهما باب السيارة الخلفي ، وأشرت لهما بالدخول فوافقنا .
وكان قلبنا من ضياع الوقت ، بحيث اني لم أشعر بالآلم من جراء خسارة
احدى عرباتي ، على أن الذي حدث جعلني أفسى كل شيء ، فلم تكلم تقدم
مسافة قصيرة حتى ازدادت الأرض ليثا ، وعززت عجلات السيارتين السي
الاعماق في مدى دقيقة واحدة .

كانت التجربة في العربية الاولى وما تبعها من فقدان الوقت الشمين ، قد
أكد في نفوس الجميع فشل أي محاولة جديدة ، ولذلك ودون أي تريت نزلنا
من مقاعدنا وسرنا مشيا على الاقدام الى الاودين .

وبعد مسيرة قصيرة ، بلغنا مفترق طرق ، توصل احدها الى قرية يادية
للعيان ، فأشرت على الفتاتين أن يتجها نحوها ، ناقدا كلا منهما عشر لير ،
قائلا وأنا أمد يدي : هناك .. أصدقاء .. عائلة .
والظاهر انهما لم يفهماني . ولكنهما قبضتا على قطع النقود بقوة واحكام
كأنهما يخافان استرجاعهما .

ثم سارنا في الطريق التي أشرت اليها ، وقد لغت كل منهما الشمال حول
وجهها ، وأخذتا تلتفتان نحونا بين الفيسنة والاخرى ، بينما راح السواقون
الثلاثة يضحكون ، وسألني بونلو :

- كم تعطني أيها الليونتان ، لاذهب في ذلك الطريق ؟
- أفضل لهما أن يكونا بصحبة أناس مدنيين من أن تبقيا وحيدتين ،
فيما اذا قبض علينا .

- اعطني ٢٠٠ لير وأنا مستعد للرجوع خلفا نحو القمسا .
- ولكنهم سيسلبونك اياها ، اجابه بياني .
- ولربما انتهت الحرب ا قال بارتو .

وكانت الطريق قد بدأت تصعد ، تكتنفها من الجانبين أشجار التوت
الضخمة . استطعت أن أتميز بينهما هيكلتي شاحتين غارزتين في الوحل ،
وعندما لمحهما بياني صاح :

- انظروا .. ينبغي لهم شق طريق خاص من أجل سحبهما

- ليت بحوزتنا دراجات الآن ، قال بونلو .
- هل يركبون الدراجات في أميركا ؟ سألتني بارتو .
- كثيرا .
- كم نحن بحاجة اليها في هذه الرحلة . .
- آه . . يا يسوع ، ليس بحوزتنا دراجات هنا .
- هل ذاك دوي طلقات ؟
- لا أدري ، أجايني بارتو محاولا الاصغاء .
- أظنه كذلك ، قال بياني وبعد هنيهة صمت .
- اذا سنقابل جنود الخيالة .
- لا اعتقد أنهم يملكون فرقة خيالة .
- أرجو باسم يسوع أن لا يكون عندهم . . فانا لا أريد أن أذبح برمح أحدهم ، صاح بونلو .
- ولكنك قبل ساعات قتلت جاويشا ، خاطبه بياني .
- نعم قتلته ، فانا طيلة أيام الحرب لم أقتل انسانا ، على اني كنت أرغب دائما أن يتاح لي قتل جاويش .
- قتلته بمهارة فائقة ، فلم يكن يركض مسرعا بعيدا عنك . بل كان في انتظارك .
- لا بأس ، المهم اني قتلته وهذا أحد الاشياء التي لن تفارق ذاكرتي . . اني قتلت جاويشا .
- وماذا تقول عند الاعتراف ؟
- أقول : باركني يا الله . . فقد قتلت جاويشا ؟
- فأغرق الجميع ضاحكين : بينما قال بياني :
- انه فوضوي . . لا يذهب للكنيسة .
- وبياني فوضوي أيضا الليوتنان ، أجاب بونلو .
- هل أنت حقا فوضوي يا بياني ؟
- لا يا حضرة الليوتنان ، نحن اشتركيان من ناحية امولا .
- ألم تزر تلك المنطقة ؟
- لا .
- انها منطقة رائعة ، تعال الينا أيضا الليوتنان بعد انتهاء الحرب .
- الجميع اشتركيون !
- تعال أيضا الليوتنان ، وسنجعلك أيضا اشتراكيا .
- وانعطف الطريق يسارا ، حيث تقوم ثلاثة صغيرة ، وخلفها حائط حجري .
- أنسى حول بستان من أشجار التفاح ، وكنا نسير بأقصى ما نستطيع من السرعة .

بلغ بنا التعب منتهاه ، وكنا قد أشرفنا على طريق تؤدي الى نهر ، قد
اصطفت على جانبها عدد كبير من الشاحنات المهجورة قمشيتها حتى الضفة ،
وهناك وجدنا الجسر مندما ، ومجرى النهر مرتفع تعلو مياهه أنقاض القناطر
الحجرية التي تهاوت بعضها فوق بعض .

سرنا بمحاذاة الضفة ، نبحث عن نقطة ضيقة من المجرى يمكننا عبورها ،
وكنت أعرف وجود جسر للنسكة الحديدية ، الى الناحية الشمالية ، ليس بعيدا
منا ، فجدنا في السير ، وأشجار الشاطئ ، النهري تذرף نقاط المطر على
رؤوسنا ، وأرضه تعيق أقدامنا بوحولها المتراكمة حتى التقينا بالجسر المنشود .
- انه جسر جميل ! صاح بارتو .

والواقع انه كان جسرا ، حسن الصنع ، من تلك الجسور الانيقة المنشأة ،
على مجاري الانهار الجافة معظم أيام الصيف .
- لنسرع قبل أن يألوا لنسقه .

- لا يوجد من ينسقه . . فقد رحل الجميع .
- من المحتمل أن يكون ملغوما . . سر أمامنا أيها الليوثان ، قال ذلك
بونلو . وفي الحال صاح بارتو .

- اسمعوا القوضوي . . دعوه يسير هو أولا . ولكنني قطعت عليهم
مجال الجدل :

- لا ! أنا أمضي أمامكم . . فهم لن يلفموه بحيث يتفجر من جراء حمولة
رجل واحد .

- أرايت ! صاح بياني . . هذا عقل ناضج . . لماذا لا تعمل فكرك أيها
القوضوي ؟ !

- لو كنت أعمل فكري لما رأيتني هنا ، أجاب بونلو .

- نكتة ذكية أيها الليوثان ، قال بارتو .

- حقا .. انها نكتة ذكية .

وكنا نقف امام الجسر مباشرة والسماء قد اذهمت بالنسحب السوداء
منذرة بمطر غزير ، بدأت بشائره بالهطول ، قطعت فوق الرصيف :

- اتبعوني واحدا واحدا .

وتقدمت على حذر ، أدق النظر بين القضبان الحديدية ، وحول براغيها
الضخمة ، علني أعتز على شيء ، ولكني لم أجد شيئا .. وأخيرا بلغت الضفة
المقابلة وتطلعت حولي .. لقد بدت الاودين لناظري ، قريبة عبر الحقل
الموحلة ، والى الناحية الأخرى عند أعلى النهر ، لمحت قناطر جسر آخر ، وبينما
أنا أتأمله ، مرت مسرعة من فوقه سيارة جيب استطعت ان أتبين رؤوس
الرجال في داخلها ، كانوا جميعهم من الالمان ، يرتدون الخوذ الالمانية ، ويضعون
النظارات السوداء .

كانت السيارات تمضي بسرعة خاطفة تم اخنفت بين الاشجار . لوحث
بيدي لبارتو وللآخرين أن يسرعوا ، ثم استلقيت خلف رصيف الجسر .

- هل رأيت السيارة ؟ سألت بارتو الذي تمدد جانبي :

- لا كنت أراقب خطواتك .

- سيارة ضباط المانية عبرت الجسر .

- المانية ؟

- نعم .

- يا مريم العذراء !

وكان الاثنان الآخران قد استلقيا هما أيضا ، ورحنا جميعا نحقق

بين الاشجار .

- هل تعتقد ان خط تراجعنا قد قطع ايها المليونان ؟

- لست أدري ؟ كل ما أعرفه أن سيارة ضباط المانية عبرت الجسر .

- ولكن ألا يخالجك شعور غريب ؟ شعور بالخوف ؟

- ليس هذا مجال الضحك يا بونلو !

- ما رأيكم في احتساء بعض الخمر ، همس بياني :

- حتى اذا وقصنا في الاسر ، نكون قد نعمنا بالشراب ، ثم فتح القارورة

وعم بوضعها على غمه عندما ارتفع همس بارتو :

- أنظر .. هناك على الطريق .

وعلى طول الطريق امامنا رأينا الخوذ الالمانية تتحرك . كانوا فصائل

من راكبي الدراجات يسيرون بنظام ، واثنان منهم في المقدمة ، استطعت تبين

- ملاحع وجبهيهما اتمثلتئين صحة • ومن حزاميهما تتدلى القنابل اليدوية •
كانوا بدرجون مسرعين ، ينطلقون اماما والى الجانبين وبعد ان مر ما
يزيد على الاربعين ، خمس بارتو :
- يا مريم العذراء ! هل هذا كل شيء ؟
 - جميعهم المان ، ليسوا نساويين ؟ تسأل بياني •
 - ولكنني بدلا من ان اجيبه دهشا دون وعي تام :
 - ولكن لماذا لا يوجد من يوقفهم ؟ اين رجالنا ؟ لماذا لم ينسفوا الجسر
او يضعوا تحته لغما على الاقل ؟
 - اين المدعية حول هذه الجسور ؟
 - اعطنا الجواب ايها الميوثنان ، قال بونلو •
 - وشعرت بالغضب يجتاح كل اجزاء جسدي •
 - عناك في اول الطريق دمروا الجسر الحجري الضيق ، ومتمعوا شاحناهم
من اللحاق بهم ، اما هنا ، حيث الطريق الرئيسية قلم يفعلوا شيئا •• اين
هم ؟ ليس منهم هنا فصيل واحد ؟
 - اجبتا ايها الميوثنان ، كرر بونلو •
 - ولكني صمت ولم اجبه •• فان ما ينبغي فعله الان هو بلوغ بوردينو ،
واربعا لن استطيع الوصول الى الاودين •• حتى ولا الى الجحيم •• ينبغي
فقط ، ان اظل ممددا صامتا ، وبلا تفكير •• حتى لا تمزق جسدي رصاصة ،
او يقودني بعض ذوي الخوذ الفولاذية الى الاسر •
- وسالت بياني :
- ألم تفتح قارورة الويسكي ؟
 - فتاولني ايهاا فسربت جرعة طويلة •
 - يمكننا ان نبدأ المسير •• والا ، فليس من دافع للاسراع •
 - هل تريدون ان ناكلوا ؟
 - ليس هذا مكان الثريث والاكل ، اجاب بونلو •
 - حسنا ، لنتحرك اذا •
 - هل سنتابع المشي في هذا الاتجاه ؟
 - لربما جاءوا الى هذا الجسر ، اسرعوا •
- عشينا محاذين سكة الحديد ، على جانبينا تمتد الحقول الشاسعة ،
ومن امامنا ، تبرز قسم المباني الشاهقة في الاودين ، يتوسطها برج الكنيسة
المرتفع • ثم التقينا بنقطة من السكة قد دمرتها القنابل •
- أرضا •• أرضا ، صاح بارتو •

فانطرحنا جميعنا على الارض ، كانت هناك فصيلة اخرى من المحتمل ان يكونوا قد رأونا ، ولكنهم استمروا مسرعين .
 - كنا جميعا قد قتلنا ايها الليوثان .
 - انهم لا يريدوننا ، انهم في طلب شيء اهم .
 - سأبتعد قليلا عن السكة ، قال يونلو .
 - أعتقد اننا سنظل سالمين ؟
 همس بارنو في أذني مضطربا :

- بالتأكيد . . . فعددهم ليس كثيرا حتى الآن ، انهم قلة هنا ، ونستطيع الوصول في جنح الظلام .

- ولكن ماذا كانت تفعل سيارة الضباط تلك ؟

- يسوع يعرف . . . أجبته ونحن مستمرون الى الامام ، وكان يونلو قد عاد الى رفقتنا وقد تعبت قدماء من الفوص في الوحل . وبعد ان اجتزنا مسافة طويلة ، افرقت سكة الحديد عن الاتجاه الطريق الرئيسية ، ولم يبق بوسعنا رؤية من يمر عليها ، ثم بلغنا جسرا آخر مدمرا ، استطلعنا العبور على انقاضه وفجأة دوى في اذاننا ازير الرصاص . وكان في الجانب الايمن منا طريق فرعية تنتصب الاشجار الباسقة على جانبيها فاعتقدت انه من الافضل لنا سلوكها ، والالتفاف حول المدينة ، ودخولها من الناحية الجنوبية . وبالفعل نفذت الفكرة طانا اني بذلك أتجنب خط التراجع الرئيسي :

- علموا . . . سننعطف في هذا الطريق .

فتبعوني ، ولكن رصاصة اطلقت علينا من أعلى .

- أرضا . . .

- وانزلت فوق الوحل ، بينما هرع السواقون يريدون الاستلقاء امامي ، ولسنت أنامل بارنو الارض ، وهم بقذف جسمه ، ولكن رصاصتين من المصدر ذاته اخترقتا عنقه ، فترنح عاوبا في الوحل ، دون ان ترتفع منه حتى ولا أنه . أسرعنا اليه وقلبناه على ظهره جاعلين رأسه الى أعلى كان ينقت دما غزيرا منقطعاً . فبقينا برهة وكان على رؤوسنا الطير ، لا نعرف ما يلحق عمله . . . ننظر اليه ساعمين تحت الامطار ، كانت احدى الرصاصتين قد مزقت عينه اليمنى ، وخرجت منها ، وفيما انا اهم بالانحناء لايقاف النزيف ، لفظ روجه ، فغطاه بياني بعباءته منتهدا :

- الاوغاد .

- ليسوا المانا . . . لا يمكن ان يوجد المان هنا .

- ايطاليون .. أيدتي بياني ، ثم مديده نحو قارورة بونلو :
- ألا تريد جرعة ؟
- لا ، والتفت الي :
- هذا ما يمكن ان يقع لنا كل دقيقة .
- على النقيض ، كان الخطأ اننا حاولنا عبور الحقل .
- قهر رأسه : لقد مات بارتو .. ومن يا ترى سيكون الثاني ؟
- الذين اطلقوا النار ايطاليون ، ليسوا اللمانا .
- صحيح ، ولو انهم المان لقتلونا جميعا .
- اننا مهددون من قبل الايطاليين اكثر مما نحن مهددون من قبل اللمانا .
- فاللمان يعرفون عما يبحثون .
- هذا تحليل رائع أيها الليوثنان .
- ولكن الى أين سنذهب ، سأل بياني .
- من الأفضل أن نظل مستقلين في مكان منعزل حتى نعلم الظلمة ،
- وعندها إذا استطعنا التقدم جنوبا .
- سوف يقتلونا جميعا ليشتبوا أنهم على صواب في فعلتهم الاولى ..
- وحتى لا نفصحهم .
- دعنا نسرغ اذا ، قال بونلو .
- هيا . والتفت خلفا ، كان بارتو ممددا وذراعه متشابكتان ووجهه
- مطمئن هادئ .. ان يد الموت قد انتزعتنا منا .. لقد احببته كثيرا .. ان
- أوراقه في جيبي ، وغدا سوف اكتب لعائلته .

...

من بعيد ، شاهدنا بيت مزارع تكتنفه الأشجار ، مؤلفا من طبقتين ، في
 الاعلى شرفة قائمة فوق اعنودة ضخمة . أسرعنا اليه ، وقبل أن نبلغه همست
 في أذنيهما :

- من الأفضل أن ندخله واحدا اثر واحد .. وسأسير أنا في المقدمة .
 واتجهت الى بابه ، لا أدري من أين سيطلق الرصاص علي .. من
 داخله أم من على سطحه ، أم من اغصان الشجر حوله .

كانت قد غررت في أرض باحته الصغيرة عجلات سيارتين عتيقتين
 تكسدي الى جانبهما احمال من القسل المندي ، وعندما وطئت عتبة الباب ، الذي
 كان مفتوحا ، وفي الداخل ظلام دامس ، فاتجهت رأسا الى المطبخ ، وفي موقده

الكبير رأيت رماد النيران تحت القصور الفارغة ، ولم أجد شيئا يصلح للاكل فيما حولي .

- من الأفضل ان تختبئ في مخزن القسل ، هل تظن انه بالامكان ايجاد ما يصلح للاكل يا بياني ؟
- الحقا به هناك اذا .
- سأجرب .

- حسنا ، وسأسبقكم بدوري الى المخزن ، أتفقد حاله .
كان نصفه مملوا بالقسل ، وفي اعلى جدرانها نافذتان متوسطتا المساحة .
قدرت ان يوسعنا الاستفادة من احدهما للاستكشاف ، والاخرى المقاتلة لها ،
للهرب . وكنت واثقا من بلوغ الاودين بمنجاة من كل خطر ، اذ كان من
المستحيل وجود المان في هذه النواحي .

اولئك الذين التقينا بهم ، كانوا قادمين من الشمال ، ممن كافيديال ،
وليس من الجهة الجنوبية ، والحق ان الخطر كان يتهددنا من قبل الايطاليين
انفسهم ، فهم في ذعرهم الشديد يطلقون النار كيفما اتفق وفي اي اتجاه ، سيما
ان اشاعة تناقلتها الالسن تقول ان جنودا من الالمان يرتدون
الملابس الايطالية في صفوفنا ، الامر الذي زاد الهلع والذعر وأوقع الرعب في
القلوب ، أما انا فلم أصدق الخبر واعتبرته واحدا من ألوف الاشاعات التي
تصنعها الحرب ، والتي يروجها الاعداء ليثيروا الرعب ، رغم انهم ليسوا
بحاجة الى ذلك .

ان ضخامة الجيش المتفهم ، وضيق الطرقات ، وعوامل الطبيعة القاسية
وعملية الانسحاب المفاجيء ، كل هذا كان كافيا ليخلق كل شيء ويدمر كل
شيء فليس في كل المناطق التي اجتزناها من يصدر الاوامر ، ولا من أحد
يتلقاها .

لقد تركوا الالمان يفعلون ما يشاؤون ، واضافوا الى ذلك انهم قاموا ، بدلا
منهم باطلاق النار علينا ، لقد انتزعوا منا روح بارتو . . . القتي الطيب .

ان الذي يدس رأسه وجسده في كومة من القسل ، يحس كأنه خلق من
جديد ، وان سني حياته الماضية غريبة ، وانه انقطع عن العالم البشري في

جوف كومة القسل هذه .
ماذا يمكنك ان تعمل ؟ ان العودة شمالا من حيث أتيت أمر يبدو
مستحيلا . واذا استمررت في السير جنوبا ، ترى ما الذي يمكن ان يحدث ؟
ان استطيع بلوغ ميلان ؟ واذا بلغتها ماذا ينتظرنني هناك ؟ رفعت
رأسي من تحت القسل ، كان بياني يقف في المدخل ، ويده قطعة لحم مجفف
وابريق ، وتحت ابطه وضع قارورتي خمر .

- اقترِب . . . اين بونلو ؟

- سأنجرك الآن . وأنزل حملي ارضا ثم أخرج سكينه ونزع سدادة
احدى القارورتين .

- مختومة بالشمع . . الامر الذي يؤكد جودة نوعها .

- اين بونلو ؟ فلم يجب بل نظر الي شاردا .

- لماذا بقي خارجا ؟

- لقد ذهب . يريد تسليم نفسه .

فلم اقل شيئا ولكنه أردف :

- كان خائفا ان يقتل .

فرفعت قارورة الخمر دون ان أنفوه بكلمة .

- أنت تعرف ايها الليوتنان اننا لا نؤمن بهذه الحرب في أي حال من

الاحوال .

- ولماذا لم تذهب معه ؟

- لم أرد ترك وحيدا .

- وأين اتجه ؟

- لست أدري . كل ما قهمنه انه يريد تسليم نفسه .

- حسنا لم لا تبدأ بقطع اللحم ؟

فتطلع نحوي في الضوء الباهت :

- قطعها فيما نحن نتحدث . . . وفوق القسل رحنا ناكل المقاسق

وتشرب .

- انهض وانظر من تلك النافذة يا بياني ! وسأطلع انا من هذه .

فحمل قارورته ، وكذلك فعلت بدوري ، واستند كلانا رأسه الى أسفل
نافذته يراقب ناحيته . لم يكن أمام ناظري غير العقول المبتللة والاشجار
الغارية ، وانسكاب الامطار المتواصل ، ثم بدأت الظلمة تمشد ، وبوادر تنذر

بليلة ليلاء . وعندما أدركت انه لم يبق هناك فائدة من استمرار المراقبة ، رجعت الى بياني ، قاذ به نائما ، فلم أوقظه ، بل جلست الى جاتيه . كان ضخم الجثة ، يعلو شخيره حادا أثناء النوم ، وبعد فترة قصيرة ايقظته وانطلقنا معا في الليل الدامس .

• • •

كان ليلاء غريبا مفرعا ، ليلاء قل أن يعيش المرء في مثيله . . . ولست أذكر الاحاسيس المرعبة الكثيرة التي اجتاحتني ، لربما اختطفني الموت . . . لربما اخترقتني رصاصة من الخلف ، لربما طاردوني مدى المسافة المتبقية . . . على أن شيئا من هذا لم يحدث ، وكل ما اضطررنا اليه في بدء المسير أن استلقينا في قعر الخندق المحاذي للطريق ، ريثما تجاوزنا أفراد قصيل المائي ، ثم نهضنا متابعين المشي طيلة الليل ، قاصدين بلدة تكليمانتو ، القريبة من الاودين ، وفي أثناء سيرنا الثقينا بعدد كبير من القوافل المتفقرة ، ولم التحق من ضخامة عملية الانسحاب الا في تلك الساعات .

كانت البلاد الشمالية بأسرها في تراجع : الجنود والفلاحون وكل من استطاع الهرب من الاملين . . . وبدأت أحس بقدمي تؤلمني ، ولكنني تابعت المشي . . . لقد كان من الحماسة ان يسلم بونلو نفسه للدلان ، وقد شارفنا على النهاية ، وتجاوزنا معظم بقاع الخطر . . . ولولا أن قلب بارتو قد كف عن الخفقان لكانت رحلتنا موفقة جدا .

— كيف تشعرون ايها الليوتنان ؟

— حسنا .

— انني مرهق جدا .

— كل ما تبقى عمله الان ان نتابع المسير .

— لقد أخطأ بونلو في فعلته .

— كثيرا .

— ماذا ستجري ضده ؟

فأنت تعلم انه اذا ما استمرت الحرب ، يتخذون اجراءات قاسية بحق

عائلته .

— الحرب لن تستمر . . . صاح أحد الجنود من خلفنا :

— اننا ذاهبون الى بيوتنا . . . الحرب انتهت .

— كل جندي سيعود الى منزله .

— كلنا عائدون الى منازلنا .

- انتهت الحرب ••
- هلم ايها الليوتنان ، خاطبني بياني قاصدا ان نتخطاهم •
- ليوتنان ! من هو الليوتنان ؟ الضباط المجرمون •• ليسقط الضباط •
- فامسك بياني بذراعي هامسا :
- الافضل ان اتاذيك باسمك ، لقد قتلوا عددا من الضباط •
- حدثنا الخطى وتجاوزناهم بمسافة قصيرة ، فقلت لبياني :
- لن اقدم تقريرا يمكن ان يسيء الى عائلته •
- واذا ما انتهت الحرب ، فلن يؤثر ذلك مطلقا •
- سنتحقق الخير سريعا •
- لا اصدق انها انتهت •
- يعيش السلام ، صاح احد الجنود من خلفنا •
- فقال بياني :
- كم هو رائع ان يعود الجميع الى بيوتهم ، الا تشعر بالحنين الى وطنك؟
- بلى •
- ولكن لن نعود ، لا اعتقد انها انتهت حقا •
- لتسقط الحرب ، صاح جندي اخر •
- انظر ايها الليوتنان •• انهم يلقون ببنادقهم ارضا •• انظر !
- ينبغي ان يحتفظوا بها •
- يظنون انهم اذا تخلصوا منها ، فلن يستطيع دفعهم الى القتال •
- على انني رغم الظلام ، تمكنت من الوثوق ان معظم الجنود ما زالوا
- يحتفظون بأسلحتهم •
- من اية فرقة انتم؟
- من فرقة السلم •
- فلم يقل شيئا ، ولكن اصواتا اخرى ارتفعت :
- ماذا يقول ؟ ماذا يقول الضباط ؟
- عاش السلم • امرعوا الى بيوتكم •
- فهمس بياني في اذني : - هلم من هنا •
- فاجتزنا سيارتي اسعاف بريطانيتين :
- انهما قادمتان من كوريزيا ، رأيتهما هناك كثيرا •
- استطاعوا بلوغ نقطة أبعد مما قدرنا نحن •
- يظهر انهم رحلوا قبلنا •

- ولكن أين سائقيهما .
 - لعلهما هرعاً مشياً على الأقدام .
 - يظهر ان الالمان يرابطون خارج الودين . . وسيضطر جميع هؤلاء الى عبور النهر .
 - هذا ما يجعلني اعتقد ان الحرب ستستمر .
 - انهم يستطيعون التقدم ، والذي يدهشني .
 - لماذا لم يفعلوا ذلك حتى الآن ؟
 - لماذا لم يبدأوا زحفهم ؟
 - لست أدري ، قانا لا أفهم شيئاً عن هذا الصنف الغريب من الحروب ، لعلهم بانتظار اعداد مواصلاتهم .
 - لا أعرف ، كان صوتاً مرتعشاً خشوعاً ، وكان يتكلم بأدب ظاهر ، نقيض حاله يوم كان برفقة الآخرين فسألته :
 - هل انت متزوج يا بياني ؟
 - نعم .
 - انت تعرف اني متزوج ؟
 - وهل هذا سبب امتناعك عن تسليم نفسك كما فعل بوتلو ؟
 - هذا أحد الاسباب .
 - هل انت متزوج ؟
 - لا .
 - ولا بوتلو .
 - المرء لا يستطيع التحدث امام انسان متزوج اثناء الحرب .
 - كيف قدماك ؟
 - تؤلمني كثيراً .
- كانت خيوط الفجر الاولى ترسم في الافاق ، عندما اشرفنا على مجرى النهر الذي تقع عليه بلدة تلكيماتنو ، فمشينا قاصدين الجسر ، الذي لا بد ان يعبره جميع من وراءنا .
- كانت مياه النهر فائضة ، فتتراى للمناظر كأنها في دوامة هائلة ، وكان من عادة المياه ان تظل بعيدة عن اسفل الجسر ، ولكنها اليوم تحاول الارتفاع فوقه ، بعد ان لامست امواجها الألواح الخشبية .
- الامر الذي ضايقني كثيراً . . لم يكن هناك احساس حافز بوجود عبور الجسر بأسرع ما يمكن ، فماذا لو حلقت الطائرات بعد وقدفتنا بنارها ؟

- بياني *

- ها .. ها انذا ..

كان يتقدمني قليلا ، ولم يكن أحد ينيس بينت شفة ، فكان الجيمح يسيرون في موكب طويل صامت ، الى المصير الجهول *
وعندما قاربنا منتهى الجسر ، رأيت صفتين من الضباط والجنود يقف كل منهما قبالة الآخر ، يصوبان الاضواء على بعضهما ويتجهان بانظارهما نحو السماء *

وما ان بلغنا بداية موقف حتى اشار احد الضباط الي جندي من الصف المقابل ، فأسرع هذا الاخير وكان من البوليس الحربي ، ثم رجع يسوق رجلا من العابرين ، واخذ به بعيدا عن الطريق *
وعندما غدونا وسطهم ، ادركت ان فريق الضباط يتدخسون وجوه كل السائرين ، وأحيانا يتقدم أحدهم ويضيء مصباحه في وجه من يرتاب به ، من القافلة الزاحفة ، وقبل ان تتجاوزهم ، أخرجوا عابرا ، استطعت ان أتميزه ، كان يرتبة لغتانات كولونل ، تلمع النجوم الذهبية على كتف معطفه ، ذا قامة قصيرة بديئة ، وشعر طويل أشهب وساقه البوليس الحربي بعيدا .. ولم أكد أدير وجهي عنه حتى لمحت أحدهم يشير بيده ، السي ، واقترب مني البوليس الحربي ، وشعرت بيده تمسكتني من العنق *

- ما بك ؟

سألته مسددا للكمة في وجهه ، الذي نقر الدم منه ، بينما هرع جندي آخر تجاهنا :

- اخبرني ما بك ؟

فلم يجب ، كان يتحين الفرصة لينقض علي فأرجعت يدي خلفا أريد مسدسي صالحا به :

- ألا تعلم انك لا تستطيع لمس الضباط *

ولكن البوليس الثاني كان قد قبض على يدي ، ورفعها أعلى ، فالتفت نحوه ، لما كان من الاول الا ان تمكن من عتقي ، على اني عالجتة برفسة من قدمي ، دفعتها ما بين ساقيه ، في أسفل بطنه *

- اقتلوه .. اقتلوه اذا استمر في المقاومة صاح أحدهم من بعيد *

- ماذا تريدون ؟ وحاولت أن أرفع صوتي ولكنه لم يسمعني ، كانوا قد

أحكوا قبضهم علي وألقوا بي أرضا .. على جانب الطريق *

- اقتله اذا قاوم .. ضابط : اقلبه على بطنه *

- من أنت ؟
 - سوف تعرف .
 - من أنت ؟
 - البوليس الحربي ، أجب الآخر .
 - لماذا لم تطلبوا مني أن أقف جانبا بدلا من الانقراض علي ؟
 فلم يجيبوا . لم يكن هناك ما يضطرهم أن يجيبوا . أن ذلك ليس
 من شأنكم ، هم رجال البوليس الحربي .
 صاح ضابط من الصف المقابل :
 - خذه الي زملائه ، وانتبه انه يتكلم الايطالية برطانة .
 وساقني الرجلان بعيدا عن الجسر ، الي نقطة في الحقل تقرب من
 شاطئ النهر ، حيث تقف جماعة من الناس ، سمعت قبل
 ان تصلها صوت الرصاص ينطلق خلفها .
 كان هناك أربع ضباط يقفون معا ، بشكل نصف دائرة ، امامهم رجل ،
 يحيط به جنود البوليس الحربي ، بينما تجمع على مقربة منهم ، فريق من
 الرجال ، يحيط بهم جنود شاهرو السلاح .
 دفعني البوليسان نحو الاسرى .
 حدثت في الرجل ، الواقف امام هيئة الضباط الاربعة ، فعرفته ، انه
 اللغتنايت كولونل الذي ساقوه امامي ، بعد أن انتزعوه من الغافلة المنسحجة .
 كانت نظرات الضباط المستجوبين تشعرني بأنهم يملكون كسل النفوذ
 والفعالية ، في تقرير مصيرك ومصير الكثيرين .
 - فصيلك ، سمعتهم يسألونه .
 فأخبرهم :
 - الفرقة ؟
 - لماذا لم تبق معها ؟ فأخبرهم بالسبب .
 - ألا تعرف ان من واجب الضباط المقاومة حتى النهاية ؟ فأجابهم .
 وانتهى كل شيء ، وتكلم ضابط آخر :
 - أنت ومن على شاكلتك ، الذين سمحتم للبرابرة تدنيس تربة ايطاليا
 المقدسة .
 - أرجو عفوكم .
 - من جراء الخيانات ، خياناتكم فقدت ايطاليا ثمار النصر .

- هل اتفق لكم ان اشركتم في عملية تراجع كهذه ، سال الكولونيل
المسكين .

- ايطاليا يجب ألا تتراجع أبدا .

كان المطر يهطل فوق رؤوسنا ، ونحن نستمع الى مجريات المحاكمة ،
والهيئة المقررة قبالتنا بينما المتهم يقف وظهره اليها :

- اذا كنتم ستقتلونني ، قال اللفتنانت . فأرجوكم تنفيذ ذلك قورا . دون
زيادة في الاستجواب . ان هذا استجواب احق .

واشار بعلامة الصليب على صدره ، بينما راح الضباط الاربعة
يتشاورون فيما بينهم وخط احدهم شيئا على ورقة امامه ثم صاح :

- ترك جنوده . محكوم بالاعدام رميا بالرصاص وفي الحال ساقه

جنديان الى ضفة النهر : كان رجلا مسنا بدينا ، بلا قبعة ، تنقط من ثيابه
الملوثة قطرات المطر . وبعد قليل لعلعت طلقات ثلاث ، لا شك انها ازهقت

روحه . بينما شرع الضباط في استجواب رجل آخر ، كان قد غادر جنوده
ايضا ، ولم يسمح له بتبيان قضيتته ، وانما سمعت عويله بعد ان اعلن الحكم

عليه قتلا بالرصاص .

وفيما راحوا يعيدون التمثيلية مع متهم ثالث دوت الرصاصات الثلاث .

وهكذا المتهم السابق ، فيخلصوا بذلك من فترة الانتظار الصامت المل .

وتملكنتني الحيرة ، هل انظر دوري في الاستجواب أم أقوم بعمل حاسم

قورا ؟ كان من الواضح انهم سيعتبرونني المانيا في لباس ايطالي . لقد

اكتشفت كيف كانت عقولهم تعمل وتفكر اذا كانت لهم عقول حقا ، او كانت

هذه عقول تفكر وتعمل . كانوا فتيانا صغارا ، اخطأ الذين سمحوا لهم

بازتداء ثياب الحرب ، ودفعوهم الى معترك السماء ، وكانوا يعتقدون انهم

يعملهم هذا يدافعون عن شرف وطنهم ، ويدودون عنه غير عالمين ان الجيش

الثاني قد اعيد تشكيله فيما وراء تكلمانتو وان كثيرا من ضباطه قد سرحوا .

وهكذا راحوا يعدمون ضباطا ورجالا برتبة ماجور ورتب اعلى ، ملصقين

فيهم تهمة ترك الجيش ، متبعين الطريقة ذاتها مع من تقرر عواطفهم ، انهم

المان بالزني الايطالي ، ولكن بسرعة مذهشة وبعملية مختصرة جدا .

وظللنا تحت وابل الامطار . يسوقون منا واحدا اثر واحد للمجزرة

الصامتة ، دون ان الحظ ان رجلا ممن استجوبوا ، نعم بحكم غير حكم الموت ،

فلقد كان الحاكمون يتمتعون بحق فرض عدالة الموت على اناس كان الموت

بهذه الصورة ، أبعد ما يكون عن تفكيرهم .

— فرقتك ؟

فاجبتهم الضحية السابعة ، وتطلعت حولي ، كان الحرس ينظرون نحو القادمين الجدد ، وبعضهم ينظر الى الضحية ، فاحسبت رأسي واندمعت كالسهم بين الرجلين ، قاصدا النهر ، وقدفت نفسي فيه فور بلوغه .

كان الماء باردا جدا ، ومع ذلك حاولت ان ابقى في دوامته العنيفة ورغم ذلك نجحت في الاستمرار الى الاسفل ، حتى خيل الي اني لن استطيع الصعود ابدا ، وفي اللحظة التي تمكنت فيها من الارتفاع واستنشاق الهواء سمعت اطلاق الرصاص ما زال متواصلا ، كانوا يطلقون في كل اتجاه ، ثم حصروا القذف نحو النهر ، على ان ثقل الملابس التي كنت ارتديها ، ووزن حذائي الحربي ، سهلا علي البقاء في الاعماق ، بعيدا عن مرمى رصاصهم . وعندما الضماء ، بعد ان رفضت تسليمه الى قريتي من بني الانسان ، ان تودي بي الى طافية امامي ، وجسدي متدلليا من طرفها ، وبعد ان وثقت اني اسير باتجاه مطمئن وبالسرعة الكافية ، رفعت جسدي فوق الماء ، وتركت قطعة الخشب تسحبني دون ان احتاج الى جهد ما .



لا يستطيع السابح ان يعرف الوقت الذي يقضيه في الماء اذا كان المجري يتدفع مسرعا ، فقد يتراءى له ، لطول المسافة ، انه قضى وقتا مديدا جدا ، بينما الواقع غير ذلك .

كانت مياه النهر باردة كالصقيع ، تمتزج بها وحول الطرقات المجروفة ، وتقوم فوقها انصاف الشجر وفتات الاخشاب المهترئة .

ولم يكن يشغل بالي الا ان اصاب بالتشنج وتشل حركة بعض اعضائي ، قصرت ارجو الاقتراب من الشاطئ . ومن حسن حظي ان انعطفت بي المجري بعد قليل ، ومكنتني خيوط الفجر الاولى من تمييز شجيرات الضفة المتقاربة ، وحررت هل ازرع حدائي وملابسي ، واحاول الوصول الى الشاطئ ، ام اترك للتيار ورقة الخشب الصماء امر قيادي ، ورغم اني لم اكن افكر الا ببلوغ الضفة ، الا اني رفضت فكرة نزع ملابسي وحدائي ، فكيف ستكون حالتي عندما اخرج من الماء عاريا حافي القدمين ، وانا مضطر لدخول بلدة مستري والركوب منها ؟!

وظل التيار وقطعة الخشب يتأرجحان بي ، تارة يقرباني من الشاطئ ، وطورا يبعداني عنه ، ثم اخذ مجرى الماء يبطني في اندفاعه ، ولكنه ينحني قريبا من الضفة ، فحشدت جميع ما تبقى من قواي ، ودفعت بقطعة الخشب صوب اليابسة ، ولكن عينا خائفتي قواي ، وغلبتني المياه ، وخطر لي ثانية ان ازرع حدائي ونوبي ، وخشيت ان انا استمررت في القاء زمامي الى قطعة الخشب الصماء ، بعد ان رفضت تسليمه الى قريني من بني الانسان ، ان تؤدي بي الى الهلاك ، هي الاخرى ، فعبأت كل قواي مجددا ، وأعدت الكرة ، ذاقعا بعزيمة اشد وأقوى ، وبمتابعة مستمرة ، وبعد قليل ، رفعت رأسي لاربي نتيجة جهودي اليائسة ، فاذا بي اجد الضفة اقرب ، وأتمكن من تمييز حتى الوريقات الصغيرة الخضراء . وخلق ذلك الامل بالعودة الى الحياة سالما ، عزا جديدا في نفسي ، وقوى رجائي ، فاندفعت اذني بجسدي وبقطعة الخشب شرقا ، مستغيبا بكل قطرة من دمي وباعنا الرمق الأخير في كفاح ضد

خطر الموت غرقا .. ولكن لما حادا ممزقا دب في ساقى وفي أحشائي ، وأحسست
بمعدتي تطحن الفراغ، وبقلبي يخفق خفقانا مرعبا، وكدت أقعد وعيي ولم أشعر
الا ويدي تصدم الصخر وبالماء ينحسر قليلا عني ، فبقيت هكذا معلقا بين
الارض والماء ، بين الموت والرجاء ، حتى خف الألم الصارخ قليلا ، واستطعت
الزحف على معدتي الى البر ، مرثميا فوق أرضه المنشودة ، وخيرير الماء
وصوت المطر الغزير يختلطان في اذني .

وبعد استراحة قصيرة نهضت وباشرت المسير ، كنت اعرف عدم وجود
جسر حتى قرية لاينسانا ، وتصورت اني الآن مقابل بلدة سان فيتو . وبدأت
أفكر بما ينبغي عمله . ولكن أخذودا عميق القعر ، على خطوات مني ، جذبني
الى جوفه . فارتيمت فيه ثانية ، أريد الاستزادة من الراحة ، ثم نزعنت
حذايي ، افرغت ماءه وكذلك معطفي ، مخرجا من جيبه الداخلي ، حافظه
نقودي وأوزاقي ، التي كانت جميعها مبللة ، ثم نشرت المعطف وكذلك
سروالي وبقية ملابسي بعد ان عصرتها ، وعدت الى النهر أفرك جسدي .
وقبل أن ارتديها ثانية نزعنت النجوم عن كتفي ووضعيتها في جيبي
الداخلية ، مع نقودي التي تبلغ قرابة الثلاثة آلاف لير .

كانت جميعها رطبة لزجة ، فرحت أطم على ذراعي وساقى أريد
تنشيط حركة الدم ، ثم أسرعت في المسير ، كان الريف يشعر بجو الشتاء
البارد الموحش . فقد كان مبللا قاتما .. كثيبا .. الحقول كلها عارية جرداء
تغمرها المياه .. وتفوص بها القدم عميقا .. وتراءت في الأفق أمامي اسوار
دير قديم ، برجه فوق الضباب .. ثم لمحت فصائل من الجند تسير في غير
اتجاهي ، فدسست جسمي بين الشجيرات الكثيفة ، حتى ابتعدوا عني ، دون
أن يعيروني النظرة واحدة . كانوا من المدفعية يقصدون نقطة على ضفة النهر
.. وتابعت طريقتي ..

• • •

تحت أمطار ذلك اليوم الموحش الكئيب عبرت سهل فنيشيا الشاسع
.. انها اراض منخفضة واسعة .. تكسر المستنقعات الملحية في أجزائها
القريبة من البحر ، وتتخللها عدة طرق ، تحاذي مجرى النهر في اتجاهها ، ولا
بد للذي يقدر له عبور تلك الفيافي المقفرة من الاهتداء بسير تلك الطرق
المتعرجة الضيقة ، الموصلة في نهايتها الى البحر .
ظللت متابعا سمري الجنوبي قاطعا خطين من سكك الحديد ، مارا بعدة

مفارق ، حتى بلغت الخط الحديدى العريض الذى يصل بين فينيتيا وتريستا ، برصيفه المرتفع الصلب ، وقضبانه الفولاذية المتينة ، يحاذيه ممر من كلا الجانبين في نقطة بعيدة من أحدهما ، رأيت علم محطة يرتفع ، وحوله جنود من حرس القطارات ، بينما كان في الناحية المقابلة جسر أقيم فوق نهرس تفيض مياهه في الاراضي السبخة ، قد وقف على طرفيه هو الآخر جنديان من الحرس ، وفيما انا أهم بتغيير وجهة تقديى ، والانعطاف شمالا ، سمعت الهدير من بعيد ، وفي الحال لمحت القطار القادم من بورترغورو ، فاستلقيت تحت رصيف الخط ، انتظر وصوله ، كان القطار طويلا جدا ، الامر الذى جعل حركته بطيئة جدا وكنت واثقا من مقدرتي في التعلق به ، واستراق البصر الى جوف احدى عرباته ، مع علمي بوجود حرس في كل منها ، وعندما اقترب حاولت رؤية أماكنهم ، ولكن حرصى على عدم الانفضاح اعاقني عن ذلك ، فانتظرت الى أن أصبح قبالتى ، وتجاوزتني عربة السائق ، وعدد من القاطرات الأخرى ، ونهضت متحفزا للوثوب ، متقدما بهدوء وعجلة ، واثقا ان الحرس لن يعيروني انتباههم ، حتى حاذيت عربة واطئة يغطيها « الجنيفس » ، فقفزت نحو مؤخرتها متمسكا بقضبانها الحديدية ، ثم دفعت نفسي وتعلقت بها جيدا ، وكانت العربة قد أصبحت الان مقابل الجسر الصغير ، فتذكرت الحارسين المرابطين فوقه ، فانطرحت ارضا ، وانقضت دقيقة ثم أخرى ولم أشعر بشيء ، وعندما تطلعت نحوهما ، كانا شابين صغيرين ، يفوس وجهاهما داخل الخوذتين ، الواسعتين ، والظاهر انهما لم يحفلا بوجودي على تلك الحال . بل ربما يكونان قد سخرا من وضعي هذا متابعين خطواتهما النظامية على أرض الجسر ، وبعد أن تجاوزناهما بمسافة طويلة ، مدت رأسي اريد معرفة مدى أحكام غطاء الجنيفس حول العربة ، كان موقوفًا بالجبال ، فأخرجت سكينى وقطعت اقرب جبل الى ، ثم مدت يدي داخلا استكشف نوع الحمولة . فارتطمت يدي بأجسام صلبة ، ولكن أدركت وجود متنسح لي ، فأقلت يدي الأخرى عن مقبض المؤخرة ودفعت جسدي داخلا بسرعة فائقة خشية ان يشعر الحارس بحركتي الا أن رأسي ارتطم بالمادة الصلبة ، وسال الدم على وجنتي . ولكنى تمكنت من النجاح والاطمئنان الى ملجئي الجديد ، وبعد أن أعدت احكام وضع الجنيفس كما كان سابقا ، تمددت الى جانب المدافع ، تفوح رائحتها القوية من الزيوت والشحوم في

منخري ، بينما يضح في مسامعي صرير عجلات القطار ، وصوت هطول المطر
ومن خلال فتحة في الغطاء سرى الضوء الى جوف العربى المظلم ، فمكنتني من
تأمل هياكل المدافع ، المرتدية معاطفها السميكه .

كانت الرضة في جيني قد تورمت ، وكنت قد تمكنت من ايقاف
الزيت بضغط الجرح ، وباستمرارى مستلقيا على ظهري وبعد ان جمد الدم
تماما ازلته . ما عدا الدم الذي كان فوق الجرح ، ولما لم اكن احمل منديلا
فقد احتلت بالاستفادة من نقاط المطر التي تسح من الغطاء الجتيفسي ، في
تنظيف وجهي مما يمكن ان يلقت النظر ويشير الزبنة ، وبقطرات المطر ايضا
ايضا غسلت يدي من الزيت ثم جففتها بردن معطفي .

كان من الواضح ان القطار سيتوقف في بلدة مستري حيث يفرغون
حمولة المدافع ، الذي يفرض علي مغادرة العربى قبل المحطة بقليل . فآخذت
أترقب بلوغ تلك النقطة والجوع قد أخذ مني مأخذه .

• • •

ومرت ساعات أخرى وأنا مستلق على ظهري ، فوق أرض العربية ، بجوار المدافع ، يغطيها الجنقيص ذو الراححة القذرة .. ظللت هكذا ، مبللا ، جائعا ، منهوك القوى ، حتى ارتأيت أن أنقلب وأنام على معدتي ، ورأسي بين ذراعي ، وأحسست أن ركبتي متيبسة .. فلم أستقر بذلك : لقد قامت بواجبها كما ينبغي .. ان فالتيتيني الطبيب يستحق كل شكر وجميل واعجاب ، فلقد اتى عملا رائعا فلذا .. ان أكثر من نصف عملية الانسحاب الطويلة ، نفذتها ماشيا ، على ركبتي ، ومرحلة نهر تكليمانتو المضنية ، سبحتها في زمهريز برد مخيف وأنا أخشى أن تخونني في عباب الموج ، ولكنها صمدت .. انها بحق ، ملكة ، وملك عبقرية .. أما أنا ، فهذه الامعاء الفارغة التي تلعن الفراغ ، هي ملكي ، وكذلك هذا الرأس المنفوش البلب الذي كف عن التفكير ، كل تفكير ، ولم يعد يصلح الا للذكرى .. وتذكرت كساترين ، وكنت أعرف اني سأصاب بالجنون اذا ما اشتطت في التفكير بها ، فلربما لم استطع رؤيتها ، ولذلك فانا لا أريد التفكير بها ، الا قليلا .. والعربة تدرج ثقيلة متباطئة ، وشعاع خافت من الضوء يخترق فتحة الجنقيص ، وأنا اضجع مع كاترين على أرض العربية .. والامر قاس موجه ، كأرض العربية ، ان تضجع دون تفكير يشغلك ، بل مكثف بالشعور فقط ، وانت قد طان غيابك وتبللت كل ملابسك ، وظلمت وحيدا مدى الساعات الطوال ، وليس سوى حدير العربية ، ورائحة الجنقيص وقطرات الماء ، وأرض موحجة قاسية لا تصلح للزوجة ومهما فعلت ، فلا يمكن ان تشعر بالعاطفة نحو زملائك ، نحو هياكل المدافع ، وزقاع الجنقيص ، ورائحة المعادن المرئية ، ولكنك ستشعر بحنين دافق قوي ، الى الانسان الذي تحبه ، والذي تعلم انه لا يمكنك هنا حتى تخيله مضطجعا الى جانبك .. وانت ترى نفسك الآن ، متبردا ، جائعا ، فارغ الجوف ، تنام على معدتك ، قد رافقت تراجع جيش كبير مهزوم ، وفقدت عرباتك الثلاث ، وفقدت رجالك ،

كما يفقد رب البيت كل ممتلكاته في النار .. ولكنك الآن لست مسؤولا ..
لقد ازالتم مياه النهر كل الغضب من قلبي وذهبت بكل شعور
بالمسؤولية .. مع ان هذا الشعور قد تلاشى ساعة وضع البوليس الحربي يده
حول عنقي .. وتمتيت لو لم اكن ارتدي البذلة العسكرية ، لقد نزعتم النجوم
عن معطفي ، ولكن ذلك كان فقط من جراء الظروف القاهرة .. وليس طعنة
لها ، فانا لم اشعر بالعداء للايطاليين .. ولم امقتهم ، بل على التقيض من
ذلك ، كنت اقدرهم ، واحترمهم ، وارجو لهم التوفيق ، فقد كان بيتهم كثير
من الرجال الشجعان .. الطيبين ، والرجال العقلاء الرزينين ، والجميع
يستحقون التقدير والاكبار ، ولكن تلك النجوم لم يبق لها اية علاقة بي ،
وكل ما ارجوه الآن هو ان يحملني هذا القطار الى مستري ، وان تتاح لي
فرصة الاكل والنوم والجلوس المريح والابتعاد عن كل تفكير بالحرب ..

ولا شك ان بياني سيخبرهم بان رجال البوليس الحربي قد قتلوني
فيما قتلوا من ابناء ايطاليا الابرياء ، او ان القيادة العامة ستعثر لي غريفا
حين لا تعثر علي اوراقني ، واطرقت ساهما : كيف سيتلقى اهلي في اميركا ،
هذا النبا .. نبا انتهائي .. يا يسوع .. يكاد الجوع يعصر قلبي ، ترى ماذا
حدثت لكانم فرقتنا ؟ وريالدي ؟ هل وصل الي بوردينو سالما ؟ آه .. لن
استطيع رؤيته ابداء ، لن استطيع رؤية احد منهم ، لقد مضت تلك الايام ، ايامي
معهم .. آه ، ولكن كفي .. فانا لست علي استعداد للتفكير ، بل للاكل ،
يا يسوع هل اصبح ذلك في منطق المستحيل ؟ ان آكل واشرب ، وانام مع
كاترين ، هذه الليلة .. قد يجوز ، لا ، ليلة الغد .. ووجبة دسمة ، واغطية
نظيفة ، وفرش وتير ، ولا فراق ابداء .. ولربما تضطر للرحيل فورا ، اني
واقق انها سترحل معي ، سترضى بذلك ، ولكن اي مكان سنذهب اليه ؟ ..
تلك مسألة ينبغي التفكير فيها مليا ..

وغابت خيوط النور الباهت الذي كان يشق ظلام ماواي ، وعم سواد
ليل بهيم .. ولم احس الا بجسدي يهتز متجاوبا مع قرقعة العجلات ، ورأسي
يعمل الفكر في المكان الذي سنذهب اليه .. كاترين وانا .. ان هناك اماكن
كثيرة كثيرة ..

دخل القطار مدينة ميلان ، وبينما هو يتباطأ في تقدمه نحو المحطة ،
قفزت من العربة ، واضواء الصباح تنتشر رويدا في الاجواء البعيدة .

تسلقت الحاجز الحجري والقيت بنفسي على أرض الشارع الضيق
المؤدي الى قلب ميلان . مندسا بين المباني المزدهمة ، قاصدا اقرب دكان
للجمهور رأيتته مفتوحا ، طالبا فنجانا من القهوة . .

كان صاحب الدكان يقف وراء منضدته ، بينما جلس جنديان الى
طاولة اخرى ، يحتسيان خمرا . اما انا فاقتربت من منضدة الرجل ، وشربت
القهوة من عليها ، ثم آكلت قطعة خبز صغيرة ، وعندما انتهيت سألتني صاحب
الدكان :

- هل ترغب في تناول قليل من الويسكي ؟

- لا . . أشكرك .

- دون مقابل . . على نفقتي الخاصة ؟ وملا كوبا صغيرا ، ثم دفعه

الي :

- ما الذي يحدث في الجبهة هذه الايام ؟ !

- لا أستطع معرفة ذلك .

- انهما مخموران ، قال مشيرا الى الجنديين ، اللذين كان مظهرهما

يؤكد قوله .

- اخبرني ما الذي يقع في الجبهة ؟

- انا لا أعرف شيئا ، فكيف أستطيع اخبارك ! . .

- رأيتك تتسلق جدران المحطة . . أألسنت هاربا من القطار القادم من

هناك ! .

- عملية انسحاب ضخمة تأخذ مجراها الآن .

- انني اطالع الصحف ، ولكن ما الذي يحدث بالضبط .. هل انتهى كل شيء ؟

- لا اعتقد ذلك .

فملا الرجل كأسا اخرى :

- اذا كنت بحاجة للمساعدة فأنا استطيع تدبير مكان امين لك .

- لست بحاجة لذلك .

- اذا كنت في مازق ، فبإمكانك المكوث هنا ، برفقتي ؟

- هنا ؟ واين يمكنني المكوث ؟

- داخل البناية ، الكثيرون يلجأون الي .. جميع الذين يطلبون العون .

- وهل الذين يطلبون المساعدة كثيرون جدا !

- القضية تتوقف على نوع المساعدة .. انت من امريكا الجنوبية ؟

- لا .

- تتكلم الاسبانية ؟

- قليلا .

- من الصعوبة بمكان كبير ، مغادرة البلاد في هذه الايام .. على ان

ذلك ليس مستحيلا بالنسبة للجميع .

- لا أريد مغادرة البلاد .

- بإمكانك البقاء هنا ، المدة التي تريدها وستتبين أي نوع من الرجال

أكون .

- ولكنني مضطر لمغادرة ميلان الآن .. فلا بأس من تسجيل عنوانك

بمذكرتي .. فليس بإمكان المرء التكهن بالمستقبل .

فهز رأسه : - لن تحتاج الي .. اذا كان ما تقوله صدقا .. ظننت في

البدء انك بمازق حقيقي .

- لست في مازق ، ولكنني أحترم عنوان صديق مثلك . أجبته ووضعت

١٠ لير على الطاولة ، ثمن القهوة ، وقبل ان يمد يده نحوها ، أشار الي كأس

الوسكي .

- اشربه اكراما لي .

- لا أراني راغبا في الشراب .

- كأسا واحدا فقط . وناولني اياه ، مردفا :

- تذكر جيدا .. تعالي الي لا تدع الآخرين يخدعونك .. فهنا فقط ،

تكون أميناً على نفسك .

- اني واثق من ذلك .

- واثق حقا ؟ !

- نعم .

فاجاب بلهجة اكثر جدية :

- اذا دعني احبرك شيئا هاما . . لا تتجول بهذا المعطف .

- لماذا ؟

- على كتفك ، يظهر واضحا اثر النجوم المنزوعة . . لون القماش

متفاوت .

فلم اقل شيئا ، وتابع هو :

- اذا لم تكن تملك الاوراق المناسبة ، فدعني اقدمها لك ؟

- اية اوراق ؟

- المتعلقة بالاجازة .

- لست بحاجة اليها . . عندي اوراقى الخاصة .

- حسنا ، ولكن اذا احتجت لاي وثائق فبإمكانى تأمينها لك بالشكل

الذى ترغب به .

- وكم تكلف مثل هذه الوثائق ؟

- حسب نوعها . على ان السعر معقول جدا .

- ليس بى حاجة لىلها الآن .

فهز كتفيه ، وعندما حيينته وأنا أهم بالخروج همس فى اذنى .

- لا تنس انى صديقك .

- طبعا . - سارك ثانية ، اليس كذلك ؟

- هذا يتوقف على نوع الظروف .

ما أن ابتعدت عن دكان الخمر ، حتى غطقت وسرت فى اتجاه معاكس

لموقع المحطة حيث يكثر رجال البوليس ، وعند رؤية أول عربة خيل ، أسررت

الى سائقها بالوقوف ، وفقرت فورا ، مخبرا الرجل ان يتجه بى الى المستشفى

الاميركى ، وهناك طرقت فورا باب غرفة الحاجب ، الذى استقبلنى دهشسا ،

ثم اقبل معانقا بحرارة ، تتبعه زوجته :

- لقد عدت سالما . . هل تناولت فطورك ؟

- نعم . - كيف أنت ايها الليوتنان ؟ ! - كيف ركبتك ؟ سألني
الزوجة .

- حسنة . .

- الا تتناول الفطور معنا ؟

- لا . . شكرا . . أخبرني هل الانسة باركلي في المستشفى الآن ؟

- الانسة باركلي ؟ ! . .

- فتاته ، اجابت الزوجة مربطة على ظهري والابتسامة ملء عينيها ،
بينما قال زوجها متذكرا :

- ها . . لقد رحلت .

واحسست ان قلبي راح يخفق خفقانا متتابعا وسألته دون وعي :

- امتأكد أنت ؟ الفتاة الانجليزية الطويلة ؟

- متأكد . . ذهبت الى استرسا .

- متنى ؟

- منذ يومين . . ومعها الانجليزية الاخرى .

- حسنا ، اذا أرجوك أن تنفذ لي هذه الرغبة المهمة : لا تخبر أحدا انك

رأيتني هنا . . فهمت ؟ . . هذا امر هام جدا . . ومددت يدي الى جيبي :

- لن أخبر أحد . . لا . . لا أريد نقودا .

- ماذا يمكن ان نفعل من اجلك ايها السنيور الليوتنان ؟ . . اسألني

اية خدمة ؟ ! قالت لي الزوجة .

- فقط ان لا تذكراني امام احد .

- سنكون كالخرسان : اجاب الحاجب - اخبرني اي شيء يمكن ان

نقوم به من اجلك ؟

- ساودعكما الان . . على ان ازوركما قريبا .

وقفا امام الباب ينظران الي ، بينما اسرعت انا الى العربة ، طالبا من

السائق ان يهرع بي نحو مسكن سيمونس ، احد الامريكيين الذين اعرفهم ،

وكان يتعلم فن الغناء في احد معاهد ميلان الشهيرة ، ويعيش في ضاحية

قريبة ، عند بوابة ماكينينا . وعندما قرعت عليه باب الغرفة ، كان ما يزال

نائما في سريره :

- الظاهر انك اذقت باكرا جدا يا هنري ؟ !

- جئت في اول قطار .

- ما هذا التفهق ؟! ألم تكن في الجبهة ؟ .. هل تريد سيجارة .. في

.. العلبة .. على تلك الطاولة .

كانت الغرفة واسعة ، ذات سرير واحد ، مثبت في احدى الزوايا ،
بينما صنعت في الجبهة المقابلة طاولة صغيرة وكريسيان وجهاز بيانو ثم خزانة
ملابس صغيرة .

ادتيت الكرسي وجلست قبائلته ، بينما انكأ هو على وسادته ، وراح

يدخن :

- اني على عجل يا سيم .

- وكذلك انا .. انني دائما على عجل .. ألا تريد سيجارة ؟

- لا ، كيف العمل للذهاب الى سويسرا ؟

- بالنسبة لك ؟! لن يسمحوا ابدا بمقادرتك البلاد .

- أعرف ذلك ، ولكن السويسريين ؟ ماذا يكون موقفهم ؟

- سيلقون القبض عليك .

- أعرف ، ولكن ماذا يتبع ذلك ؟!

- لا شيء .. المسألة بسيطة جدا .. وباستطاعتك الذهاب اني شئت

.. ولست بحاجة الا لاجبار البوليس عن مكان وجودك .. ما القضية ؟ هل

أنت هارب من وجه البوليس الحربي ؟!

- حتى الآن .. لايمكنني تحديد شيء البتة .

- ليس من الضروري ان تخبرني اذا رايت ذلك في غير صالحك ..

ولكن الامر مله سماعه ، كن مطمئنا فلن يقع لك شيء هنا .. هل وصلتك

اخباري ؟! كنت مفاجأة عظمى في بايسيزا .

- آسف لم يصلني شيء .

- ها .. وقد ساءت صحتي كثيرا .. ومع ذلك فقد أجدت في الغناء

- حتى ادهشت جميع الحاضرين .. وساعيد الكرة قريبا ولكن في لبريگو .
- كم أرغب في أن أكون حاضرا .
 - انك لطيف جدا .. لست في مازق حرج ؟ اليس كذلك ؟
 - لا أدري بالضبط .
 - لا تخبرني اذا كنت تفضل كتمان الامر .
 - .. ما الذي حدث وجعلك تبتعد عن جبهة القتال الداعية ؟
 - حسب اعتقادي .. اني ما زلت في قلب المعركة .
 - أيها الفتى الطيب .. أعرفك دائما ذا عقل راجح .. هل باستطاعتي مساعدتك في أي وجه ؟
 - أنك مشغول جدا .
 - حسنا ، لا تخبرني شيئا .. لا تخبرني أي شيء ، يا عزيزي هنري .. ومع ذلك سأكون سعيدا جدا اذا ما استطعت تقديم خدمة لك .
 - جسمك قريب من جسمي ، هل تخرج وتشتري لي ثوبا مدنيا ..
 - فملايسي جميعها في روما .
 - كنت تعيش فيها .. اليس كذلك ؟ انها مدينة قادرة .. كيف استطعت الحياة بها ؟
 - فكرت أن أدرس فن البناء .
 - ولكنها ليست المدينة المطلوبة .. اسمع .. لا تشتتر ثيابا جديدة ..
 - فأنا اعطيك كل ما تحتاجه منها ، عندي ملابس كثيرة وسادبر لك الامر بحيث أجعلك تظهر بها كما ينبغي .. هيا .. هناك في تلك الخزنة .. انتق الثوب الذي يروق لك ، فعندي الكثير ولست بحاجة لدفع لير واحد !
 - أفضل الشراء يا اسيم .
 - يا صديقي العزيز ، أقولها لك بصراحة .. اني أفضل منحك كل ثيابي على ان أنهض الآن وأخرج لشراء بدلة جديدة .. هل تحمل جواز سفر ؟ لن تستطيع السفر بدونه .
 - ما زلت احتفظ بجوازي .
 - إذن البس وانطلق صوب بلدة هلفتيا .

- ليس ذلك سهلا ، ينبغي أولا الذهاب الى استرسا .
- حسنا .. حسنا .. وما عليك بعدئذ الا ان تعبر البحيرة في أحد الزوارق .. رحلة ممتعة .. لو لم أكن مرتبطا بحفلة غناء .. لرافقتك .
- بإمكانك الاستعانة بجهاز تسجيل الاصوات .
- يا صديقي العزيز : سأستعين به فيما بعد .. مع اني في الحقيقة أستطيع ذلك الآن .. ثق اني أبدع في الغناء تماما .. اسمع ..
- ولوى عنقه مرددا لحنا من قصيدة « أفريقيا » ولم يتم مقطعها الاول حتى أحمرت أوداجه وبرزت عروق رقبته :
- كيف ترى ؟ أستطيع الاستعانة بجهاز التسجيل .. سواء طربوا أم لم يطربوا .
- وفجأة تذكرت ان عربة الخيل ما زالت في الخارج تنتظري :
- سأخرج لأمر العربة بالانصراف .
- حسنا .. ولكن عد لتناول الفطور معا .
- قالها وقفز من السرير ، ثم وقف منتصباً وتنفس طويلاً وشرع في تمرينات رياضية .. بينما استأذنت أنا وخرجت لأنقد السائق أجره .

• • •

شعرت ، وأنا في الثياب المدنية ، أني كالإنسان الشاذ .. لم أَلْف منظر شخصي للوهلة الأولى وأحسست ان طابعا غريبا يتملكني ... لقد قضيت في الثوب العسكري زمنا طويلا نسيت معه تلك الصورة الساذجة الطبيعية التي كانت تضفيها على شخصي الثياب المدنية .. على أني سرعان ما نسيت كل ما يتعلق بهذا الامر ، شاغلا فكري في كيفية الوصول الى استرسا .

ومن ميلان ، اشتريت تذكرة سفر اليها . وركبت اول قطار يقصدها ، وكان يجلس في العربة التي دخلتها ، ثلاثة طيارون ، لم يابهوا بي ابدا ، بل انهم تجنوا النظر الي ، غير حافلين برجل في عمري ، يرتدي الملابس المدنية ، ولكنني لم أشعر بأنني أهنت ، مع ان الحادث لو وقع مثيله في الايام الماضية ، لثرت وطلبتهم جميعا للمبارزة .

وعند بلوغ القطار محطة كالارات ، غادره الطيارون ثلاثتهم ، فسرت لبقائي وحيدا ، وكنت قد ابتعت بعض الجرائد الصباحية ، فأخرجتها محاولا تمضية الوقت .. ولكنني لم أقرأ شيئا .. كنت نافرا من قراءة أي شيء عن الحرب .. وأنا في طريقي لتسيان كل ما يمت لها بصلة .. لقد عقدت سلما منفردا ، سلما خاصا ، وليستمر الآخرون في الحرب ما شاؤوا . وبالفعل وضعت الجرائد جانبا دون ان أقرأ حتى عناوينها الكبيرة ، واسندت رأسي الى جدار العربة ، شاعرا بضيق شديد من الانفراد والصمت المستمر ، ولم أحس بانفراج الضيق الا حينما توقفت العربة . وعلمت ان المكان هو استرسا .

لم اجد في باحة المحطة حمالا واحدا .. لقد انقضى الصيف منذ زمن ، ولم يعد احد يحفل بقدوم القطار أو رحيله ، ولذلك حملت المحفظة الصغيرة،

الخاصة بسيمون ، والتي لم يكن في داخلها شيء ذو قيمة أو وزن ، ووقفت عند باب المحطة أترقب مرور سيارة أو عربة خيل ، على ان انتظاري طال دون جدوى ، فاقتربت من رجل كان يقف داخل القاعة الفسيحة ، وسألته عن الفندق الذي يمكنني النزول فيه ، في هذا الفصل من السنة ، فأخبرني ان فندق بوروميس الغمخ يعمل طوال العام ، وكذلك عدد من الفنادق الأخرى . شكرت الرجل وانطلقت في الشارع العام ، تحت المطر ، قاصدا فندق بوروميس ، والمحفة في يدي ، وعند نهاية الشارع ، لمحت عربة تسير متباطئة ، فأشرت الى سائقها الذي انعطف نحوي على الفور ، ونزل من مقعده ماذا يده لتناول الحقيبة . ان وصولي الى الفندق في عربة ، افضل منه ماشيا على قدمي ، والمحفة في يدي والمطر يببل رأسي وثيابي . اسرع الحاجب تحت مظلته ، وحمل الحقيبة ، وسرت أنا بجاتبه ، بعد ان رحب بي ترحيبا حارا . ودون عناء يذكر ، اخترت غرفة واسعة ، حسنة الانارة ، تطل على البحيرة ، التي كانت سماؤها ساعتئذ ، ملبدة بالغيوم الرمادية القاتمة ، ورغم ذلك فهي تبدو رائعة جميلة .

كانت الغرفة التي انتقيتها تحوي سريرين اذ اني اخبرت مدير الفندق اني بانتظار قدوم زوجتي ، وبعد ان ارتحت قليلا ، قمت أتأمل القاعات الواسعة الفخمة ، وانتقل بين غرفه المترفة التاثيث ، ثم اتجهت صوب (البار) وهناك وجدت اني أعرف الرجل المسؤول عنه ، فالتهمت قطعاً من البطاطا المحمرة ، وقليلاً من اللوز المسلح ثم شربت كأس نبيذ وهممت بالانصراف ولكن الرجل سألني :

— ماذا تعمل هنا ؟

— أقضي اجازة النقاهة .

— لا يوجد الا القليل من النزلاء . . . ولست ادري لماذا يبقون الفندق

مفتوحا .

— ألم تذهب للصيد في البحيرة ؟

— بلى ، اصطدت كثيرا من السمك ، ففي هذا الوقت من العام يمكن

الصيد بسهولة .

— هل وصلتك غلب السجائر التي ارسلتها لك ؟

— نعم ، ألم تصلك البطاقة ؟

فضحكت ، كان يريد سجائر امريكية ، ولكن اهلي كانوا قد توقعوا

عن ارسالها ، او ربما قد تكون منعت ، فبعثت له بسجائر فرنسية بدلا منها :

- أخيرني ألم تر فتاتين انجليزيتين في البلدة هنا ٠٠٤ قدما منذ يومين .

- لم تمرّلا عندنا .
- هما ممرضتان .
- ها ، لقد لمحت ممرضتين ٠٠ تمهل ٠٠ دقيقة واحدة ٠٠ انتظر
- دقيقة . ساتذكر أين رأيتهما ٠٠
- احداهما زوجتي ٠٠ وقد حضرت لرؤيتها .
- والاخرى زوجتي انا ٠٠ وكنت انتظرها .
- لست ادعبك .

- اذا اصغح عني ٠٠ انها حقوة بريئة ٠٠ لم افهم قصدك الحقيقي ٠٠ قالها واستاذن بالغياب عتيبة ، بينما رحلت أنا التهم حيات اللوز المملح ، وانظر الى نفسي في المرأة المواجهة ، وقد راق لي منطري مرتديا الملابس المدنية ، وقبعة سيمون الانيقة . وبعد قليل ، عاد والبشر باد في وجهه :

- انهما في الفندق الصغير قرب المحطة .
- ماذا تقول في بعض (السنديويش) ؟
- سأطلب جلب ما تريده منها ، فنحن هنا لا نملك شيئا البتة ٠٠ إذ لا يوجد نزلاء كما اخبرتك .
- مطلقا ؟
- قليل جدا .

لم يمض ما يقارب خمس عشرة دقيقة حتى اقبل الحاجب وبينه قطع السنديويش ، فالتهمتها جميعا ، مرفقا اباعا بجرعات من الوسكي النقية المبردة ، التي لم اكن قد تذوقت مثيلا من قبل حتى انها اشعرني بعودتي الى الحياة المدنية، بعد ان كنت قد مللت مضغ الخبز الاسود والقهوة الرديئة، والسكر القذر ، وفيما انا اتلدد بمضغ الخبز النظيف ، مستوعبا جمال منطري فوق الكرسي المرتفع قبالة المرأة اللامعة ، وكل ما حولي براق منسق راح الرجل بمطرتي اسئلة متعددة : اجبت عليها دون انقباض تام :

- لا نتكلم عن الحرب فهي بعيدة عنا .
- والواقع انها كانت بعيدة ، ولربما لم يكن هناك حرب بالنسبة لهنه البقاع ، فهي لم تكن قد اكنوت بتيرانها، وكذلك اهلها ٠٠ كانوا بعيدين عنها ٠٠ وما انا ٠٠ أليست بعيدة عني الان ٠٠٤ ألا تعتبر منتهية بالنسبة

لي ؟ ولم لا ؟ .. اني أشعر بالقناعة الكافية اني تخلصت منها !! بانها
حقا لن تتبعني .. الى هنا .. اني أحسن ذات المخاوف ، التي يشعر بها
التلميذ الهارب من مدرسته الداخلية ، دون إذن من معلمه .

• • •

عندما دخلت قاعة الفندق الصغير ، المجاور لمحطة السكة ، كانت
كاترين و فير كوسن تتناولان وجبة غدائهما ، ومنذ وطئت قدمي مدخل
القاعة ، وقع نظري على رأس كاترين ، ذي الشعر الجذاب ، وقد جلست
ووجهها في اتجاه مضاد لناحية المدخل ، فلم يظهر منها الا شعرها ، وأعلى
وجنتيها ، وعنقها البيضاء الجميلة ، ورأيت فير كوسن تتكلم مشيرة بيديها ،
ولكنها توقفت حالما شاهدتني وانتصبت واقفة :

— يا الهي !

— مرحبا .

— ماذا ؟ أنت هنري ؟!

صفت كاترين ، مسرعة نحوي وقد شع وجهها نورا ، وقاض السرور
في عينيها ، ومدت يدها نحوي ، كأنها تحاول الوثوق مما ترى ، عن طريق
اللمس ، فاقتربت منها وضمتها الى صدري ، وقبلتها قبلة طويلة حارة ،
أحمر لها وجهها ، ثم جلستا الى الطاولة .

— انك رجل عجيب ، ماذا تعمل هنا ؟ قالت فير كوسن « ما الذي
أتى بك الينا ؟! أتناولت غدائك ؟
— لا ..

فأخبرت الغناة التي كانت تقدم لها الطعام ان تحضر صحننا ثالثا من
اجلي ، وعادتنا أكلها ، بينما راحت كاترين تنظر الي طيلة الوقت ، وملء
عينيها سعادة غامرة .

— ماذا تفعل بهذه الملابس المدنية ، سألتني فير كوسن .

— انني عضو في مجلس الشيوخ .

— انك عضو في احدى العصابات .

— امرحي يا فير كوي .. امرحي ولو قليلا .

— لن امرح عندما أراك ، فاننا أعرف المازق الذي أوقعت هذه الفتاة

فيه .. انك لست انسانياتا بيعت على المرح والهناء .

تسلطت كاترين في وجهي مبتسمة ، ولمست قدمي تحت الطاولة ، ثم

التفتت الى فيركوسن :
- لم يوقعني أحد في مازق يا فيركي .. وأنا وحدي مسؤولة عما يقع

لي ..
- على كل حال ، لا أستطيع تحمل رؤيته .. انه لم يفعل الا ايداك
وتدمير مستقبلك بحيلة الايطالية الخداعة .. الامريكيون اسوأ خلقا من
الايطاليين ..

- والاسكتلنديون أناس مثاليو الاخلاق ، اردفت كاترين ..
- لا أعني ذلك .. اقصد خداعه الايطالي ..
- هل أنا خداع يا فيركي ؟

- نعم أنت خداع .. بل أنت اكثر من خداع انت كالثعبان .. ثعبان
ببدلة ايطالية وشال حول عنقك ..
- ولكني لا ارتدي بدلة الان ؟

- ذلك مثال اخر من اساليب خداعك .. طوال الصيف وانت تستمتع
بوقت لذبة موصلا هذه الضيبة الى الدمار ، موقعا اياها بفضيحة الحمل ..
والان أنيت لتتدبر أسلوب الفرار ..

نظرت الى كاترين وابتمست ، وبادلتنني هي الابتسامة ثم قالت ،
مخاطبة فيركوسن :

- كلانا سيمتدبر أمر فراره من وجه الاخر ..
- لانكما من طينة واحدة .. كم أنا خجلة بك يا كاترين ! كاترين !
يا كاترين ياركلي ..

ليس عندك حياء ولا شرف .. خداعة مثله ..
- لا يا فيركي ، اجابت كاترين مريئة على يدها .. لا تتهمني هكذا ..
انت تعرفين اننا نحب بعضنا حبا صادقا ..

- ابعدي يدك ، صاحت وقد احمر وجهها وزاد تجهما .. « لو كنت
تملكين ذرة من حياء لما وصلت الى هذه النتيجة ، كم شهرا مضى عليك وانت
حامل ، وما زلت تعتبرين القضية مرحا وهزلا .. ومله وجهك الان سرور
وابتسامات لان خليلك الوجد قد عاد اليك .. ليس عندك ذرة من احساس ولا
حياء ولا شرف ..

وظفقت تبكي .. فاقتربت كاترين منها وعانقتها ، جاعلة ذراعها حول
عنقها ، ثم وقفت تريد مواساتها بصورة اقوى ، فتاملت جسدها .. لم يكن
هناك تغير يذكر في قوامها ..

- اجلسي ... فاننا لا احفل بك ... نهدت فيركوسن ... اني اعتبرها
جريمة تكراه .

- يكفي يا فيركي ... يكفي . انظري اين نحن ، ستخرجي موقفنا ،
لا تبك يا عزيزتي ، ارجوك يا فيركي العاقلة .
- انا لا ابكي . انا لا ابكي الا بسبب الرذيلة الشنيعة التي وقعت في
حماتها .

ورفعت رأسها ونظرت الي : - اني اكرهك ... لن تستطع تخفيف
كراهيتي لك ، انت الايطالي الامريكى الخداع القذر .
كانت عينها وانفها قد احمرتا كثيرا من جراء انفعالها الشديد اما كاترين
تطلعت في وجهي وحاولت ان تبسم تريد منع نورتي :
- لا تبسمي له وذراعك حول عنقي !

- انك تخطئين يا فيركي . فكري فيما تقولين .
- اعرف اني مخطئة ... ينبغي ان لا تؤخذاني كلاكما . اني متفلسة
جدا . لست على حق فيما اقول . اعرف ذلك ، وارجو لكما السعادة .
- نحن سعيدان يا فيركي الطيبة ، اجابت كاترين .

ولكنها بدلا من ان تملك نفسها تسرعت في البكاء ثانية : - انا لا اريد
لكما سعادة من هذا النوع . السعادة التي تنال بالطريقة تلك ... لا
تزوجان ؟ ليس عندك زوجة . اليس كذلك ؟ !

وضحكت كاترين .

- لا مجال للضحك الان ... فالعديد منهم يملكون اكثر من زوجة واحدة .

- سوف تزوج يا فيركي اذا كان هذا يسرك .

- ليس من اجلي ... ولكن ينبغي ان تزوجا .

- كما مشغولين كثيرا كما تعرفين .

- نعم اعرف ... مشغولين بانجاب الاطفال ...

وصممت فجأة مجددة بي ، فظننت انها ستنفجر باكية للمرة الثالثة ،
ولكنها استمرت في عملية التأديب اللادعة : - لا ريب انك ستذهبين معه
هذه الليلة .

- وانا ... هل تتركيني وحدي ؟

- اتخافين البقاء متفردة ؟

- نعم اخاف ذلك .

- اذا لن التركك ..
 - لا ، استمري في ضلالتك بصحبتك .. اذهبي وايام فورا .. الان ..
 الهضنا . اني احس بالهم شديد من جراء رؤيتكما معا .. انتما الوجدان .
 - الافضل ان نهي غداً يا فيركي الطيبة ..
 - لا انصرفا . اقول لكما انصرفا .. هيا .
 - فيركي تعقلي ..
 - لا اريد رؤيتكما .. هيا اخرجي !
 ولم استطع الاحتمال اكثر ، وشعرت انه من الضروري وضع حد لهذه
 الحملة المستمرة ، فقلت لكاترين :

- دعينا نذهب .
 - هل رأيت ؟ انت تريد الذهاب من صميم قلبك ، قبل ان تتم غداًنا
 .. عار عليك ان تصطحبها وتدعاني وحدي . آه ! لقد كانت امينشي العزيزة ،
 ان اقصد هذا المكان الهادي المديح ، الزوج عن لغتسي .. ولكن ، انظر ما
 حدث ، آه ..
 واغرقت في اليكاه للمرة الرابعة ، ثم نظرت الى كاترين ، وغصمت
 بمراة :

- لن نترك . وسأظل معك حتى النهاية اذا كنت تريدين ذلك .
 - « لا ، ابدا ، لا تؤاخذني فانا متفعله كثيراً » .

• • •

ذاك المساء ، عدت الى الفندق الفخم ، وبرفتي كاترين ، وفي غرفتنا
 الواسعة المظلة على البحيرة ، والمطر يتساقط ضارباً زجاج النافذة بحياته ،
 والضوء الهادي ، والسرور المرح يملأ الغرفة ، والسرير المريح يغطيته
 النظيفة الصوفية ، وشعور العائد التي بينه تطغى على قلبينا ، بعيداً عن
 الانفراد بعيداً عن التشرد في ظلام الليل ، بعيداً عن تيار النهر يقابلني
 واغالبه .. في تلك الليلة ، في غرفتنا الواسعة ، وكل احاسيس الحياة
 السعيدة تنقل في نفسينا ، نمنا بعد ان تعب جسمانا ، وكلما استيقظ احداًنا ،
 استيقظ الاخر معه ، كأننا عزمنا ان لا تبقى وحيدين ابداً وان نحارب القراق
 معا .

وفي الصباح عندما افقت ، تذكرت اين اكون .
 كانت كاترين لا تزال نائمة واشعة الشمس تملأ الغرفة من خلال

النافذة ، والمطر قد انقطع صوتة ، والسكون الشامل يعم كل شيء ، فنهضت الى النافذة ، ماذا رأسي من خلالها ، وهناك ، على الارض السحيقة ، بدت لناطري اشجار الحدائق ، منتشرة في كل مكان ، غازية من اوراقها ، وحسي مع ذلك رائحة جميلة ، تتخللها ممرات الحصباء المتلالئة ، توصل جميعها الى حائط البحيرة الحجري ، ذي الارتفاع القليل ، يقابله من الجانب الاخر ، جبال شامخة قد ابيضت رؤوسها وقتم لون سفوحها فظهرت هي الاخرى ، رائحة جميلة .

بقيت عند النافذة اسرح الطرف مطمئنا هائنا ، الى ان حانت مني التفاتة للخلف ، فاذا بكاترين مستيقظة تنظر الي :
- كيف انت يا حبيبي ؟ اليس هو نهار بديع ؟
- كيف انت ؟ هل تشعرين بشيء ؟
- اني على ما يرام ، لقد نعمنا بليلة ممتعة .
- هل ترعبين في تناول الفطور ؟
- نعم .

وكنت ايضا احس بالجوع ، فتدبرت الامر ، كي تاكل ونحن في سريرنا ، وبينما نحن نلتهم الطعام بشهية فائدة واشعة الشمس تتلألا على الصينية النحاسية فوق ركبتني ، سألتني كاترين :

- الا تريد صحيفة الصباح ؟ كنت دائما تطلبها وانت في المستشفى ؟
- لا اريدها الان .
- هل الحالة سيئة لهذه الدرجة ، بحيث انك لا تريد القراءة عنها .
- نعم . لا اريد معرفة شيء عنها .
- ليتني كنت معك ، لعرفت ماذا جرى !
- سوف اخبرك كل شيء ، اذا قدر لي فهم شيء مما جرى من الوقائع العجيبة .

- ولكن التني يقبضوا عليك اذا القوك قد زرعت ثيابك العسكرية ؟
- من المحتمل ايضا ان يقتلوني .
- اذا ينبغي ان نقادر ايطاليا فوراً . لن ابقى هنا .
- هذا ما افكر به .

- ينبغي ان نرحل يا حبيبي . يجب ان لا نركن للظروف . اخبرني كيف استطعت الوصول من مستري الى ميلان ؟ !
- بالقطار . كنت في بدلتني العسكرية آتند .

- ألم يكن يهددك أي خطر ذلك التحين ؟
 - قليلا .. اني احمل تصريحا قديما بحرية التنقل ، وقيل خروجي من
 مسترعي عالجت تاريخه المسجل .
 - يا عزيزي : انك معرض للاعتقال في اية لحظة هنا . وانا لا استطيع
 احتمال ذلك اذا ما وقع .. فكر ماذا سيحل بنا اذا قادوك الى السجن .
 - دعينا من التفكير بهذه القضية ، فانا مرهق الدماغ بها .
 - وماذا ستعمل اذا ما جاءوا لالقاء القبض عليك .
 - اطلق النار عليهم .
 - انرى كم انت سخيف ؟! لن ادعك تخرج من الفندق حتى تغادره
 نهائيا .
 - والى اين ستغادره ؟
 - ارجوك .. لا تشرع باعاطني .. تصرف تصرفا جديا .. وانا
 مستعدة لمرافقتك حينما تريد .
 - سويسرا تقع في الجهة المقابلة ، عبر البحيرة .
 هل نذهب اليها .
 - هذا احسن الحلول .. كما انها فرصة رائعة بالنسبة لنا .
 كانت الغيوم تتجمع خارجا في السماء ، وجو البحيرة يظلم شيئا
 فشيئا .
 - ارجو ان لا تضطر دائما ان تعيش كمجرمين .
 - ما هذا التفكير يا عزيزي ؟! لماذا تتكلم هكذا ؟! انت لم تعيش تلك
 الحياة طويلا ولن نحياتها بعد اليوم مطلقا .. وسوف نعلم بوقت جميل في
 القريب العاجل .
 - اني اشعر كالمجرم تماما .. لقد قررت من سلك الجيش .
 - ترو فيما تقول .. ان عملك لا يعتبر قرارا من الجيش ، لانه جيش
 ايطالي . فانفجرت ضاحكا مبهتها ، حتى استلقيت على ظهري ؛
 - انك فتاة رائعة لذيذة . دعينا نرجع الى النوم .. لا تشعرين
 كمجرمة .. اليس كذلك ؟
 قلم تجبني ، بل قامت الى سريري واضطجعت بجاني ، وبعد قسرة
 قصيرة ، اقتربت من اذني وسالتني هامة :
 - الان .. لا تشعر بانك مجرم .. اليس كذلك ؟
 - لا ، يزول عني ذلك الشعور وانا معك .

- انك طفل احمق .. ولكني سأعتني بك .. اليس جميلا يا حبيبي
ان لا يكون عندي ، في مثل هذا الوقت ، تمرض صباحي ، فلا اضطر
لمغادرتك !؟

- جميل جدا *

- انت لا تفدر كم عظيمة هي زوجتك ؟ ولكن لا بأس .. سأعرف كيف
اهيبك لك مكانا لا يستطيعون معه العثور عليك .. وعندها سنتعم بوقت
ممتع *

- اذا لنذهب اليه فورا *

- سيذهب يا عزيزي .. انا مستعدة للذهاب اينما شئت .. في اي
وقت تريده *

- دعينا من التفكير الان *

- حسنا *



قصدت كاترين فندق المحطة الصغير ، الذي تقيم فيه فيركوسين بينما
جلست انا في البار اقرأ الصحف . لم يكن الجيش قد اوقف تقيمه في
تكليمانو ، بل استمر متسحبا الى بيانا ، البلدة المحاطة بالمستنقعات ،
وبعض القلاع ، وكنت قد مررت بها ذات يوم في طريقي الى كوتينيا .
ودعشت كثيرا كيف يستطيع جيش بعده وعدته ان يتخفى في تلك
القباطي الموحلة ، وبينما انا ساهم في حيرتي ، وصل المسؤول عن البار ،
صديقي ، فاقترحت عليه الخروج بنزهة في البحيرة ، لصيد السمك ،
فوافق قائلا ان بإمكانه مرافقتي مدة ساعة فقط ، يعود بعدها الى عمله . ثم
لبس معطفه وسار بجانب قاصدين الشاطئ ، وهناك احضر زورقه الصغير ،
فخطونا اليه وبدأت انا بالتجديف ، بينما جلس هو في المقدمة مدليا الخيط
المفتول ، ذي الصنارة الثقيلة .

ابحرنا محاذين الضفة ، وعلى بعد مسافة قصيرة ، بدت لنا استرسا
باروع مظاهرها بلدة وادعة ساكنة . ثم بلغنا مكانا من الشاطئ نرجم فيه
القوارب ، وحوّلها رجال يصلحون الشباك فسألني الرجل :

- الا ترعب في احتساء كأس ؟

- طبعا .

ارسمت الزورق ، وفتزنا منه الى اليابسة نحو مقهى صغير يقوم
قرب الشاطئ ، جلسنا الى احدى طاولته الخشبية العارية طالبين كوبي
وسكي .

- هل تعبت من التجديف ؟

- لا .

- ساجد في العودة .

- احب ان اجدق انا ايضا .

- لعلك ان امسكت بالخيط يتقلب الحظ فترجع ولو بقليل .

- حسنا .

- الخبيرني ، كيف تسير امور القتال ؟

- سيئة ..

- لن اذهب .. لست مضطرا ان احارب .. فانا مسن جدا كالكونت كريفني .

- لربما اجبروك على الذهاب قريبا .

- السنة القادمة ، سيدعون مواليد العام الذي ولدت فيه ، ولكنني لن البسي .

- ماذا ستفعل ؟

- اغادر البلاد .. اتني عازم على عدم الاشتراك في الحرب .. يكفيني تلك المغامرة التي حاربت فيها عند ابيينا وانت لماذا اشتركت في الحرب ؟

- لا ادري .. كنت مجنوناً .

- هل ترغب في كأس اخر .

- ولم لا ؟

وفي طريق عودتنا ، ادليت الخيط في الماء البارد ، وقام هو بالتجديف .

- ينبغي ان اسرع .. حتى اكون امام البار في الحادية عشرة تماما .
- حسنا .

وكنا قريبين من الضفة تماما ، قبالة الفندق ، وعندما لامسنا الرصيف ، ربط زورقه الى احدى الحلقات الحديدية ، وقفز الى اليابسة .
اتبعه انا :

- سابعيه هنا . وفي اي وقت تحس برغبتك في الصيد ، فقال تعال لاطعظيك مفتاحه .
- اشكرك جدا .

واتجهت الى غرفتي ، لم تكن كاترين قد رجعت بعد ، فاستلقيت على السرير ، بملاسي ، محاولا الابتعاد عن التفكير ، الا ان كاترين سرعان ما وصلت واراحتني من عناء النضال ضد فكري القلق .

- فيرغوسن تنتظر في القاعة السفلى ، لقد دعوتها للغداء .. انسي اعرف انك لن تتضايق ..

- طبعاً لم يكن عندك ما تعمله فكل ما تملكه هو انا .. وقد ذهبت بعيداً ..
- صحيح .

- اني آسفة يا عزيزي ، فانا اعرف كم هي قاسية مؤلمة ، ان يفقد الانسان كل شيء ، فجأة وفي وقت واحد .
- لقد تعودت ايامي ان تكون حافلة بالكثير .. والان عندما لا تكونين يرفقتني .. احس بفراغ كبير .. اني لا املك شيئا في هذه الدنيا .
- ولكنني سأبقى معك . غبت فقط مدة ساعتين ، الم يكن هناك ما يمكن ان تعمله .. ابدا ؟
- ذهبت للتصيد برفقة رجل البار .
- الم تسر وتروح عن نفسك ؟
- بلى .
- اسمح ، لا تفكر بي عندما لا اكون برفقتك .
- هذا ما كنت افعله وانا في الجبهة .. ولكن كان هناك الكثير مما يشغلني .
- والان .. هل ستحاول ان تكون مهذباً ، وتتصرف بلطف مع فيركوسن .
- اني دائما لطيف معها .. الا اذا شتمتني .
- حسنا ، كن رقيقا بها . فكر الى اية درجة يبلغ حرمانها بينما نعلم نحن بكل شيء .
- لا اعتقد انها ترغب فيما نحن فيه .
- انت لا تفهم طبيعة العذارى ..
- اذا سناكون لطيفا معها .. لطيفا جدا .
- لن نمكث طويلا على كل حال .. ساعمل للتخلص منها .
- ومن ثم نعود الى هنا .. اليس كذلك ؟
- طبعاً ، والا ماذا كنت نطلنا ستفعل ؟

•••

كانت الانسة فيركوسن ، تجلس في قاعة الفندق الفسيحة ، وقد بدا عليها التأثير الشديد بروعة المكان وفخامته ، جلسنا الى جانبها ، وبينما نحن منهمكين في الاكل ، دخل القاعة الكونت كريفي ، وبرفته ابنة اخيه ، التي تشبه الى حد كبير ، جدتي . وبعد ان فرغنا من تناول الطعام نهضنا عن المائدة ، وقد فاض وجه فيركوسن فرحاً وسروراً ، اما كاترين فلم يكن من الممكن ازدياد فرحها .. اذ كانت سعيدة الى درجة بالغة . ودعنا فيركوسن التي قالت انها ترغب في اغفائة قصيرة بعد الغداء ، وصعدنا الى غرفتنا ..

وفي ساعة متأخرة من ذلك المساء ، سمعت قرعا على الباب : - من الطارق ؟
- الكونت كريفي يرغب في معرفة ما اذا كنت تقبل دعوته للعب
البلياردو .

نظرت الى ساعتني ، وكانت تحت الوسادة ، وقبل ان اتملها بادرتني
كاترين :

- هل من الضروري ذهابك ؟

كانت الساعة تشير الى الرابعة والنصف .

- اخبر الكونت اني ساكون في غرفة البلياردو في تمام الساعة
الخامسة .

وعند الساعة الخامسة الا ربعا قبلت كاترين نامضا من السرير ،
واتجهت الى غرفة الحمام لارتداء ملابسني .

- هل ستغيب طويلا ؟

فالتفت نحوها ، كان منظرها مستلقية فوق السرير ، جذابا غائبا ،
ورأتني انظر اليها :

- هل تناولتي المشط .

فناولتها اياه ، ورحت اتملها وهي تمشط شعرها ، تهدله كله جانبا ،
ثم تضمه بيدها خصلة كبيرة واحدة ، وترفعه عن عنقها ، والضوء الخافت
من اعلى السرير ، ينعكس عليه فيحيله للاء رائعا ، ويضفي على عنقها
وكتفها العاريين منظرا ساحرا . لم اتمالك نفسي ورجعت ادراجي صوبها ،
وامسكت بيدها ، والمشط ما يزال بين اصابعها ، ثم القيت برأسها على
الوسادة وانحنيت فوقها اقبل عنقها ووجنتيها وعينيها واعلى كتفها شاعرا
اني اكاد اغمى من شدة هيامي بها :

- لا اريد ان اذهب ! لن اذهب .

- ولغا لا اريد ان تذهب .

- اذا لن اذهب .

- بلى ، اذهب ولكن لا تغيب طويلا .

هيا ، لترجع عاجلا .

في غرفة البلياردو ، وجدت الكونت كريفي ينتظرني ، كان يبدو مرحا
رغم سنه التي تتجاوز المائة عام ، وبعد عبارات اللقاء القصيرة ، بدأنا اللعب ،
واستطاع منذ الجولة الاولى ان يغلبني ، ثم جلسنا نتجاذب اطراف الحديث ،
وسألني عما اقرأ ، فاخبرته اني اقتصر على قراءة الصحف وان النشاج

- الادبي والفكري قد تضاهل ايام الحرب .
- اذا انت لم تقرأ المؤلف الجديد : « السيد بربلتغ يرى خلالها » .
 - لا ، لم ير !
 - ماذا ؟
 - لم ير خلالها ، فقد قرأت الكتاب وانا في المستشفى .
 - قرأته ؟
 - نعم ، ولكن لم اخرج منه بشيء .
 - كنت اظنه يعكس روح الطبقة الانجليزية الوسطى !
 - انا لا افهم شيئاً عن الروح .
 - ايها المسكين .. كلانا لا يفهم بمسائل الروح اذا .. هل انت واقعي منظر ؟
 - في الليل .
 - فايتسم ابتسامة عريضة :
 - كنت اتوقع ان اصبح تقنيا كلنا تقدمت في السن ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك ، الامر الذي يؤلني كثيراً .
 - الظاهر انك ترغب في الحياة بعد الموت ؟ سألته . وفي الحال احسست ان لفظة الموت لم تكن مناسبة ، على انه كما تبينت ، لم يلتفت لوقوعها واجابني :
 - ان ذلك يتوقف على نوع الحياة ، فالحياة ممتعة جدا .. جميلة .. مؤسفة .. اني ارجو ان احياءا حتى النهاية ، ثم ابتسم مردفاً ، وان كنت قد اشرفت على نهايتها .. واذا قدر لك ان تعيش العمر الذي عشته ، فسنترى امورا غريبة كثيرة .
 - ولكن مظهرك لا يدل على تقدمك في السن .
 - جسدي هو المسن ، حتى اني اخاف ان ينكسر اصبعي كما ينكسر اصبع الطيشور .. على ان روحي ليست اكبر سناً من المعتاد .. كما انها ليست اكثر حكمة وتعقلا .
 - ومع ذلك فانت حكيم .
 - لا ، تلك هي الاكذوبة الكبرى : « حكمة الشيوخ » .. ان الشيوخ لا يزدادون حكمة بل خوفاً وحذراً .
 - ولربما كانت تلك هي الحكمة .
 - الا انها حكمة غير مستحبة ابداً .

- ما هو اعز شيء لديك ؟
- انسان احبه .
- وانا كذلك .
- هل الحياة عزيزة عليك ؟
- نعم .
- وكذلك انا فهي كل ما املكه .
- كيف تنظر الى هذه الحرب ؟
- انها حماقة مطلقة .
- من سيكون الراجح في اعتقادك ؟
- ايطاليا .
- لماذا ؟
- لانها امة فتية .
- وهل الامم الفتية تريح الحرب دائما ؟
- نعم ، تظل كذلك فترة شبابها .
- وماذا يحدث بعدئذ ؟
- تصبح امة مسنة .
- قلت انك لست حكيما . . وما انت .
- هذه ليست حكمة يا بني ، بل تهكما واستهزاء .
- ولكنها تظهر حكمة بالنسبة لي .
- حسنا ، ارجو لك ان تعيش طويلا ، وعندها أمل ان تصبح رجلا صالحا .
- طالما رجوت ان اصبح تقيا . . ولكني لم استطع الا في الليل . .
- حيث تتأبني هاتيك الاحاسيس .
- انت واقع في حب اذا . . مهما يكن لا تنس ان الحب مظهر من مظاهر الدين الاصلية .
- هل تعتقد ذلك ؟
- طبعاً .
- ونهض ماذا يده لوداعي ، فحيثه وانصرف .

استيقظت تلك الليلة على هدير العاصفة الماطرة ، وكانت حبات المطر الكبيرة تصدم مصاريع النوافذ الخشبية ، ثم سمعت قرعاً على الباب ، فنهضت بخفة ، ومشيت على اطراف اناملي ، لثلا تستيقظ كاترين ، وعندما فتحت الباب ، رأيت رجل الباز ، يقف على عتبة ، وقبعته المبللة بيده ومعطفه السميك يقطر ماء .

- هل باستطاعتي التحدث اليك قليلا ايها الليوثنان ؟

- ما القضية ؟

- انها مسألة هامة جدا .

فتطلعت حولي ، كانت الغرفة مظلمة ، وصوت المطر ما يزال قويا .

- ادخل ، وقدمته الى الداخل ، موصدا بابها علينا ، ثم اشعلت الضوء .

- ماذا في الامر يا اميليو ؟ هل انت في مأزق ؟

- لا ، انت !

- انا .

- سوف يلقون القبض عليك .

- ماذا ؟

- جئت لآخبرك ، فقد سمعتهم يتحدثون عنك في المقهى ، قريبا

من الفندق .

- فهمت .

ظل واقفا مكانه لا يبدي حراكا ، وقبعته المبللة في يده :

- لماذا سيلقون القبض علي ؟

- لامر يتعلق بالحرب .

- هل عرفت ماهيته ؟

- لا ، ولكن عرفت انهم كانوا قد رأوك هنا سابقا ، بملابس ضابط

حربي ، بينما انت الان ترتدي الثياب المدنية . بعد هذا التقهقر السريع ،

راجوا يلقون القبض على كل انسان .

فكرت عنيهة تم سألته :

- ومتى سينفذون خطتهم ؟
- صباحا ، لا اعرف بالضبط .
- ما الذي ترثيه ا
- فوضع قبعته على المنضلة .
- اذا لم يكن هناك ما تخشى عليه ، فالسجن ليس امرا عابثا ، رغم انه
- من المشين في كل زمان ، ان يساق المرء للسجن ، ولا سيما في هذه الايام .
- لا اريد ان اسجن .
- اذا عليك بالذهاب الى سويسرا .
- كيف ؟
- في زورقي .
- والعاصفة ؟
- انتهت . الرحلة قاسية ، ولكنك ستكون في مأمن تام .
- ومتى ينبغي الاقلاع ؟
- حالا ، فلربما جاؤوك باكرا جدا .
- وحقائبا ؟
- احزمها جيدا . . . ولتستعد زوجتك .
- واين ستنتظرننا ؟
- هنا . . . قانا لا اريد ان يلمحني احد في القاعة .
- فاغلق باب الحمام عليه ، واسرعت الى سرير كاترين اريد ايقاظها ،
- ولكنها كانت قد سبقتني الى ذلك :
- ماذا في الامر يا عزيزي ؟
- لا شيء ، هل ترغبين في ارتداء ملابسك الان والسفر الى سويسرا
- على زورقي ؟ - هل ترغب انت ؟
- لا ، افضل البقاء في السرير .
- ولكن ما القضية ؟
- اخبرني رجل البار انهم سيلقون القبض علي صباحا .
- امجنون هو ؟
- لا .
- اذا ارجوك ان تسرع وترتدي ملابسك كي تغادر قورا .
- ونهضت من السرير ، والنعاس ملء عينيهما .
- هل رجل البار ذاك الذي في الحمام ؟
- نعم .

- اذن لن اغسل .. ارجوك . انظر هنالك في الجهة المقابلة وساليس في دقيقة واحدة .

على اني لم اغير من وقتي ، وتاملت ظهرها الابيض ، وهي تنزع قميص نومها ، تم وجهت نظري بعيدا .. لانها تريد ذلك ، كان بطنها قد بدأ في التضخم من جراء الحمل ، ورغم هذا فقد ازداد جسدها جمالا واتساقا .
لم اكن املك الكثير لحزمه داخل الحقيبة ولذلك ، فما ان وضعت اغراضي القليلة ، حتى قلت لكاترين :

- عندي متسع كاف اذا كنت تريدان وضع شيء في حقيبتي .
- كل اغراضي مهيئة في حقيبتي .. ولكن ماذا يفعل رجل البار داخل الحمام ؟

- صه .. ينتظرنا لحمل الحقائب الى الزورق .

- انه انسان طيب جدا .

- وهو من اصدقائي القدامى .. لقد ارسلت له علب سجائر ذات يوم . قلت ذلك ونظرت عبر النافذة المفتوحة ، فلم اتمكن من رؤية البحيرة ، وكل ما رأيته هو الظلمة الدامسة والسكون الشامل ، الا ان الريح قد خفت عصفها فعلا ، وانقطع نزول الامطار .

- ها ، انني مستعدة يا عزيزي . - حسنا .

ودخلت غرفة الحمام : - اليك بالحقيقتين يا اميليو .

فتناولهما مسرعا بينما تبعته كاترين الى الباب : - انت انسان طيب جدا ، سنشكر لك معروفك هذا ؟

- ليس ما يدعو للشكر يا سيده .. انني سعيدة بستوح الفرصة لخدمتكما .. خصوصا انه لن يلحق بي اي ضرر . اسمع والتفت نحوي :

- سأحمل هاتين الى الزورق مباشرة ، من باب الخدم الخلفي ، بينما تخرجان انتما من الباب الرئيسي .. تماما كما لو انكما ذاهبان في نزعة قصيرة .

- والواقع انها ليلة فاتنة ، تصلح للنزعة ، قالت كاترين .

- لا ، انها سيئة للغاية . - ولكني سعيدة لاني املك مظلة .

نزلنا الى القاعة ، على السلام ذي السجاد العريض ، وعند اسفله كان يجلس الحاجب ، الذي نظر الينا دهشا .

- لن تبعدا يا سيدي .. اليس كذلك ؟

- لا . فقط تريد مشاهدة العاصفة وهي تسكن .

- اليس معكما مظلة يا سيدي ؟

- لا . هذا المعطف يمنع تسرب الماء ، فرمقه مرتابا - سأجلب اليك

مظلة ، انتظرني هنيهة يا سيدي ، وبالفعل ، عاد بعد قليل يحمل واحدة كبيرة
وعندما ناولني اياها تقدمته ١٠ لير فأخذها شاكرا وفتح لنا الباب ، فخرجنا
كلانا تحت المظلة الكبيرة بينما صاح هو :

- لا تمكثوا طويلا في العاصفة .

- فقط بضع دقائق .. نعود بعدها سريعا .

عبرنا الطريق الرئيسية الى ضفة البحيرة ، باتجاه المرساة ، حيث
يربط الرجل زورقه ، وعندما لمحا قفز من بين الاشجار :

- حقيبتنا كما في الزورق .

- كم تريد من اجله ؟

- كم تحمل من النقود ؟

- ليس كثيرا .

- اذا ارسل لي ثمنه فيما بعد .. - كم ؟

- اذا استطعنا الوصول بسلامة ، ارسل لي خمسة الاف فرنك ذلك لن

يؤثر عليك اذا ما نجوت . - حسنا .

- اليكما ببعض السندويش هذه .. وناولني رزمة ، « انها كل ما
وجدته في البار » ، وحائين القارورتين ، من احسن انواع الخمر فأخذتهما من
تحت ابطه ووضعتهما داخل الحقيبة : هذه استطيع دفع ثمنها لك .

- لا بأس ، اعطني ٥٠ لير ، فدفعتها له واردف هو :

- احدهما وسكني من النوع الجيد .. لا تخشى منها على زوجتك ..

فمن المستحسن ان تجرع قليلا منها وانما في عرض الماء .

ساعدت كاترين على الانتقال من الياينة الى الزورق ، فجلست على

مؤخرته ، لافة عباؤها حول جسدها باحكام .

- تعرف كيف تتجه ؟ - شمالا .

- وتعرف المسافة ؟

- بعد بلدة لوينو .

- ستتجاوز لوينو وكانرو وكانوييو وترازانو ، ولن تبذلغ ارض

سويسرا حتى تصل الى برساكو بعد ان تتجاوز رأس تامارا .

- كم الساعة الان ؟ سألت كاترين .

- انها الحادية عشرة فقط . اجبتها .

- اذا استمرتما في التجديف ، فستصلان برساكو حوالي الساعة

صباحا .

- ابعيدة هي لهذه الدرجة ؟
- خمسة وثلاثون كيلومترا .
- وكيف نستطيع توجيه الزورق خلال هذا المطر ؟ لا بد لنا من
بوصلة .

- سر باتجاه اسولا بيلا ثم انعطف مع الريح التي توصلك الى بالانزا ،
وعندما تظهر الاضواء ، اتجه صوب الشاطئ ، وجذف محاذيا له .
- واذا ما تغير اتجاه الريح ؟
- لا ، هذه الريح تستمر في وجهتها هذه ، ثلاثة ايام اخر . انا واثق
من ذلك .

- دعني انقذك الان جزءا من ثمن الزورق .
- لا افضل انتظار الفرصة ، حتى اذا ما نجحت الرحلة ، تدفع لي
قدر ما تستطيع .
- حسنا .

- فانا لا اعتقد انك ستفرق .

- رانس .

- رافق الريح شمالا .

- كما تقول .

- وخطوت الى الزورق .

- هل تركت اجرة الفندق ؟

- نعم ، داخل مقلف في غرفتي .

- حسنا . . . حظا سعيدا ايها الليوتنان .

- اشكرك كثيرا .

- لن تشكرني اذا ما غرقت .

- ماذا يقول ؟ هتفت كاترين .

- يقول حظا سعيدا .

- حظا سعيدا . . . فشكرا كثيرا ، صاحبت تودعه .

- هل انت على استعداد للتحرك ؟

- نعم .

فانحيت منزلا طرفي المجداف في الماء ، ثم ادرت وجهي ولوحت للرجل
بيدي ، مودعا اضواء الفندق الكبير ، والغرفة التطبيقية الواسعة ، ثم جلست
وتابعت التجديف حتى بعدت الاضواء على ناظري ، وكنا نجري بسرعة
واتزان تساعدنا الريح المؤاتية ، الى اقصى حدود المساعدة .

كانت ليلة مظلمة جدا والمطر غزيرا متواصلا ، وانا اجذف باستمرار
انحني ثم انهض ثم ادفع ، وكنت اعرف ان راحتي سينسلخ جلدهما ، واحاول
تأخير ذلك اطول مدة ممكنة .

كان الزورق خفيفا يندفع مسرعا ، فاملت ان تصل بانزا عاجلا ، ولكننا
لم نرها ابدا ، اذ تجاوزناها ، والظلمة الحالكة تلفها جميعها ، وعندما شاهدنا
الاضواء البعيدة ، عرفنا انها انترا وانقضت فترة طويلة اخرى ، لم نلمسح
خلالها ضوءا ولا اثرا . وكنا نسير بعينين عن الشاطئ ، الى ان فاجأتنا قمة
صخرية داخلية في الماء ، ترتطم امواج البحيرة بسفحها كسيغة هزيلة ، وغيرت
اتجاه القارب حتى غابت عن نظارتنا .

- نحن الان في وسط البحيرة ، قلت لكاترين .
- ان ترى بالانزا ؟ - لقد اخطانا موقعها .
- استطيع ان آخذ المجذاف عنك لفترة قصيرة .
- لا ، اني مرتاح الان .
- يا لغير كوسن البائسة ، ستاتي الى الفندق في الصباح فلا تجدنا .
- لست متألما كثيرا من اجلها ، كلهفتي لدخول المياه السويسرية قبل
ضوء النهار حتى لا يرانا ضباط الجمارك .
- هل نحتاج لوقت طويل حتى نبلغها ؟
- انها حوالي الثلاثين كيلومترا من هنا .
- طللت اجذف طوال الليل ، حتى لم اعد احتمل آلام يدي ووضعيت
المجذاف جانبا ، بعد ان كدنا ترتطم بصخور الشاطئ ، بحيث استطعنا
تمييز صفوف الاشجار والطرقات .
- ثم اقتربنا من نقطة على الشاطئ تكثر فيها الاضواء ، فاعتقدت انها لا
بد ان تكون بلدة لوينو ، واذا كان الامر كذلك فهذا يعني اننا قطعنا مسافة
لا بأس بها ، وهكذا وضعت المجذافين واستلقيت على ظهري ، انشد الراحة ،
لقد كنت مرهقا جدا .

- سأعيد نشر المظلة الكبيرة ، فبإمكاننا الإبحار بواسطتها .
- هل تستطيعين توجيه دفة القارب ؟
- اعتقد ذلك .

- ضعي المجداف تحت إبطك ، ووجهي الدفة ، ودعيني أحمل المظلة عنك ثم بيدي لها كيف تستعمل المجداف ، أخذا المظلة من يدها ، وما إن نشرتها حتى اندفع الزورق الى الامام بسرعة ظاهرة .

دفعنا اماما ، الا ان المظلة لم تقو بعد دقائق ، على مقاومة الريح فانجحت قضبانها المعدنية الى اعلى ، وانقلب وضع قماشها السميكة فحاولت جاهدا ان اصحح وضعها ولكن دون جدوى . نهضت الى كائرين لأخذ المجداف عنها ، فوجدتها تكاد تغشى من الضحك ، ثم أمسكت بيدي وهي مستمرة في ضحكها .

- ما القضية ؟

سألتهما وأنا اتناول المجداف منها :

- منظر كجميل جدا وانت تغالب المظلة المقلوبة .
- اظن ان ذلك صحيحا .
- لا تتضايق يا عزيزي فالحقيقة انها صورة مضحكة واغرقت في الضحك .

- ارتح قليلا ، واجرع بعض الخمر . . . وقد قطعنا مسافة طيبة .

- ينبغي الابتعاد بالزورق عن مرمى الأمواج ^(١٣)

- حسنا ، سأجلب لك قارورة الويسكي .

استأنقت العمل الشاق ، بينما عالجت هي فتح الحقيبة ، مخرجة قارورة الويسكي ، وتناولتني ايها فجرعت جرعة طويلة . وسرى المشروب في امعائي ، فشعرت بالدفء يغمر كل جسدي واحسست بعدها بالتنشاط يعاودني مجددا .

- هل تشعرين بالبرد يا كات ؟

- لا ، وانما اخشى التيبس نتيجة الجلوس وعدم الحركة .

- الا تريدان اكل شيء ؟

- الان ، لا ، سأوقر الطعام حتى نجوع .

- حسنا .

ظهر القمر ثانيا بعد ان حجبته الغيوم ، وخشيت ان يتمكن حرس الشواطئ من اكتشاف قاربنا ، فابتعدت عن الضفة ، بادلا جهدا اكبر في

التجذيف ، مدركا انا قطعنا شوطا كبيرا .

– كيف انت يا كاث ؟

– على ما يرام . لا تقلق من اجلي . اين نحن الان ؟

– اظن انه ليس امامنا اكثر من ثمانية اميال .

– انها مسافة طويلة . . . سنتعب من التجذيف يا حبيبي المسكين . الم

تختر قواك ؟ – لا ، كل ما هنالك ان يلدي تؤلماني .

واستمررنا في الاتجاه شمالا ، وبدت لنا على الضفة اليمنى فتحة في

الجبل ، اعتقدت ان كاثوبيو تقع فيها ، فانعطفت الى الداخل ، واثقا ان حرس

الشواطئ ، يكثرون في جوار الحدود على اني احسست بتعب شديد ، ورغم

ان المسافة المتبقية لدخول المنطقة السويسرية لم تكن تتعدى الاميال الخمسة ،

الا اني كنت احس انها ما زالت طويلة ، ومرهقة جدا .

– دعني اجذف قليلا .

– ليس من الضروري ان تنعبي نفسك .

– بلى . ان ذلك يجنني الاستمرار في هذه الجلسة المضنية .

– لا اعتقد ان التجذيف يمكن ان يفيدك .

– خطأ . التجذيف المعتدل مفيد جدا للحامل .

– حسنا ، جذفي ولكن باعتدال ريثما ارتاح قليلا .

وشرعت تجذف ، الا ان طول المجذاف كان يضايقها ولكنها استمرت

دون التفوه بكلمة .

فتحت الحقيبة واكلت قطعتين من السندويش ثم جرعت قليلا من

الويسكي :

– اخبريني عندما تشعرين بالتعب .

واردفت بعد قليل :

– انتبهي لئلا يلمك المجذاف في بطنك .

– « اذا ما تأثير ذلك » ، قالت وهي تجذف ؛ فالحياة يمكن ان تصبح

اقل تعقيدا بالنسبة الي .

شربت جرعة من الويسكي : – كيف تحسسين !

– على ما يرام . – اخبريني عند التعب . – حسنا .

وشربت جرعة ثالثة ، ثم نهضت وتناولت المجذاف من يدها .

– لماذا ؟ اني اجذف كما ينبغي .

– ينبغي ان ترجعي الى مكانك . فلقد اخذت قسطي من الراحة .

هدأت الريح قبيل الفجر ، وادركت انه من الضروري بذل كل قواي ،
لئلا تفصحنا الود الصبيح ، ودون ان اعرف النقطة التي بلغناها ، عبات كل
جهدي واندفعت اجذف كالمحموم وما ان انبلج النهار حتى الفينا القارب
يسير قريبا جدا من الشاطئ ، بحيث انا نكاد نلمس ضفافه الصخرية .

• ما هذا ؟ همست كاترين .

• اوقفت التجديف واصبحت السمع .

كان هناك صوت زورق بخاري يمخر البحيرة ، فادليت القارب من
صخور الشاطئ ، وانقطعت عن كل حركة ، بينما هدير الزورق البخاري
يقترب منا ، ثم لمحاء يسير باتجاه معاكس ويتجاوزنا ، وعلى مقدمته ،
جلس اربعة من حرس الحدود ، ظهر النعاس على عيونهم جميعا ، فانتظرت
حتى غاب عن الاشارة وعدت الى وسط الماء ، عارفا بقرب نهاية الرحلة .

وبقينا ثلاثة ارباع الساعة ، لا نسمع صوتا ، ولا نرى شيئا معينيا ،
الى ان ارتفع ثمانية هدير زورق بخاري اخر ، فلذنا بالصمت مجددا حتى
تلاشى الصوت .

• اعتقد اننا دخلنا المنطقة السويسرية يا كاترين .

• اذا كنا حقا دخلناها ، فلنرس للتناول فطورا دسما . . فهم يملكون

خبزا من النوع الجيد الابيض وزبدة وفواكه .

كان ضوء النهار قد عم ، وظهرت لنا مباني قرية رابضة على الشاطئ ،
أكد طابعها الخارجي اعتقادي في كوننا ضمن الحدود السويسرية وبينما
نحن نتأمل طريق القرية الرئيسي ، وصفي الاشجار القائمين على جانبيها ،
لمحت جنديا يخرج من احد المقاهي ، ويضع على رأسه قبعة كتلك التي يضعها
الجندي الألماني فأوعزت الى كاترين ، ان تلوح له بيدها ولما فعلت ، يادلها
التحية مبتسما .

• لا بد اننا تخطينا الحدود بمسافة كبيرة .

• ينبغي ان نتأكد يا عزيزي ، فنحن لا نريد ان يقدموا على ارجاعنا

عند الحدود . - الحدود خلفنا بمسافة كبيرة ، واطن ان هذه ، مركز رجال

الجمارك . . اني واثق تماما . . انها برساكو .

• اذن يوجد ايطاليون فيها ، فرجال الجمارك يجتمعون عادة مع زملائهم

من البلد المجاور ، في نقطة واحدة ، ليس في زمن الحرب . . ولا اظنهم

يسمحون للايطاليين باجتياز حدودهم .

كانت بلدة جميلة المظهر ، وعلى مدى خليجها الصغير ، انتشرت قوارب

- الصيد امامها ، الشباك مفروشة فوق الصخور .
 - هل نرسو لنتناول فطورنا ؟ لا بأس .
 ودنوت من رصيف الخليج ، ممسكا باحدى الحلقات الحديدية ، رابطا
 الزورق اليها ، ثم قفزت الى اليابسة ، وساعدت كاترين على الانتقال اليها .
 - علمي يا كات ، فان احساسنا هائلا يحتاجني .
 - وماذا عن الحقيبتين ؟ - دعيهما في الزورق . - اي بلاد جذابة ؟
 - حقا . . . اليست رائعة ؟ - لنتناول فطورنا اولاً .
 - اليست بلادا رائعة ؟ اني اتحسس حتى الارض التي لم تطامعا قدماي .
 - ان قدمي متيبستان . . . ولا استطيع التحسس بهما يا عزيزي ، عل
 انت واثق اننا في سويسرا . . . بعيدا عن تلك البلاد الدامية .
 - نعم . واثق . ثم اكن واثقا بشيء في حياتي كما انا الان .
 - انظر الى البيوت . . . كم هي جميلة . . . وهذا ليس ميدانا رائعا ؟
 انظر . ان على جانبه مكان يمكننا تناول الفطور داخله .
 - انظري . اليس المنظر جميلا . ليس عندهم مطر كهذا في ايطاليا . .
 مطر منعش . . . يبعث السرور في النفس .
 - هل نحن يا عزيزي في سويسرا . . .
 ولكن هل تحققت تماما ؟
 دخلنا المقهى الصغير ، في جانب الميدان ، وجلسنا على طاولة خشبية
 نظيفة ، وامارات النافر والانفعال بادية على وجهينا . . . واقتربت منا امرأة
 جميلة تلبس « صدارة » بيضاء نظيفة ، وسألتنا عما نشتهي ؟
 - قشدة وقهوة وفاكهة مجففة ، طلبت كاترين .
 - آسفة ، ليس عندنا قشدة في زمن الحرب .
 - خبز اذا .
 - بامكاني اعداد بعض الفطائر الشبيهة لكما .
 - حسنا ، واريد ايضا مقليا كذلك .
 - وكم بيضة تبقي ايها السيد ؟
 - ثلاث .
 - خذ اربعا يا عزيزي . - اربعا .
 وانصرفت المرأة ، فقبلت كاترين ، قابضا على يدها باحكام ثم رحلتا
 ننظر في عيني بعضنا ، وفيما حولنا .
 - عزيزي . . . عزيزي . . . اليس كل شيء رائعا ؟

- كل شيء فآخر عظيم .
- لم اتأثر لعدم وجود قشدة ، رغم اني حملت بها طول الليل . ومع ذلك لم اتأثر ابدا .
- اظن انهم سيلقون القبض علينا سريعا .
- لا بأس يا عزيزي ، لنتناول الفطور اولا . . . ولن يهمك بعدئذ ان يلقي القبض عليك ، بالاضافة الى انهم لا يستطيعون عمل شيء ضدنا . . . فنحن امريكي وانجليزية ، في موقف لا غبار عليه .
- تحملين جوازا اليس كذلك ؟
- طبعاً ، ولكن دعنا من هذه القضية الان . لئلا يعكر صفو هنائنا .
- ومرت في هذه الاثناء ، على ارض المقهى ، قطعة ذات شعر ناعم اسود ، واتجهت نحوي ، فانحنيت ، ورحت اداعب شعرها باناملتي ، وكان منظرني ذاك اطرب كاترين كثيرا ، فتطرت في عيني ، ووجهها يطفح بشرا وجمالا .
- ها قد حضرت القهوة .

• • •

- كان الحياة لها علي تارات ، فلم نكد ننتهي من الفطور ونخرج في جولة بين شوارع القرية النظيفة ، متجهين ناحية الخليج لجلب حقيبتنا ، حتى استقبلنا عند الزورق ، جندي يحمل بندقية ، كان بانتظارنا :
- هل هو زورقكما ؟ - نعم . - من اين قادمان .
- عبر البحيرة . - اذا اني مضطر لاطلب اليكما مرافقتي .
- والحقايب ؟ بإمكانك حملها .
- وحملت الحقيبتين ، وسارت كاترين بجائبي والجندي ، يتبعنا ، مشيرا بين الفينة والاخرى ، الى الطريق التي ينبغي ان تسلكها ، حتى بلغنا بناية الجمارك العتيقة ، وهناك استجوبنا بالفتنات ، كان تعيف البنية .
- جنسيتهما ؟ - امريكي وانجليزية . - جوازا سفركما ؟
- فقدمناهما له ، وبعد ان دقق النظر بهما طويلا ، سال :
- لماذا جئتما الى سويسرا عن هذه الطريق ، في زورق ؟
- انني رياضي ، والتجديف هوايتي المفضلة استقل كل فرصة لممارستها .
- ولكن لماذا قصدتما هذه الناحية بالذات ؟ - لرياضة الشتاء .
- ليس هذا هو المكان المقصود .

— وماذا كنتم تفعلان في إيطاليا ؟

— كنت ادرس الفن المعماري ، بينما ابنة عمي كانت تتابع دروسا في الرسم .

— ولماذا غادرتما اذا ؟ — عندما تكون الحرب مستمرة ، لا يسع المرء ان يتابع دراسته كما يجب . — ارجو كما الانتظار قليلا .

وسار بالجوازيين خارجا ، بينما التفتت كاترين نحوي :

— انت رائع جدا يا عزيزي ، استمر في هذه الخطوة ، جئنا من اجل

رياضة الشتاء . — هل تعرفين شيئا عن فن الرسم ؟

— اعرف الفنان روبنس . — سمعين ، وضخم الجثة .

— وتبتيان . — ذو الشعر الكثيف ، وماذا عن مانتكننا ؟

— لا تصعب استئلتك ، ها اعرف انه معقد جدا . — نعم ، معقد جدا .

— هل ترى ، اني اقوم بدوري كزوجة ناجحة ، سوف اكون قادرة على

التحدث في موضوع الفن مع اسدقائك . — صه ، ها هو .

ودخل اللفتنانت النحيف يحمل الجوازيين بيده :

— سأكتبه لك على بطاقة خاصة قدمها لي في الحال .

— سيرافقكما الجندي الي لوكارنو حاملا جوازيكما . . اني آسف لهذه

الاجراءات ، ولكنها ظروف الحرب .

— على كل حال ستمنحان تأشيرة الدخول وتصريحا بالاقامة .

ثم تناول الجوازيين لجندي ، كان يقف في الغرفة المجاورة ، بينما

حملت انا الحقيبتين ، وخرجنا نبحث عن غرفة .

ثم خاطب الجندي ببعض الكلمات الالمانية ، فوضع هذا بندقيته وراء

ظهره ، وتناول الحقيبتين من يدي .

— بلاد رائعة ، قلت لكاترين ثم التفت الي اللفتنانت .

— اشكرك كثيرا .

— على الرحب والسعة .

جلس الجندي الي جانب السائق ، واتجهت العربة بنا الي لوكارنو ،

وهناك سارت الامور حسنا ، فقام اثنان من الضباط باستجوابنا ، وكانا

مهذبين جدا وقد يكون ذلك عائدا لكوننا نحمل الجوازيين ونقودا .

ولكن الامر جرى كما تسير الامور عادة في قاعات المحاكم حيث لا

يحتاج المرء الي حجج المنطق وسلاح الحق ، وهكذا حصلنا على سمة الدخول

واذن بالاقامة كي يتاح لنا صرف نقودنا ، رغم انهم اشترطوا علينا اخبار

- دوائر الامن في كل مكان نتوجه اليه .
- وهل نستطيع الذهاب حيثما نريد ؟
- نعم .
- اين تريدان الذهاب يا كاترين ؟
- الى مونتكس .
- مكان رائع جدا .
- وهنا ، في لوكارنو مجال واسع جذاب في كل ايام السنة .
- نريد المكان الذي نستطيع به ممارسة الرياضة الشتوية .
- لن نستطيعا هذا الامر في مونتكس .
- ارجوك ، قاطعه الضابط : انا قادم من مونتكس وهناك رياضة شتوية .
- انا لم انكرها .
- والفتت الضابط الاخر الي وسألني :
- هل التزلج غايتك من رياضة الشتاء ؟ هنا في لوكارنو ستجدان المناخ صحيا ، والضواحي جميلة فتانة ، ستحبانها للغاية .
- لقد عبرت السيدة عن رغبتها في الذهاب الى مونتكس .
- وما هو التزلج ؟ سألتها :
- هل رأيت ؟ عتف الضابط الثاني : انه لم يسمع بهذا النوع من الرياضة !
- كان سؤالنا تأييدا لموقفه ، فبدأ السرور عليه ، بينما اجاب الاول على سؤالنا :
- التزلج هو الانزلاق الجماعي .
- ارجو السماح لي .
- كرر الثاني : اريد ايضاح الحقيقة مرة ثانية : ان التزلج غير الانزلاق الجماعي ، فلقد ابتدع هذا في كندا ، حيث استعملوا له الألواح الخشبية للمرة الاولى ، اما التزلج فهو الانزلاق الفردي .
- وهل نستطيع ممارسة الانزلاق الجماعي ؟
- وجهت سؤالنا بصفة عامة .
- ولم لا ؟ نستطيع ذلك ، اجابني الاول . فادوات الانزلاق الكندية الفاخرة كثيرة في مونتكس : وبامكانك شراؤها من محلات اخس اخوان .

فأشاح الضابط الثاني بوجهه . .

- الانزلاق الجماعي . . انه يحتاج الى حلبة خاصة . . فكيف
ستمارسانه في شوارع مونتكس . . اين تقيمان الان ؟
- لست ادري . . قادمان رأسا من برساكو في تلك العربة انظر انها
نتظرنا هنالك . . - لن نخطفنا في الذهاب الى مونتكس .
ردد الضابط الاول : فالمناخ ممتع جميل . وامكنة الرياضة قريبة جدا
من غرف السكن . . - اذا كنتما ترغبان في رياضة حقيقية .
صاح الثاني : فليس عليكما الا الذهاب الى النجادين او سورين . ولا
يسمعي الا ان احتج علي نصيحتك لهما بالتوجه الى مونتكس . . من اجل
رياضة شتوية . . مونتكس !؟ فابرت عينا الاول غضبا . واجاب : في افانيس ،
شمال مونتكس ، يمكن ممارسة جميع انواع الرياضة الشتوية .
وهنا رأيت من واجبي ان اضع حدا لمناظرتكما .
- ايها السيدان . اشكركما كثيرا على نصائحكما . واطن انه لا بد
لنا من الانصراف . فكما تريان ، ان ابنة عمي تعب جدا . واعدكما اننا
سوف نحاول الذهاب الى مونتكس فيما بعد .
- اهنتك ، اجاب الضابط الاول ، ماذا يده لوداعي .
- اعتقد انك ستندم اذا غادرت لوكارنو اردف الثاني : . . على كل
حال ، يجب ان تخبر دائرة الامن عند وصولك الى مونتكس .
- لن يضايقك احد مطلقا . . في مونتكس . . كن مطمئنا . . وجميع
الاهلين سيرحبون بكما وينزلونكما اهلا .
- اكرر شكري لكما . . واقدر كل ما ابديتماه من نصح ثمين لنا .
- وداعا ، قالت كاترين . وداعا .
وشيعانا منحنيين حتى الباب الا ان ضابط لوكارنو اختصر تحيته وعاد
ادراجه الى الداخل ، بينما اسرعنا نحن الى العربة والضابط الثاني يلوح
لنا بيده .
- يا الهي ، صاحت كاترين ، الم يكن بوسعنا الانصراف من قبل .
امرت السائق ان يتجه بنا الى احد الفنادق الذي سمعت اسمه من
ضابط لوكارنو ، وعندما بلغناه حملت الحقيبتين ، وامسكت بيد كاترين
التي ، همست في اذني : نسيت الجندي .
وكان هذا ما زال جالسا بجوار السائق ، فتقدمته ١٠ لير فدنسها بجيبه
وانصرف شاكرا . . - كيف خطر لك ان تسمي مونتكس ؟

- هل كنت حقا تريد ان الذهاب اليها . - انه الاسم الاول الذي
تذكرته .

- . . ليس مكانا زدينا على كل حال ، ونستطيع ايجاد مأوى مناسب
في احدى ضواحيه . - هل انت نعسة ؟ - اني نائمة منذ الان .
- لا بأس . فبوسعنا النوم مل جفوننا يا كاترين المسكينة بعد هذه
الرحلة المضنية . .

- ومع ذلك فهي ممتعة خصوصا عندما انقلبت المظلة في يدك . .
- ها ها ها . هل انت واثقة انك في سويسرا ؟
- لا . . . اخشى ان استيقظ لاجد المسألة حلما في حلم . - والآن
كذلك . .

- لا ! انها حقيقة . . اليس حقيقة يا عزيزي . هل انا في فندق المحطة
بميلان . . اودعك !؟ - ارجو ان لا يكون الامر كذلك .
- لماذا تتكلم هكذا ؟ انك تخيفني . . هل هذا ما نحن به ؟ تكلم .
- اشعر بصداق عفيف . لست اعرف السبب . - دعني اتحسس
يديك .

فمددتها نحوها . كانتا محترقتين يشع وهج الحمى منهما .
- ابتهما اليديان المسكينتان .
- لا تلمسيهما . . اني لا اعرف اين نحن . الى اين ذاهبان . . .
- ستنام جيدا . ولكن تشعر بشيء غدا صباحا .
- اني اشعر بدوار . ربما اكون جائعا .
- انت فقط مرهق جدا . وسوف ترتاح بعد النوم .
- بدأت اشعر بتحسن . نحن حقيقة في سويسرا . اليس كذلك ؟
- نعم ، حقيقة . وانغمضت عيني .



سقط الثلج متأخرا ذاك الخريف ، وكنا نعيش في بيت خشبي صغير ،
تكتنفه اشجار الصنوبر ، على سفح الجبل الذي تقع عليه بلدة مونتكس .
وكانت صاحبة البيت ، السيدة كوتنكن ، تدخل غرفتنا كل صباح ، لتفلق
النوافذ ، وتشعل النار في المدفئة الكبيرة ، وفيما نحن نستمتع الى هدوير النار
تلتهم اغصان الصنوبر الجافة ، وحرارة الهواء ، من حولنا ترتفع شيئا
فشيئا ، كانت السيدة كوتنكن تعد وجبة فطورنا وتجلبها الينا لتتناولها
ونحن جالسين في سريرنا ، نشأمل عبر زجاج النافذة الكبيرة ، سطح
البحيرة الازرق اللألاء ، وسفوح الجبال الشاهقة المقابلة .

امسيات هادئة جميلة ، تنبض بالحياة والعافية وايام حلوة رائعة ،
قضيناها على شواطئ البحيرة في سويسرا ، نأكل وننام ونمشي بين
طرقات الجبل ، ونجلس على الشرفة نسرح الطرف فيما حولنا من جمال ،
وكم من مرة حملتنا قدامنا دون قصد منا ، الى مونتكس ، والى غيرها من
القرى الصغيرة المنتشرة هنا وهناك ، على سفح الجبل او في بطن
الوادي .

ولم نكن نعرف احدا في تلك الانحاء ، فكنا تقطع الوقت بالتجوال على
شطان الماء ، نمتع النظر بروعة الحمام السايجة والاشجار الباسقة ، والمباني
الايقية الفخمة ، والناس من حولنا يحيوننا باسمين مسرورين .
وذات يوم ازادت كاترين ، وكنا في مونتكس ، ان تزير شعرعها ،
قرافتها الى صالون التجميل ، وقصصت مقهى صغيرا في نهاية الشارع
المحاذي للبحيرة ، اريد ان اروي غليلي من خمور مونيخ الذائعة الصيت .
وهناك ، لمحت ، فوق احدى المناضد ، كومة من الجرائد والمجلات
مكدسة فوق بعضها ، فتناولتها جميعا ، ورحت اقلب صفحاتها ، كانت
نفسى قد تاقمت الى اخبار الحرب ، في هذا المكان البعيد البعيد ، الذي شهده
اهله المأساة ، ولكن دون ان يدفخوا تمنها الباعظ من الدماء .
ظللت جالسا اقرأ الصحف ، مسندا ظهري الى الجدار . آملا مرور

كاترين من امام المقهى . الا انها ، رغم انقضاء فترة ليست بالقصيرة ، لم يظهر لها اثر . . . فتهدت من مكاني ، وخرجت الى الشارع ، قاصدا صالون التجميل ، وهناك الفيتا ما تزال مودعة رأسها بين يدي المرأة السمينة ، صاحبة الدكان ، التي انهكت في تصفيف الشعر الذهبي البراق ، فلم اتردد ودخلت ، جالسا على كرسي صغير في الزاوية ، ووجه كاترين يبدو لناظري منعكسا في كل المرايا ، وصوتها المنهدج يحدثني ، وعينا المرأة تبتسم الي ، واخيرا سرحت المرأة الشعر نهائيا وقامت كاترين الى المرأة الجانية تبدل من تصفيف خصلاتها ، وتغير من وضع الدبابيس ، ثم التفتت نحوي :

— اني آسفة لانني اضعت عليك كل هذا الوقت فابتسمت السيدة صاحبة المحل في وجهي :

— ولكنك كنت متروزا . اليس كذلك ؟ — نعم .
 وخرجنا الى الشارع ، نواجه لذعات الريح الباردة :

— يا عزيزي ، اني احبك كثيرا . . . السننا ننعم بوقت جميل دعنا ندخل احد المقاهي ونحتسي جعة بدلا من الشاي ، فهي مقيدة جدا لكاترين الصغيرة .

— كاترين الصغيرة . . . يا لها من شيطانة .
 — لا . . . انها طيبة جدا . . . لم تضايقني كثيرا . قال الطبيب ان الجعة تقيدها وتمنع تضخم جسدها ، الامر الذي يسهل عملية الولادة .
 — اذا حالت دون نمو جسدها وكان المولود صبيا ، فسيشب ويظل قزما .

— لكن لا بد لنا من الزواج اذا ما رزقنا طفلا . — لننزوج الان .
 — الان ، ليس عندنا متسع من الوقت . — متى سنتزوج اذا ؟
 — بعد ان الد ، حيث نقيم حفلة عرس رائعة ، تجعل كل من يحضرها يفتن بالروسين ويغبطهما حظهما .
 — لا بأس ، على ان لا تكوني مثالة لفسيا .
 — ولماذا ؟ اسمع يا عزيزي . . . مرة واحدة احسست اثناءها بالالم يحز في نفسي ، كان ذلك في ميلان . . . ليلة وداعك في فندق المحطة . ان تصورت شخصي كالعاهرة ، ولكن ذلك التصور لم يدم اكثر من سبع دقائق . . . لم احس بعدها بشي غير طبيعي والان . . . الا اقوم بواجبي كزوجة ناجحة ؟
 — بلى انك زوجة فائنة .

- اذا لماذا تتمسك بالامور الشكلية يا عزيزي ، ساتزوجك حالما آلد .
- كما تريد .

- هل تعتقد انه من المفيد ان اشرب قارورة جعة اخرى ؟ لان الطبيب
اخبرني ان اعلى الوركين متقاربين جدا ، ومن الافضل العمل على عدم انماء
جسم الطفل ، . . - وماذا قال ايضا ؟ سألته وانا احس بالضييق
- لا شيء . . فقط اعجب بضغط دمي قائلا اني املك درجة ممتازة من
الحرارة الدموية .

- الواقع انه انسان مهذب . - سندعوه الى حفلة الولادة .

- وهل سألته اذا كان من المفيد لك ان تتزوجي ؟

- لا ، اخبرته اني متزوجة منذ اربع سنين وكما تعرف . . ان القانون
الامريكي يعتبر الطفل شرعيا رغم ولادته قبل تسجيل عقد الزواج .
- اين اكتشفت هذا ؟ - في مجلة التقويم الاميركية .
- انك فتاة ماهرة !

- كم ساكون سعيدة عندما اكتسب الجنسية الاميركية ! ونسافر معا
الى امريكا ، لن نسافر يا عزيزي ؟ - فانا اريد رؤية شلالات نياغارا .

- انك فاتنة . - وشيء آخر اريد رؤيته . . ولكنني لا اذكره الان .

- ناطحات السحاب ؟ - لا - بناية وول ورت الضخمة . - لا .

- العنق العظيم ؟ - لا . . هلى اني اريد ان اراه هو ايضا .

- اي شيء اذا ؟ . . البوابة الذهبية ؟ . . نعم .

- هذا . . ما ارغب رؤيته . . اين تقع البوابة الذهبية ؟

- في سان فرانسيسكو . - لتذهب اليها اذا . فانا اريد رؤية سان

فرنسيسكو على كل حال . - حسنا سنذهب .

قبيل عيد الميلاد بأيام ثلاثة ، سقط الثلج في ضواحي مونتكس للمرة
الاولى ، فخرجنا انا وكاترين ، في جولة على الاقدام ، نتمتع برؤية البساط
الابيض الناصع ، قد كسنا كل شيء حتى اغصان الشجر ، على اننا لم نتمكن
من اطالة جولتنا ، اذ كانت احذبتنا تفرز في طبقة الثلج العليا ، كما ان ريحا
قارس البرودة ، عصف في وجهينا ، فعدنا ادراجنا الى الغرفة ، وجلسنا في
الفراش ، نستمتع الى هدير النار ، تزار في الموقد الكبير :

- اخبرني الحقيقة الا ترغب في الخروج ومشاركة الرجال الاخرين
رياضتهم الشتوية ؟ - لا ، وما الذي دفعك الى هذا السؤال ؟

- يخيل الي احيانا انك تحن الى الاجتماع بزملائك من الرجال

والتحدث اليهم .

- وهل تحتمين انت للخروج وللتحدث مع الآخرين ؟

- لا ، وانك كذلك .

- ولكن وضعك يختلف ، فأنا امرأة حامل لا أستطيع شيئا . . . واني

اعرف انك ستستمرني الان فتاة ثرثارة حمقاء . . . ومع ذلك فأنا احسن احيانا

انه من حقا ان تخرج وتجتمع بسواي لئلا يصيبك الملل .

- اسمعي ، هل تريديني ان اذهب بعيدا .

- اريد ان تبقى بجانبى .

- وعدا ما سافعله دوما .

- تعال الي يا عزيزي . فأنا اريد ان اتحسس وجنتيك السمراوتين .

واجزت راحتها فوق وجهي : لماذا لا تنمي لحيثك يا حبيبي ؟

- هل ترغيبين في ذلك ؟

- لربما تكون جميلة . اني افضل رؤيتك بلحية .

- سابدأ منذ الان بتنميتها . انها فكرة حسنة ، تمنحني عملا اتلهى به .

- اذا انت برم من فواخ ايامك ؟

- ابدا ، ان هذه الحياة التي اغيشها محببة الي نفسي كثيرا ، انها

ساحرة . اليس كذلك ؟

- بلى ، ولكني خشيت ان اكون عبثا عليك ، في ايام الحمل هذه .

- أه يا كات . كم تجهلين مقدار عيامي بك يا عزيزة ؟

- وانا بهذه الحالة ؟ - نعم ، هذه الحالة بالذات .

- ظننت انك تتعشق الحياة الحافلة ، الملاى بالحركة والمفاجات .

- مطلقا ، وانما يعود بي الفكر احيانا الي اشهر مضت . الي ايام

الجميلة والناس الذين عشيت واياهم . على اني احاول دائما ان لا اظيل

التفكير بهم .

- وياهم تفكر ؟ - برينالدي وبالكاهن ويكتير غيرهما .

- الا اني سرعان ما اتناساهم جميعا فأنا لا أستطيع التفكير بكل منا

يتعلق بالحرب . - وبماذا تفكر الان ؟

- لا افكر بشيء . - بلى ، اخبرني .

- برينالدي ، اذا كان حقا مصابا بالسقلس . - اهنا كل شيء ؟

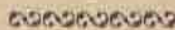
- نعم . - وهل كان مصابا حقا ؟ - لست ادري .

- اني مسرورة لكونك لست مصابا . . . هل اصابك يوما ما ممرض

كهذا ؟

- مرة واحدة بالقرحة .
- يكفني . لا اريد السماع عنها . . هل تأملت كثيرا يا عزيزي .
- كثيرا جدا .
- آه . ليتني اصيبت بها ايضا . لكنك شاركتك الملك .
- انها فكرة رائعة . انظري الى الثلج .
- افضل النظر اليك يا حبيبي . لماذا لا تدع شعرك يطول . حتى تغدو شبيها لي ؟ آه كم انا متممة بك . حتى لاود ان اكونك .
- انت انا . . ونحن كلانا شخص واحد .
- اعرف ذلك . فما من ليلة الا وكنا جنسدا واحدا .
- آه ما اروع الليل يا كات .
- انا لا اريدك ان تدعني وتذهب الى اي مكان . وانما سألتك تلك الاسئلة عرضا . على كل حال اذهب اذا كان يجلو . على ان لا تتأخر .
- فانا كالميتة عندما لا تكون بجانبني .
- لن ادعك بعد اليوم . فحياتي متعلقة بك .
- والان . هل تريدني ان استمر في تنمية لحياتي ام اقلع عن تلك الفكرة ؟

- استمر في تنميتها . فستغدو مثيرة .
- هل تريدني ان نلعب الشطرنج ؟
- افضل اللعب فوق السرير .
- دعينا نلعب الشطرنج .
- وبعدها فوق السرير .
- نعم .
- حسنا .



ما ان انتصف شهر كانون الثاني حتى استمرت ايام الشتاء باردة لاذعة والتلوج متساقطة مستمرة - وتحولت الارض الى بقاع من المناظر الجميلة الساحرة - فكنت اخرج برفقة كاترين ، تسير فوق الطرقات المكسوة للجا ، وذات يوم قادتنا خطانا الى غابة كثيفة من الصنوبر ، في اولها مقهى ريفي صغير يلجا اليه الصيادون بعد نيازههم الشاق ، يروحون عن انفسهم ، على اتي وكاترين ، لا نستطيع احتمال ضجيج المقهى ، ولا تحمل رائحة الدخان القوية ، التي ينفثها الصيادون ، فقمنا لتونا قاصدين العودة ، وفي الطريق ، بادرتني كاترين :

- ارايت كيف انك لم تطق الجلوس مع الناس ؟
- انت لا ترغب في رؤية احد • اليس كذلك ؟ - نعم •
- كيف نحن من جهة الدراهم ؟ - نملك الكثير •
- ألن يحاول اهلك استدعاءك بعد ان علموا بوجودك في سويسرا ؟
- ربما •• سوف اكتب لهم قريبا •• الم تكتب حتى الان ؟
- لا ، فقط من اجل ارسال النقود •
- احمد الله اني لست من اهلك • الا تكفر بهم ؟
- طبعا ، ولكني على خلاف معهم •
- اعتقد اني ساحبهم • ولربما كثيرا ••
- دعينا من الحديث عنهم • لثلا يعذبني العنين •• وثابعا المشي •
- لحيثك قطعة قتيمة قاتلة • اني احبها كثيرا • وكما تعرف يا عزيزي •
- سوف اقص شعري بعد الولادة ، وعندها ابدو جذابة رشيقة القوام • واظهر في عينيك فتاة جديدة يعجبك سحرها قتهيم بي مجددا •
- يا للبحيم • اني هائم بك الان هياما لا مزيد عليه •• ماذا تريد ان تفعل بي ؟ ادمريني ؟!
- نعم اريد ان ادمرك • - لا بأس ، هذا ما اتوق اليه •

• • •

وعكدا مضت الأيام ، حياة هادئة عشناها في ناحية مونتيس ، نجاوز
التلوج والغابات ونعامل جمال الطبيعة الساحرة الي ان انقضى شهر شباط ،
وارتأت كاترين الرحيل الي لوزان لتكون قريبين من مستشفى التوليد .
فانتقلنا اليها ونزلنا في احد فنادقها الكبيرة ، وكان ذلك في بداية آذار من عام
١٩٦٨ ، في اليوم الذي بدأ فيه الالمح هجومهم الكبير على الجبهة الفرنسية .
اقمنا في الفندق اسابيع ثلاثة التحقت خلالها بناد رياضي للهواة ، كنت
امارس فيه لعبتي الجمباز والملاكمة ، في الوقت الذي كانت كاترين تقضيه
بالتنقل بين محال الثياب ، تمتاع ملابس الوليد ، وهي في اشد ما تكون من
المرح والسرور .

وفي ايام الصحو المشرقة ، كنا نخرج للتجوال بين الحدائق الغناء ،
المحيطة بلوزان مستطين عربة خيل ، فنمضي بضع ساعات في احضان الطبيعة
الحاملة ، ونتناول غداءنا في العراء ، ثم نعود مع غروب الشمس الي غرفتنا في
الفندق .

وفي اواخر ليلة من ليالي اذار ، استيقظت على صرير السرير الذي تنام
عليه كاترين ، يفرقع بين القينة والاخرى ، فرفعت رأسي وسألتها :
- الحسين بشي ، يا كات العزيزة ؟ - لما متقطعا .
- اذا ما استنصر ، فينبغي الذهاب الي المستشفى .
قلتها وأرحت رأسي فوق الوسادة ، والظاعر اني كنت شديد الحاجة
الي النوم ، فما ان استقر رأسي على الوسادة حتى اغمضت عيني لاستيقظ
بعد وقت قصير ، وكاترين تخاطبني :

- ازجوك ان نتصل بالطبيب يا عزيزي . فالارجح انه المخاض .
وكان المخاض حقا ، اذ ان الطبيب امرنا بالاسراع الي المستشفى ، وفي
الحال اتصلت بمرأب السيارات العمومية ، الا ان احدا لم يجيني ، رغم اني
اعدت الكرة اربع مرات ، وفي المرة الخامسة اجابني صوت ، ادركت من
نبراته ان صاحبه قد افاق من سباته العميق قبيل لحظات ، ووعدني الرجل
ان يرسل لي سيارة خلال عشر دقائق .
وبينا كاترين منهمة في اعداد محفظتها خرجت لاقرع جرس المصعد ،
ولما لم يجيني احد فزلت في الطابق السفلي ، وارتفعت بالمصعد وحدي ، ثم
حملت اليه حقيبة كاترين ، وساعدتها على الدخول وهبطنا معا .
فتح لنا الحارس الليلي ، باب الفندق الخارجي ، فوقفنا على رصيف
الشارح ، لننظر قدوم السيارة .

كانت السماء صافية . والسكون يعم كل شيء وكاترين يبدو عليها
القلق والاضطراب . فنظرت اليها مبتسما . وامسكت بيدها .
- اني مسرور لذلك . فبعد قليل ينتهي كل شيء .
- انك تتاة شجاعة طيبة . - انا لست خائفة . ارجو ان تصل السيارة .
ولكنها لم تصل . وانتظرا فترة اخرى . واخيرا تابطت ذراع كاترين .
والحقيبة في يدي . ومشيتا معا باتجاه المستشفى وقبيل نهاية الشارع .
لمحت ضوء سيارة قادمة من بعيد . فاشرت الى سائقها . الذي توقف واخذ
الحقيبة من يدي . بينما ساعدت كاترين على الجلوس بجانبها داخلها .
- الى المستشفى الاولي .
وهناك قابلتنا امرأة . من وراء متصدتها . راحت تسأل كاترين اسئلة
شئتي : - اسمك ؟ - كاترين هنري .
- عمرك ؟ - فاجابتها . - عنوانك فاجابتها .
- اقاربك ؟ مكان ولادتك ؟ واخيرا . - ديانتك ؟ - لا دين لي .
فوضعت خطا اقبيا في المكان المخصص للجواب - اتبعاني .
وارتفع بنا المصعد الى الطابق الرابع .
- هنا . . انزعي ثيابك واضطجعي في السرير مرتدية هذا .
واشارت الى توب ابيض فضفاض . خرجت الى الرواق وجلست على
احد المقاعد الخشبية المنتشرة فيه . وبعد قليل خرجت الممرضة دون ان
تغلق باب الغرفة : - احسن بالالم يزداد حدة يا عزيزي .
وكانت الممرضة قد عادت . فسألتها : - اين الطبيب ؟
- انه نائم في الطابق السفلي وساقطله عند الحاجة .
. . وامسكت بمعصم كاترين . وفي يدها الاخرى ساعة صغيرة . راحت
تنظر اليها بين الفينة والاخرى ؟
- ينبغي القيام ببعض الاجراءات . هل تفضل بالخروج ؟
عدت الى المقعد الخشبي بالذات . انظر الى الارض . واصلي من اجل
كاترين .
ولم تلمس دقائق معدودات . حتى اطلت المرأة من الباب متلمثة يسارا
ويميننا وعمدنا واتني . اشارت بيدها : - بإمكانك الدخول .
دخلت متجها الى سرير كاترين مباشرة : - مرحبا يا عزيزي .
- كيف تحسبن بالالم الان . - احسن به متابعا .
وقطبت وجهها ضارة على اسنانها . ثم ابتسمت . - واحدة كبيرة . .

الا تريدين عمل الشيء ذاته ايها المريضة ؟

- اذا كان ذلك يقيدك .

- ارجوك يا عزيزي . . اخرج قليلا . . اذهب وكل شيئا . . فلربما
استمر هذا الحال وقتنا طويلا . كما تقول المريضة .

- الولادة تنتشر في اغلب الاحيان . اجابت الاخيرة .

- اكرر رجائي لك بالخروج يا عزيزي . اذهب وتناول ما يقيم اودك . .

فانا اشعر بتحسّن . - سأنتظر قليلا .

وانتظرت . كان الالم يغمرها دفعة ثم يتلاشى . فتقطب وجهها وتصر
على اسنانها . وكلما برح بها المخاض تتظاهر بسهولة تحمله . الا ان حدة
الدفغ اضمحلت اخيرا . وبان اليأس على وجه كاترين وشحبت وجنتاها .
ثم نظرت الي وابسّمت كأنها تريد التخفيف عني .

- يمكنك الخروج يا عزيزي . . ان وجودك يجعلني مرهفة الحس

كثيرا . . لا تجزع . . سأكون زوجة صالحة وانجب هذا الطفل دون عذاب

. . ارجوك ان لا تقلق من اجلي . . اذهب وتناول شيئا تأكله . وبعدها ترجع

الي . .

- كما تريد يا كات . وداعا .

- وداعا ولا تنس ان تتناول نصيبي من الفطور أيضا .

كان ضوء الفجر الزاحف يطرد امامه جيوش الظلام . ومشيت في الطريق
الغالي من المارة . اقصد المقهى الصغير الذي في نهايته . وهناك احتسيت
فنجانا من القهوة . واكلت بعض قطع الخبز . قدمها لي خادم عجوز :

- ماذا تعمل في هذا الوقت الباكر من النهار ؟

- زوجتي في المستشفى تعاني الام المخاض . - كذا . حظ سعيداذا .

لم استطع صبورا . تقديته الشمن وخرجت . اسرع طرفي في الشارع
النساكن وفيما حولي من الاشياء . كانت صناديق القمامة خارج ابواب
النازل . تنتظر جامعيها . ورايت كلبا يشترئب بعنقه امام احدها . فاقتربت
منه . واجريت راحتي فوق ظهره .

- ماذا تريد ؟ مدنيا فم الصنادوق تحت عينيه .

- لا يوجد شيء ايها الكلب . وتابعت طريقي . الي المستشفى . وعندما

قرعت باب غرفة كاترين . لم اسمع جوابا .

ففتحتة ودخلت . فلم اجد احدا في الداخل . اللهم الا حقيبة كاترين .
موضوعة على الكرسي الخشبي . اغلقت الباب وخرجت الي الرواق . وفي

نهايته التقيت بأحدى المرضعات : - ابن مدام هنري ؟

- لا ادري ، سيده نقلت الى غرفة التوليد قبل دقائق .

- اين غرفة التوليد هذه ؟ - سائريك ايها .

كان باب الغرفة مفتوحا ، واستطعت ان ارى كاترين ، ممددة على السرير ، وفوقها الغطاء الابيض ، وقد وقفت المريضة الى جانبها بينما وقف في الجانب المقابل ، رجل عرفت من حيثته انه الطبيب ، على مقربة منه جهاز اسطوانتي الشكل ، وفي يده كامرة متصلة بانبوب من المطاط .

- ساعطيك مريولا كي يمكنك الدخول ، همست المريضة في اذني .

- شكرا .

ارتديت الثوب على عجل وقرعت الباب ودخلت ، وما ان لمحتني كاترين حتى ارتفع منها صوت متهدج ضعيف : - مرحبا يا عزيزي . . لم اقطع شوطا كبيرا بعد . . - انت السيد هنري ؟ سألني الطبيب .

- نعم . . كيف كل شيء ؟

- كل شيء يسير بمجرأه الطبيعي ، وقد احضرناها الى هذه الغرفة ، كي يمكن تنشيقها الغاز المخفف للام والمساعد على التنفس .

- ها . . الغاز اعطني الغاز . .

صاحت كاترين بصوت مجهد يكاد يخنقه الضعف .

فوضع الطبيب الكامرة فوق وجهها ، وحرك صماما في اسفل الجهاز ، ورأيت كاترين تنفّس عميقا وسريعا ثم تدفع الكامرة بعيدا ، فيعيد الطبيب الصمام الى موضعه . - ليست كبيرة . .

قالت بصوت خافت غريب . . ثم سمعتها تثن اثينا عميقا ، محاولة اخماد صوتها ، متطلعة الي والبسة الكبيرة في عينيها .

- لقد كانت دفعة كبيرة كبيرة . . الا يؤولك المنظر يا عزيزي . . اذهب وتناول قطورا ثانيا . - لا يا كات . . ساقبى معك .

انتهى النهار . وكنا قد اثينا الى المستشفى في الثالثة صباحا ، وما هي كاترين ما تزال في غرفة التوليد ، لم يسعها الدفع بعد ، وتلاشت قواها ، واستبد اليأس في نظراتها ، وبدت فوق المحفة منهوكة خائرة ، رغم محاولتها الاحتفاظ بهدونها ومرحها :

- لم اعد اصبح لشيء يا عزيزي . . اني آسفة جدا . . ليس باستطاعتي البذل اكثر . . ظننت اني سأخلص بسهولة . . ها . . ها . . الغاز . . اعطني الغاز ، ومدت يدها الى الكامرة ، ووضعها فوق وجهها ،

بيدا حرك الطيب الصمام وزاح يراقب حركات . وانقضت المحاولة دون جدوى .

- الا تريد تناول غذائك ايها الطيب ؟ خاطبته متسائلا .
- سأكل طعاما خفيفا .

- ينبغي لك ان تتناول غذائك ايها الطيب .
صاحت كاترين : اني اسمفة لتأخري حتى الان . . . ولكن سوف ابدل جهدا اكبر . . . الا يستطيع زوجي ان يمدني بالغاز ، نيابة عنك ؟
فالتفت نحوي :

- اذا كنت تريد . . . اذ الصمام حتى رقم ٢ . - فهمت .

- ها . . . الان . . . اعطني الغاز . . . وامسكت بالكاماة . فادرت الصمام حتى الرقم الثاني ، ثم اعدته لموضعه الاول ، بعد ان ابعثت الكاماة عن وجهها :

- هل انت الذي امدني بالغاز يا عزيزي ؟

. . . وربتت على معصمي : انت انسان طيب عظيم .

وانقضت ساعة يكاملها والطيب لم يرجع بعد ، وكاترين تسير من صبي الى اسوأ ، وقد كسا وجهها شحوب غريب ، وظهر الانهالك في كل قسماته :

- اتظن ساعيش لارى هذا الطفل !

- طبعا يا كات العزيزة . . . سوف تتممين برويته يا حبيبتي . . .

- اني ابدل كل جهدي . . . ولكنها تأتي وتلاشي دون جدوى . . . ها ، هذه واحدة . . . الغاز . . . الغاز .

وفي تمام الساعة الثالثة مساء ، غادرت غرفة التوليد ، فاصدا المقهى الصغير لتناول غدائي ، الا اني لم استطع الجلوس ، فاشتريت قطعة سندويش واعدت الى المستشفى ، ولما فرستة حواطر متناقضة تردح في نفسي . وما ان وطئت عتبة غرفة التوليد حتى هتف الطيب مخاطبا كاترين :

- ها ، لقد عاد زوجك .

- اه يا عزيزي ، لقد الرجعتي الطيب الى حالة الوعي بعد ان اصابتني

تربة حادة ، انه طيب ماهر مندهش ، ها الغاز اعطني الغاز .

وقبضت على الكاماة ، متنفسة تنفسا عميقا منقطعا . محدثة صوتا

غريبا . جيل الطيب يسرع في اعادة الصمام الى موضعه .

- كبيرة جدا ، قالت بصوت لم اسمع مثيله متها قبلا : سوف لن اموت يا عزيزي . - لقد اجتزت مرحلة الخطر . **السنث سهيلاً** ❏
 - لا تعرضي نفسك للحمل مرة ثانية .
 - بلى . اريد ان احمل ثانية . وسوف لا اموت . ها . هذه واحدة .
 العاز . اعطني الغاز . فاعدها الطبيب به . ثم التقت الي :
 - ارجوك مغادرة الغرفة ريثما اجري فحصا عاما . خرجت حائرا ابن اذهب ثم قصدت غرفة كاترين الاولي ، حيث ستقام بعد الولادة ، وخرجت الصحيفة من جيبي ، ونشرتها اريد القراءة ، ولكني لم البت بعد ان انرت المصباح الكهربائي . ان طويت الجريدة واعدتها الي جيبي ، مطننا الضوء ، واضعا رأسي بين ذراعي . قلم يكن بوسعي فهم ايسر الاشياء .
 ان الولادة الاولي تنعثر غالبا . هكذا قالت المرضة ، وهذا ما يقوله الكثيرون ، انها فقط تعاني ازمة عنيفة عارضة ، وهذا بعد ان يظل ابنها على النور ، ستهدأ ، وتذكر هذه الساعات دون ان تبالي بما عانت وتحملت ، بل ستقول انها لم تتالم ابدا ولم تعاني مطلقا . وان كل ما يدمر اعصابنا الان ، لم يكن الا وهما ، وخيالا عارضا . نعم ، هكذا ستقول . ولكن ماذا لو قضت ؟ لا ، لا يمكن ان تموت ، لن يحدث ذلك ، اني واثق ان ذلك لن يحدث . لا ، لا تكن واعما ، انها فقط ازمة عنيفة عابرة : الولادة الاولي ، وسينتهي كل شيء ، ولكن آه ماذا لو قضت ؟ لا ، لن تقضي ، وكيف يمكن ان تقضي ؟ اي سبب سيجعلها تقضي ؟ كل ما في الامر ان طفلا سيولد ، سيظل على الحياة ، سيخلق الفرحة والسرور ، انه لمررة ليال حافلة ممتعة عشناها في ميلان . وهو بعدك الان ، ويضفي على نفسك الكتابة والخوف ، ولكنه سيأتي ، وسيعيش ويحيا ، وستطلع اليه ، وتحرس عليه وتحبه وتهيم به ، ولكن ماذا ، لو توفيت ؟

وفتح باب الغرفة ، والتصب الطبيب امامي ساهما مطرقا .
 - ماذا تعني ؟ - تماما كما اخبرتك .

واوضح لي نتيجة الفحص العام . - وبماذا تنصح ؟

- يوجد طريقتان ، اما استعمال آلة السحب ، التي يمكن ان تحدث تمزيقا ، بالاضافة الي انها خطيرة وقد تؤذي الطفل ، او اجراء عملية شق البطن .

- وما خطر شق البطن ؟ ماذا لو قضت اثناعما ؟

- انها اقل خطرا من استعمال الالة .

- هل ستجربها بنفسك ؟
- نعم احتاج فقط لمدة ساعة كي اقوم بالاستعدادات اللازمة .
- وعمل تحبذ انت هذا الحل ؟
- طبعاً ، لو كانت زوجتي لما فعلت غير ذلك .
- وما هي النتائج اللاحقة ؟ - لا شيء ، اثر الجرح فقط .
- واذا ما انتظرنا فترة اخرى ؟
- ينبغي القيام بعمل سريع ، فالسيدة هنري تفقد قواها شيئاً فشيئاً ،
- وكلما اسرعنا في العملية كلما كان ذلك اضمن نجاحاً .
- اذن باشر فوراً .
- سناصدر تعليماتي حالا .

على محفة طويلة عريضة ، في غرفة الجراحة تمددت كاترين شاحبة اللون ، خائفة القوى ، وما ان لمحتني ، حتى مدت يدها نحوي ، فاقتربت منها منحنيًا فوق جسدها . - هل وافقته على اجرائها ؟ - نعم .

- أليس ذلك أفضل بكثير ، فبعد ساعتين ينتهي كل شيء ويولد كاترين الصغير آه أكاد أن أهلك يا عزيزي ، أكاد أن اتمزق اربا اربا ، ها ، الغاز - اعطني الغاز ، انه لا يصلني . - تنفسي عميقاً .

- لا يصلني ، لا يصلني ، آه ، لا .

- حضري أنبوباً آخر أيتها المرضعة .

- انه أنبوب جديد أحضرته قبل دقائق .

- « آه يا عزيزي ، انني حمقاء ، ولكنه لا يصلني » وشرعت تبكي .

- آه . كم تمنيت أن ألد هذا الطفل دون ازعاج ، ولكني أكاد أموت ، آه . الغاز ، الغاز ، انه لا يصلني ، انه لا يصلني يا عزيزي ، ليتني أموت ، ليت هذا الألم ينقطع . ها ، هي آه ، آه ، آه .

وغصت وانقطع شهيقها داخل الكمامة ثم علا صوتها الخافت : الغاز ، الغاز .

- آه . لا تؤاخذني يا عزيزي ، أرجوك أن لا تبكي ، تبكي ، أكاد انفجر ، أنت يا حبيبي المسكين ، اني أحبك كثيراً وسأعود زوجة طيبة لك ، آه . سأحاول ان ابدأ منذ الان ، الا يستطيعون معالجتني بطريقة ما ، آه لو يستطيعون تخفيف هذا الألم ، قليلاً ، قليلاً . - اعطني الانبوب من فضلك .

وانترعت الجهاز من يد المرضعة ، وحركت الصمام حتى الرقم الرابع .

- هذا عظيم يا حبيبي .. آه ، انك رحيم بي دائما .. انك تعطف علي .
- فصمتت مقبضة عينيها ثم رأيتها تتهدد طويلا .
- وانت كوني شجاعة ، فانا لا استطيع عمل هذا مرة ثانية ، لئلا يؤذيكَ الغاز .
- ساكون شجاعة اكثر يا عزيزي .. آه أكاد أنفجر ، لقد قتلتني الالم !
- كل الامهات تعاني الالم ذاته .
- ولكنه شديد جدا ، مرعب .. - بعد ساعة سينتهي كل شيء .
- نعم ، اؤكد لك انك لن تصابي بأذى ابدا .
- لاني لا اريد ان اموت وادعك وحيدا . آه ، ولكنني .. احسن ان كل شيء قد انتهى .. اشعر بقرب للنهاية .
- ما هذا يا كات العزيزة ، كل انسان يشعر كذلك .
- اني احيانا اشعر كأنني اموت ، ولكن ، ماذا لو مت ؟
- لن ادعك تموتين .
- ها ، الغاز اعطني الغاز . لا ! لن اموت ، لن ادع نفسي تموت .
- كات ، لن تموتي . - وسوف تبقيين معي .
- سابقي معك الى الابد .
- انك انسان نبيل يا عزيزي ، ها ، الغاز ، اكثر ، اكثر .
- فحركت الصمام الى الرقم الثالث ، ثم الى الرابع ، وتمنيت ان لو يصل الطبيب لاني كنت اخشى مقية هذه المغامرة الخطرة .
- علي ان الطبيب لم يحضر الا بعد ساعة كاملة . وكانت كاتريس في حالة من الاعياء مخيفة .
- جلست في الغرفة المجاورة انتظر نتيجة المحاولة الاخيرة . وكان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على المدينة ، وبعد فترة ليست بالقصيرة ، فتح باب الغرفة وخرج منها طبيب آخر ، يحمل رزمة في يده ، وتتبعه ممرضة .
- اسرع الاثنان عبر الرواق الي غرفة جانبية فلحقت بهما ، وهناك وجدتهما يقومان ببعض الاجراءات للوليد ، وعندما لمحني الطبيب حمل النقل بيده ليريثني اياه ، ثم حملة من اسفل قدميه وراح يلمطه على اعلى فخذه ، فسألته :
- اليس هو كما ينبغي ؟ - مذهش .. يزن اكثر من خمسة كيلو غرامات .

للم اشعر بالعطف نحوه كانه غريبا عني ، وكان المرضة لاحظت ذلك في فابتدرتني :

- الست فخورا به ؟ فلم اجيبها .
وعادت هي الي عملها مع الطبيب غسله ثم لفاء ، واستطعت ان اتامل
يده الصغيرة ، وعينيه الواسعتين ووجهه الاسمر ، ولكني لم اسمعه يصيح ،
ولم اره يتحرك .

وبعد لحظات شرح الطبيب في لظمه على وجهه ويديه ، ثم وضعه
جانبا ، ورفع رأسه والكتابة ملء محياه ، بينما سألتني المرضة :

- ما بك . الست فخورا بابنك ؟
- الا ترى ما اجملته ؟ - لقد كاد يودي بحياة امه .
- ولكنها ليست غلطة هذا البريء الحلو . ألم تكن تحلم بالصبي ا
- لا .

حدثت الله كثيرا لانني لم ارحم بقصون لحم كاترين . لقد كان ذلك
امرا لا استطيع احتمال رؤيته حتى من بعيد ، من القرصة المجاورة ، التي
وقفت فيها ، اتامل الطبيب يخطط الجرح العميق الطويل الذي احده في
جسم كاترين العزيزة . وقبل ان يتم اغلاق الجرح . تراجمت نحو الرواق
مضطربا . ورحت ازرع المر جيئة وذهابا . احاول طرد المنظر الدامي من
مخيلتي ، ولم ينقذني من سعيير العاطفة الدامعة في قلبي . الا رؤية الطبيب
يفادر القرعة ، فهرعت اليه متنفسا الصعداء . - كيف هي ؟ - على ما
يرام . هل راقبت العملية .

- زائتاك تخطط الجرح .

اجبته وكان يبدو عليه الاعياء الشديد .

- اني مدين لك بالكثير ايها الطبيب .

- عفوا ، ارجو لكما كل خير .

ولم تكذب ثم حدثتنا حتى رأيتهم يخرجون المحفة ويتجهون بها سريعا
الي المصعد . ثم الي غرفة كاترين الاولى ، فهرولت خلفهم ووقفت الي جانب
السريير الذي اضجعوها فوقه .

- مرحبا يا عزيزي ، قالتها بصوت ضعيف متهدج .

- مرحبا يا حبيبتي .

- أي جنس هذا الشقي الصغير ؟

- صه . لا تنكلمي . اجابتها المرضة . بينما قلت انا :

- صبي ، انه طويل عريض اسمر اللون .

- هل هو في حالة حسنة ؟
- نعم ، رائع جدا ؟
- ورأيت الممرضة تنظر الي وامارات الدعشة تعم كل وجهها .
- هل انت مسرور يا عزيزي ؟
- نعم ، ولكن لا تتكلمي الآن .
- آه يا عزيزي . لقد كنت نبيلاً جداً طيلة حياتك معي ، اني احس بالالام يشتد ، آه ، انه يكاد يصرعني . من يشبه الصبي ؟
- لا تتكلمي . . . صاحبت الممرضة ثم التفتت نحوي .
- أرجوك أن تغادر الغرفة الآن .
- كما تريدن .
- اذهب وكن بعض الشيء يا عزيزي .
- وانحنيت فقبلتها ، كأن وجهها اصفر كوجه الموتى ، وصوتها خافتاً متهدجا يكاد يخنقه الأعياء ، وفيما الا أهم بالخروج ، همست في اذن الممرضة .

- هل يمكن ان اسألك أمراً ؟
- فتبعنتني الى الخارج ، الى عتبة الباب .
- أخذت شيء للصبي ؟
- ألم تعلم ؟ - لا .
- لم يكن حياً كما ظنوه للوهلة الاولى .
- أكان ميتاً ؟!
- لم يتمكنوا من جعله يتنفس .
- اذن فهو . . . ميت . . . ميت .
- نعم ، انها فاجسة محرقة . . . لقد كان صبياً فاحراً ، قوي البنية .
- الافضل ان تعودى الى جانب السيدة هنري .

جلست على الكرسي ، انظر من خلال النافذة المقابلة ، لم يكن امامي الا الظلام . . . الظلام الدامس ، واشباح الليل الرهيبة تتراقص في عيني وفي رأسي : لقد مات الوليد . هكذا كانت النتيجة ، لم يكتب له ان يعيش ابداً ، لقد كنت احسه يتحرك دائماً ، في جوف أمه المسكينة ، كاترين . ولكنه في الاسبوع المتصرم توقف عن الحركة تماماً ، لربما كان مختنقا طيلة هذه المدة . . . آه . . . ايها الحمل البريء لو اني احدثك مثلك ، لا . . . لا اريد فليس من الحكمة ان تتلاحق الوفيات ، ان كاترين ستموت ستموت الآن ، وهذا ما سببته انت ،

وانت ايضا ، لقد قضيت دون ان تعرف السبب الذي من اجله لم تر النور ، ولم تتشقق اريج الحياة .. الحياة الجميلة الحلوة يا ولدي ، اني جالس هنا ، في الظلام ، انتظر مصير أمك .. أمك الانسانة المخلصة الطيبة ، لقد تركتنا يا بني وحيدين كما سبقي .. اني انتظر مصيرها كي تنهض وترافقني . ومضت لحظات .. واجتاحتني قلق مدمر .. ما زالت كاترين في الداخل لا تأتي حرا كما لماذا لا تفتح الباب ؟ .. سأنهض واتفقد الأمر بنفسي .

وفتحت الباب ، ولكن المرضة اسرعت ومنعتني من الدخول .

- وكيف هي ؟

- على ما يرام .. من الافضل ان تذهب وتتناول عشاءك .

وتحت الامطار الغزيرة ، قصدت الملهى الصغير للمرة الثالثة ، وكما في المرتين الاولتين ، لم أحس برغبة ، ولو ضئيلة .. في الطعام ، ولكني ارتأيت ان لا أعود سريعا الى المستشفى ، محاولا ابعاد تفكيري عن كل ما يمت اليه بصلة ، على اني بعد دقائق قليلة .. لم ادر الا وقدماي تسيران الى حيث كانت كاترين . وفي رواق الطابق العلوي ، التقيت بالمرضة مسرعة ، وكأنها تركض باتجاهي .

- لقد اتصلت بالمتهى الصغير هاتفيا ، وأحسست ان قلبي قد غار بعيدا .

- ما القضية ؟

- السيدة هنري تعاني نزيفا حادا .

- هل بإمكانني الدخول ؟

- ليس الآن .. فالطبيب برافقتها .

- وهل هي في حالة خطرة ؟ - جدا .

ودخلت الغرفة ، مغلقة الباب وراءها بينما تسمرت انا في الارض لا أدري عملا .. شاعرا ان كل جارحة في كياني تضطرم نارا . وشغل تفكيري ، وتأكدت انها ميثثة لا محالة ، ورحمت أصلي من أجلها كالمحموم ، لا تدعها تموت ، يا الهي ، لا تدعها تموت . اني أعبدك ان أفعل كل شيء من أجلك .. اذا لم تدعها تموت .. أرجوك ، أرجوك ، أرجوك .. ارحم شبابها ، يا الهي الحبيب .. لا تدعها تموت .. اني اقدم كل شيء تطلبه ، على ان لا تدعها تموت . أرجوك يا الهي ، أرجوك ان لا تدعها تموت ، أرجوك ، أرجوك ، أرجوك . لقد أخذت الطفل المسكين ، دون ان تراه حتى ميتا . فاحفظها هي من الموت ، يا الهي العزيز ، أرجوك ان لا تدعها تموت ، الا يكفي ذلك ؟

الا يكفي كل هذا؟ يا الهي الكبير ، لا تدعها تموت ، أرجوك يا الهي ،
أرجوك ، أرجوك ، أرجوك .

وفتح الباب ، وأشارت الممرضة الي بالدخول ، فتبعتها الي الغرفة ،
دون أن تشعر كاترين بدخولي ، كان الطبيب يقف الي جانبها ، وما أن
لمحتني حتى عضت شفثها وأغمضت عينيها ، تريد أن تخفي الدموع :

- يا حبيبي المسكين ، قالت بصوت أقرب الي الهمس ، ووجهها اشد
ما يكون من الشحوب .

- لا تخافي يا كات العزيزة ، انت في حالة حسنة . أرجوك ان لا تبكي .

- اني مألثة يا فرد ، وغصت . كم أمقت ان اموت يا فرد المسكين ،
فأمسكت بيدها .

- لا تلمسني يا فرد .

وتطلعت في وجهي تريد الابتسام ، ولكن قشعريرة حادة هزتها هذا :
- سوف تلمسني كثيرا .

- لا يا كات العزيزة ، سوف تتحسنتين قريبا ، اني اؤكد لك ذلك .

- اردت أن اكتب لك رسالة ، قبل أن تصل ، ولكني لم استطع .

- هل ترغبين في احضار كاهن لرؤيتك .

- لا ، فقط انت يا .. وغصت ، لست خائفة من الموت ولكني أمقت

ان افارقك يا فرد ، الحبيب ، يا ..

- ينبغي أن لا تتكلمي . قاطعها الطبيب .

- كما تشاء .

- هل تريدان أن أفعل أي شيء يا كات ؟ هل تريدان ان اجلب لك

أي شيء ؟

فابتسمت ابتسامة كسيرة :

- لا . واردفت بعد غصة : اتنا لن ..

ولكن الطبيب قاطعها صائحا :

- ينبغي أن لا تكثري من الكلام . السيد هنري يجب أن يخرج الان .

انت لن تموتي ، لا تكوني فريسة الوهم .

- حسنا . ساتي وأزورك يا فرد . تذكرني يا ..

وغصت من جديد ، بعد أن نطقت الكلمة الاخيرة ، بصعوبة عظيمة ،

بينما اقترب مني الطبيب هامسا :

- أرجوك أن تخرج .

وانتظرت خارجا . يظهر انهم لم يستطيعوا إيقاف التزييف ، او لربما
اصيبت بتزييف آخر ، وهذا ما قالته المريضة ، وهي تجفف دمعها ، خارجة
من الغرفة :

- هل انتهى كل شيء .
- تكلمي . . أرجوك .
- ايها تاقدة وعيها تماما ، ان الطبيب ينتظرك .
ظلمت الى جانب كاترين ، وهي غائبة عن كل ما حولها ، الى ان لفظت
روحها ، روحها النقية الطاهرة .

وفي الرواق خارج الغرفة سألت الطبيب :

- هل هناك ما يمكن أن أقدمه لك ؟
- لا . لا شيء أبدا ، اذا كنت فقط تسمع لي باصمالك الى الفندق .
- لا ، أشكرك ، أريد البقاء هنا فترة أخرى .
- اعرف انه لا يوجد ما يقال .
- فانا لا استطيع ان أخبرك .
- أرجوك ، لا اريد السماع عنها .
- أفضل ان أحملك معي الى الفندق .
- لا . شكرا .

وخطا نحو المصعد ، بينما اتجهت أنا الى الداخل .

- ليس من حقك الدخول ايها السيد .

تألمتني احدى المرضعات .

- بلى من حقى . - لا . ليس من حقك .

- بامكانك جميعا ان تخرجن .

ولكن بعد ان غادرن الغرفة وأغلقت الباب . مطمئنا الانوار لم استطع

البقاء . كان عملي نحية وداعية الى تمثال من اللحم .

فخرجت من الغرفة مغادرا المستشفى والمطر يسكب فوقى مدرارا .

- انتهى -